العتبة العلوية المقدسة
مكتبة الروضة الحيدرية
الرسائل الجامعية - ٤



الأثر القرآني في نهج البلاغة

دراسة في الشكل والمضمون



عباس علي حسين الفحام

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٢ م





مكتبة الروضة الحيدرية

الرسائل الجامعية ـ ٤

الأثر القرآني في نهج البلاغة

دراسة في الشكل والمضمون

عباس علي حسين الفحام

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٢م

الأثر القرآني في نهج البلاغة

- دراسة في الشكل والمضمون-

- الناشر: العتبة العلوية المقدسة
- إعداد: مكتبة الروضة الحيدرية
- تأليف: د. عباس علي حسين الفحام
- الإخراج الفني: نذير هندي الكوفي
- عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
- السنة: ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

العتبة العلوية المقدسة، العراق . النجف الأشرف

هاتف المكتبة: ٠٧٨٠٢٣٣٧٢٧٧ (٠٠٩٦٤)

هاتف الرابطة الثقافية: ٢١٨٨١٥٣٣٢٢ (٠٠٩٨)



تتبنّى «مكتبة الروضة الحيدرية»

بالتعاون مع رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية إصدار

سلسلة الرسائل الجامعية

استعداداً للنجف عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢م

وتقديراً ودعماً لجهود الباحثين، والمكتبة إذ تنشر هذه السلسلة

لا تتبنى الآراء المطروحة فيها بالضرورة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين .

لاريب في أن رحلة البحث في نهج البلاغة شاقة وشيقة في آن معا، شاقة لأن الإحاطة بكلام الإمام علي عليه السلام أمر عسير لغنائه وثرائه في المعاني والمباني، والباحث فيه على خطر عظيم إما النجاح وإما الفشل ولا سبيل ثالث لهما.

وشيقة لأن النظر في كلام الإمام عليه السلام والبحث في مبانيه مما ينفع الدارس ويكسبه فطنة وثقافة على صعيد السلوك اليومي وهو كله بعد توفيق من الله تعالى.

وليس غريبا انكباب الدارسين قديما وحديثا على استبيان أسرار التعبير في هذا الكتاب واستكشاف خبيئات المعاني فيه، ولعل مما يقر العين أن تتناوله البحوث الأكاديمية في الجامعات العراقية قاطبة بالدرس والتحليل في رسائل الدكتوراه والماجستير في السنوات الأخيرة بمختلف التخصصات الانسانية خاصة في الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبلاغية والنحوية والفلسفية فضلا عن التشريعية والأخلاقية. فهو يبقى معينا ثرا يغتني به الدارسون ولن ينضب ويعطي بقدر الاستعداد والعدة، والمنهل العذب كثير الزحام.

ولا جديد في الخوض بتوثيق نص نهج البلاغة وقد أغنانا عن البحث في ذلك السيد عبد الزهراء الخطيب رحمه الله في كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده)[1]، والسيد صادق الموسوي في كتابه (تمام نهج البلاغة)[2] وهما نسختان مسندتان روائيا. هذا إضافة إلى الدلائل الفنية والروائية التي أثبتها أستاذنا الدكتور الصغير في محاضراته (الأدب في العصر الإسلامي) التي ألقاها على طلبة كلية الفقه في النجف الأشرف منذ عام ١٩٨٣م، فضلا عن أن النص الذي اعتمدته في البحث بتحقيق كبير المحققين وهو الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم، كما أن البحث الذي أضعه بين يدي القاريء هو نفسه إثبات عملي يبرهن صحة انتساب الكلام في نهج البلاغة الى الإمام علي عليه السلام .

وليست بنا حاجة للتعريف بقائله أمير المؤمنين عليه السلام فهو أمير البيان العربي علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) وكفى، مثلما ليست بنا حاجة للتعريف بجامعه وهو الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) نقيب الطالبيين وشاعر الهاشميين وسليل العترة الطاهرة من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

إن أكثر ما يلفت النظر في نهج البلاغة ديمومة الحياة فيه فكلما زاده الباحث قراءة ازداد منه انتفاعا وجدة فهو أثر لغوي لاتمله الأسماع مهما تردد ذكره. وسر هذه الديمومة ونبض الحياة في نهج البلاغة هو القرآن الكريم، فثمة ثوب شفيف يغطي كلمات نهج البلاغة وصياغاته ومعانيه، نسيجه بلحمته وسداه من كلمات ومعاني الكتاب العزيز .

ومن هنا وقع اختيار عنوان البحث (**الأثر القرآني في نهج البلاغة**) لأن هذا الفراغ في دراسة انسراب التأثير القرآني الى نهج البلاغة دراسة لغوية وبلاغية

١- طبع في بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٧٥م.

٢- طبع في بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٢٦هـ.

وموضوعية لم يملأ بدراسة أكاديمية بعد على الرغم من الدراسات التي كثرت حول نهج البلاغة .

وإني لأعلم بصعوبة مركبي، ولا أدعي لنفسي فضلا، ولكن كان لابد من إقتحامه للخلوص منه بنتيجة علمية عسى أن تذلل الطريق للدارسين من بعد هذا البحث. فدراسة الأثر والتاثير بين القرآن الكريم ونهج البلاغة أشبه ما تكون بالدراسة المقارنة، وهو ليس أمرا يسيرا بسبب الثراء الإعجازي في النص القرآني والمسالك اللغوية المعقدة في نهج البلاغة .

وتخلصا من ذلك كانت المحاولة منصبة في تسليط الضوء على نقطة معينة من التأثير عند ايراد الشاهد بغية تقديم الدليل العملي المقنع للأثر القرآني في نهج البلاغة، مما يعني أن النص لابد أن ينفلت من بين يدي الباحث بمجرد أن يستجمع قواه للإمساك به وهذا أمر كنت قد أحسست به في الماجستير منذ أكثر من عقد من الزمان حين درست (التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام)، وها أنا أعيشه اليوم في الدكتوراه .

أما المنهج البحثي الذي اتبعته فقد كان قائما على الأسس الآتية:

دار البحث على محورين من التأثير القرآني هما الشكل والمضمون ولا يعني ذلك فصلا بينهما فلا شكل بدون مضمون ولا مضمون بلا شكل ولكن الدراسة التفصيلية اقتضت هذا الفصل لأن لكل منهما خصائصه ومميزاته مما يعني تركيز البحث على جانب معين من خلالهما وحصر النتائج في ظل ذلك .

إذن البحث انتظم في بابين وخمسة فصول، خص **الباب الأول** بعنوان (الأثر القرآني في نهج البلاغة (الشكل))، واشتمل على ثلاثة فصول هي بحسب علاقتها بالشكل:

الفصل الأول: وهو بعنوان (الألفاظ والبناء الجملي)، وقد درس الألفاظ والبناء الجملي من خلال المفردات البحثية الآتية:

ـ الكلمة المفردة: وصدى التاثير القرآني في نهج البلاغة فيها من طريق انتقاء المفردة ودقة استعمالها واقتباسها وسبل توظيفها .

ـ التركيب الجملي لما له من أثر واضح في صياغة الشكل، وتم حصر هذا التركيب من خلال نمطين شاعا في الجملة القرآنية ونهج البلاغة هما الجمل القصيرة والجمل الطويلة والعناصر المعتمدة في بنائهما، وهي أغلب مباحث علم المعاني في صناعة الجملة من تقديم وتأخير وحذف واستفهام وأمر وشرط ونداء وقسم .

ولما كان الفن البياني في نهج البلاغة من أوضح طرق الأداء للمعاني وأظهرها فقد كان لابد من الوقوف عليه ودراسة تأثير البيان القرآني فيه وهو ما تكفل به **الفصل الثاني** فجاء بعنوان (الأداء البياني) وهو جزء متمم للشكل في الصياغات التعبيرية من خلال العناصر التي تأثر بها الإمام عليه السلام من القرآن واتخذها وسائل تفنن بها في أداء معانيه وهي بحسب شدة تأثيره بها:

المجاز بأنواعه الإفرادي والتركيبي ثم التشبيه والتركيب الاستعاري فالملحظ الكنائي .

وفي كل تلك المباحث جرت المحاولة لالتماس الشواهد القرآنية التي اقتبسها الإمام عليه السلام أو ولد عليها كثيرا من الصياغات.

وكان **الفصل الثالث** بعنوان (جرس الألفاظ) وقد درس الصدى النغمي القرآني الذي اقتفاه الإمام علي عليه السلام وأدخله كلامه من خلال الوسائل الموسيقية التي توافر عليها التعبير القرآني وهي السجع والتكرار بأنواعه والجناس بأنماطه المختلفة والتوازن.

أما الباب الثاني فقد تكفل بدراسة المعاني القرآنية وموضوعاته التي انتهل منها الإمام عليه السلام في كلامه فكان بعنوان (الأثر القرآني في نهج البلاغة «المضمون») وقد انتظم في فصلين حاولت أحصر فيهما أكثر المعاني تداولا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهما:

الفصل الأول: وكان بعنوان (مجالات الأثر القرآني في نهج البلاغة).

ودرس الموضوعات القرآنية التي استقاها الإمام عليه السلام من المعين القرآني، وشمل المباحث الآتية المرتبة بحسب كثرتها في الاستعمال:

١ـ تعظيم الله وتنزيه الباري .

٢ـ عالم الموت والحياة .

٣ـ خلق الإنسان والكون .

٤ـ الجهاد في سبيل الله .

٥ـ الدعوة الى التقوى .

أما الفصل الثاني: فقد جاء بعنوان (الشاهد القرآني في نهج البلاغة) وانقسم على ثلاثة مباحث رئيسة، درس **الأول** أسلوب الإمام عليه السلام في استعمال الشاهد القرآني وحصر بثلاثة أساليب هي:

١ـ التصريح بنسبة الشاهد الى القرآن.

٢ـ عدم التصريح بنسبة الشاهد .

٣ـ التذييل .

وتخلل المبحث الثاني منه دراسة الوظائف التي من أجلها استعمل الإمام عليه السلام الشاهد القرآني وحصر أهمها في خمس وظائف بحسب كثرة استعمالها في نهج البلاغة:

١ـ إصلاح الذات وتهذيب النفس.

٢ـ الترغيب والترهيب .

٣ـ الوظيفة العبادية والعقائدية .

٤ـ الاحتجاج .

٥ـ الوظيفة العقلية.

أما المبحث الثالث فقد تناول الفهرس التفصيلي للآيات القرآنية المباركة التي استشهد بها الإمام عليه السلام بحسب اسبقيتها في نهج البلاغة لغرض استقرائها والخروج منها بنتائج تكمل البحث إحصاءً واستقصاءً .

وكان آخر رحلة البحث في **الخاتمة** التي وقعت في محورين، تناول الأول ما وصل اليه البحث من نتائج، وقدم المحور الثاني ما خرج به من اقتراحات موضوعية.

وقد تعددت مشاربي من المصادر والمراجع بسبب تنوع الدراسة بين النص القرآني ونهج البلاغة، فقد كانت أغلب مصادر التفسير القرآني، القديمة منها خاصة، عدتي في محاولة الولوج الى النص القرآني واستكناه معانيه واستشفاف خباياها.

أما بشأن كلام الإمام عليه السلام في نهج البلاغة فقد أفدت من كل الشروحات القديمة والحديثة لنهج البلاغة خاصة شرح ابن أبي الحديد وشرح ابن ميثم البحراني نظرا لقدمهما وعمقهما في الشرح.

وكان لابد لي من محاولة الأخذ بأطراف البلاغة القديمة وما وصلت اليه اليوم الدراسات الأسلوبية البلاغية، خاصة الدراسات الحديثة والأجنبية المترجمة، فكانت لكل ذلك زوافري التي استندت اليها في الخوض في نصي الأثر والتأثر.

هذا وقد حاولت في البحث أن أكون جادا مجتهدا ألتمس الجدة فيه، والابتعاد عن اجترار التكرار، فبذلت فيه كل وسعي وعصارة جهدي، فإن بانت الفائدة منه فلله الفضل، وإن ظهر النقص فيه فمجد الكمال مختص به الله وحده، والله تعالى من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



ملامح الأثر والتأثر بالقرآن في نهج البلاغة:

يطلق النقد الحديث على الأثر والتأثر لفظ التناص القائم على أساس أن «كل نص يتشكل من تركيبة فسيفسائية من الاستشهادات وكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى»[1] فهو تفاعل النصوص المختزنة في نص واحد باستدعاء خبرات متراكمة موروثة في الذهن وإعادة صياغتها من جديد بحسب ما يمليه الموقف الفني على الأديب.

وفي الموروث النقدي العربي يسمى السرقات وهي اللفظة الشائعة على ألسنة النقاد القدامى وغرضهم من ذلك الغضاضة من شأن الأعمال الأدبية للشعراء المحدثين كما في كتاب (الإبانة عن سرقات المتنبي) لابن العميدي (ت ٤٣٣هـ)، بل كان أكثر ما يغتاظ منه الشعراء وسمهم بالسرقة[2].

وتبدو نظرة النقد الحديث أكثر إنصافا وموضوعية بشأن التناص من موقف النقد العربي القديم الذي سماه السرقة والسطو والإغارة والسلخ ... وهي كلها فيما يبدو من قساوة هذه الصفات نابعة من موقف النقاد العرب القدامى وميلهم إلى القديم من شعر الجاهليين ومن تبعهم على حساب الجديد

١- إيمان الشنيني، التناص النشأة والمفهوم ، مجلة أفق الثقافية، العدد١، أكتوبر ٢٠٠٣م .

٢- ظ. طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد العربي: ١٠٢ ـ ١٠٣.

من شعر المحدثين[1].

وكان من الإنصاف أن يسمى ذلك بـ «التداعي في الأفكار والتلاقي في الهواجس والاشتراك في المفاهيم الشائعة بين الباحثين والأدباء والشعراء»[2]، فالأدب نتاج إنساني مشترك لا مندوحة للمبدعين من الاغتراف منه والاستعانة به واستجلابه من المخزون الذهني، والعبرة في إبداع هذا الأديب من ذاك هي في مديات الإضافة والنقصان ممتزجين بومضات شعورية نفسية يحتمها عليه موقفه الفني الآني فالموقف الأدبي عملية تجل روحية.

ومن الغريب أن النقد العربي القديم لم يؤاخذ الشاعر على استقاءاته جملة من القرآن أو آية كريمة بل سماه النقاد اقتباسا بينما انصب وكدهم على تتبع صياغات الشعراء المحدثين ومعانيهم وانتقصوا من شأن من يأخذ من الجاهليين ـ على الإجمال ـ ويتكئ على معانيهم.

وقد بالغ النقد العربي القديم في إعلاء سلطة النص الجاهلي ـ على رفعة قدره ـ مثلما أسرف الشعراء فيما بعد ـ شعراء العصر الأموي خاصة ـ في الاقتداء بصياغات الجاهليين ومعانيهم متغافلين ـ طوعا أو كرها ـ عن لغة جديدة نزل بها القرآن الكريم كان يمكن لو أمعن النقاد والشعراء معا في الوقوف عليها واحتذائها ولفت الانتباه إليها ابتكار معلقات إسلامية ـ إذا صح الكلام ـ في عصر صدر الإسلام وما بعده بدلا من تقليد الموروث الجاهلي بأشد مما عليه الجاهليون أنفسهم، لأن الفرصة كانت مواتية والفطرة السليمة لازالت بكرا في فهم النص القرآني المعجز والاقتداء به وحل رموز علاقاته التركيبية «ولو أنهم تمعنوه لوجدوا

١- ظ. محمد حسين الأعرجي، الصراع بين القديم والجديد: ٥٠ ـ ٥٢.

٢- مقابلة شخصية مع الأستاذ المشرف في ١/ ١٢ / ٢٠٠٧م .

فيه أساليب من القول، وضروبا من الفن الأدبي، كان يسيرا عليهم أن يحتذوها. في القرآن مثلاً الأسلوب القصصي، وتاريخ الأقدمين، وقصص الأنبياء، وتلك أمور تزيد في روحية الأدب وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام»[1]، وكان يمكن أن يكون النص القرآني مثالهم للانفلات من أسر تقليد النص الجاهلي .

ولكن لماذا لم يستطع الأدباء المسلمون استغلال النص اللغوي القرآني المعجز واقتفاء صياغاته وجمال عباراته ؟ ولم لم يكن النتاج الأدبي في عصر النبوة بمستوى فني رفيع يبذ ما أنتجته الجاهلية إن لم يكن يوازيه ؟

لاشك في أن فرصة تأثر الصياغات القرآنية على صعيد بناء لغة تقتفي لغة القرآن وإعادة صياغة الفن القولي المتمثل بالشعر والخطابة وتشكيله تشكيلا قرآنيا قد ضاعت من أيدي أرباب هذا الفن في عصر صدر الإسلام وما تلاه واقتصرت على أناس محدودين للغاية يقف على رأسهم النبي الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطابة والايجاز بشهادة كل الدارسين للبلاغة العربية. وكلاهما ـ لاشك ـ أرفع من صفة الأدباء .

لذلك كانت خطب الرسول ﷺ ـ على الرغم من قلة ما وصل إلينا منها ـ وأحاديثه وابتكاره لأوضاع تركيبية جديدة في الكلام العربي[2] وخطب الإمام علي ورسائله وأقواله العلامة الفارقة في جبين الأدب العربي فكان أن انتظمت شروحا مميزة ينتهل منها الأدباء قديما وحديثا مثل كتاب (المجازات النبوية)، و(نهج البلاغة) لجامعه الشريف الرضي مثلا للمصنفات القديمة، وكتاب (الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية) للرافعي مثلا للمصنفات الحديثة.

١- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي: ١٠٧.

٢- ظ. الجاحظ، البيان والتبيين: ٢/ ١٦.

وكل ذلك تأتى من فهم طبيعة اللغة القرآنية التي يدركها العربي بفطرته ولكنه لا يحسن التعبير عنها لجدة مضامينها ولأن عليه الانصهار بروح القرآن والذوبان في مضامينه لتغدو اللغة حينئذ صورة سريعة للمعنى فلا ينشغل الذهن في أدائه ولا يكد في استجلاب الألفاظ المناسبة لتجليته.

وهذا يفسر سر ذهول الشعر العربي عند ظهور القرآن وما بعده، فقد لمس النقاد العرب القدامى ضعفا في الشعر وهو ضعف واضح بمجرد مقارنته بالعهد الجاهلي غير البعيد عنهم في الوقت الذي يمكن أن يكون النص اللغوي القرآني عامل قوة وإثراء لغوي عظيم في الفن الشعري، أليس ذلك غريبا ؟ .

نعم هناك فن شعري رفيع في بعض نصوص حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك في مدح الرسول ﷺ وانتصاراته في حروبه، وهناك صور فريدة في رثاء أبي ذويب الهذلي لأبنائه، ولكن على إجمال المرحلة ـ عصر صدر الإسلام ـ ومقارنة بأعمال الشعراء الجاهليين نلمس الفرق بينا واضحا في قوة الأداء وحرارة المعنى وقدرة التأثير، فأدباء الدعوة الإسلامية لم يصلوا إلى حد التأثير القرآني المأمول في ترسم بناء لغوي محكم يتناسب والأثر القرآني، واكتفوا باقتباس اللفظة أو الجملة القرآنية، كقول كعب بن مالك في يوم الخندق[1]:

(الوافر)

ويعلم أهل مكة حين ساروا	**وأحزاب أتوا متحزبينا**
بأن الله ليس له شريك	**وأن الله مولى المؤمنينا**

١- كعب بن مالك، الديوان: ٢٨٠.

وقوله[1]:

(الطويل)

شـــهدنا بـــأن الله لا رب غـــيره وأن رســـول الله بـــالحق ظـــاهر

وكقول عبد الله بن رواحة (ت٨هـ) [2]:

(الوافر)

شـــهدت بـــأن وعـــد الله حـــق وأن النـــار مثـــوى الكافرينـــا

ولا نريد اقتطاع القصائد من مناخها العام الذي قيلت فيه وما يحمل من هم منافحة الشعر المعادي الذي يلجئهم الى الرد السريع ولو على حساب الفن، ولكن في نتيجة الأمر يبقى أن التأثير القرآني لم يمس أبعد من اقتباس اللفظة أو العبارة القرآنية دون بناء الصورة الجديدة، أو الجري الى تتبع الجملة القرآنية والاقتداء بصناعة علاقات تركيبية على غرارها مثل بناء الجمل على علاقات الفن الاستعاري وصياغة الجمل بالتشبيه التمثيلي وهي كلها مما حفل به التعبير القرآني وقل في فن القول العربي الجاهلي فضلا عن استعمالات فنون البديع المختلفة .

وهذا حسان بن ثابت (ت٦٠هـ) الذي يقف على رأس شعراء الدعوة الإسلامية[3] يكاد يجمع النقاد العرب القدامى على هذا التباين الكبير ما بين مرحلتي شعره في قوته في الجاهلية وليونته في الإسلام، قال الأصمعي (ت٢١٦هـ) معللاً ذلك: «الشعر نكد بابه الشر، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول

١- كعب بن مالك، الديوان: ٢٠٠.

٢- عبد الله بن رواحة: ٣٨.

٣- ظ. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢١٩.

الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره»[1]، وقال مرة أخرى: «شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام»[2].

وقصيدته الهمزية في رده على شاعر قريش أبي سفيان بن الحارث شاهد زعمنا ومطلعها [3]:

(الوافر)

عفت ذات الأصابع فالجواء	**الى عذراء منزلها خلاء**

ففيها تباين من القوة والضعف الفني في الأداء في بعض مواطنها الى حد التشكيك بمقدمته وأنها مستعارة«مما كان قد قاله قبل الإسلام»[4] فهو حين يجري على طبعه في استعمال لغته الجاهلية القديمة نحسه قوي العبارة عالي النغمة كقوله[5]:

(الوافر)

كأن سبيئة من بيت رأس	**يكون مزاجها عسل وماء من التفاح**
على أنيابها أو طعم غض إذا ما	**هصره الجناء فهن لطيب الراح**
الأشربات ذكرن يوما ونشربها فتتركنا ملوكا	**الفداء وأسدا ما ينهنهها اللقاء**

حتى إذا وصل الى المعاني الجديدة في الدفاع عن الرسالة الإسلامية وذكر

١- ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٣٠٥.

٢- المصدر نفسه والصفحة.

٣- حسان بن ثابت، ديوان حسان، تح. وليد عرفات: ٤.

٤- ابتسام الصفار، الأمالي: ٦٦.

٥- حسان بن ثابت، ديوان حسان: ١/ ١٨.

الرسول والإله الواحد تفتر عبارته ويخبو بريقها، كقوله [1]:

(الوافر)

هجوت محمدا فأجبت عنه أتهجوه ... وعند الله في ذاك الجزاء فخيركما
ولست له بكفء فإن أبي ووالده وعرضي ... لشركما الفداء لعرض محمد منكم وقاء

فالتقريرية، والخطاب المباشر، والمعنى المستهلك في الحوار اليومي ملأت أبياته التي لا تتناسب ومكانة الرسول، ولعل لحسان عذره، فالشعراء تعودوا مدح الممدوح لذاته، الأمر الذي يختلف في حالة النبي، إذ ينبغي النظر الى ذاته مرتبطة بمكانته من الرسالة الإلهية، وعلاقته بالله تعالى، وهي كلها دلالات جديدة تشغل ذهن الشاعر عن الأداء الفني الرفيع، وتتطلب وقتا لاستيعابها واستثمارها والتعبير عنها[2].

على أنه يسجل لحسان إبداعه في قوله[3]:

(الوافر)

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

ولكن كم بيتا بمثل هذا المستوى الفني من قوة مدح الرسولﷺ خاصة في إجادته استعمال الأفعال المبنية للمجهول ومشتقاتها مثل (خلقت، مبرأ) وجمال تكرار الفعل (خلقت).

ومثل هذا الخطاب المباشر والتقريرية التي تكاد تحيل الشعر إلى نثر قوله[4]:

١- حسان بن ثابت، ديوان حسان: ١/ ١٨.

٢- ظ. حسن فياض، الرؤية الإسلامية في شعر المخضرمين(رسالة دكتوراه): ١٣٩ .

٣- حسان بن ثابت، ديوان حسان: ١/ ١٨ .

٤- المصدر نفسه: ١/ ٣٠٦.

(الطويل)

وأنـذرنا نـارا ويـبشر جـنة	وعلـمنا الإسـلام فـالله نحـمد
وأنـت إلـه الخلـق ربي وخالـقي	بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سـواك إلهـا أنـت أعـلى وأمجـد
لك الخـلق والنعماء والأمر كله	فإيـاك نـستهدي وإيـاك نعبـد

فهذه أبيات خلت من روح الشعر فعادت نظما نحسه في قوله (فالله نحمد) وفي قوله (ربي وخالقي) وفي التجائه لأجل الموسيقى الشعرية إلى تغيير الآية الكريمة واستعمال لفظة (نستهدي) مكان (نستعين) وأصل الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] .

وكان أظهر تفسير لذلك الضعف الفني في النتاج الأدبي الشعري هو التعلل بالموقف السلبي للإسلام من الشعر[2] تذرعا بقوله تعالى:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا الله كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[3] .

والحال ليس كذلك، ففي الآية استثناء واضح يعلي من الشعراء المؤمنين بالعقيدة الجديدة والمدافعين عنها، لأن المرحلة الفكرية الجديدة تستوجب إعادة صياغة هذه الثقافة وصقلها بما يخدم مصلحة الإسلام وانتشال هذا الفن من الإسفاف في مبالغات المدح والتغزل والتكسب بالشعر، بل قد لا يمانع من

١- الفاتحة: ٥.

٢- ظ. ابتسام الصفار، أثر القرآن في الأدب العربي: ٥ ـ ١٢.

٣- الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

التشبيب ـ أحيانا ـ إذا لم يكن بمعين ما، كما ورد في مقدمة قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسولﷺ[1]:

(البسيط)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا — إلا أغن غضيض الطرف مكحول

فإن وراء ذلك هدفا جليلا للدخول في صميم الموضوع من بيان مكانة الرسول الأعظمﷺ ومنزلته الكبرى فيقول[2]:

(البسيط)

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القـ — ـرآن فيها مواعيظ وتفصيل
إن الرسول لنور يستضاء به — مهند من سيوف الله مسلول

لهذا نجد شعر الشعراء في صدر الإسلام قد شهر سلاحا في المعركة ضد قريش والوثنية، ومن المؤكد إن الإسلام لم يقف بوجه الشعر والشعراء بل عمل على توجيهه وجهة أخرى تناسب الفكر الروحي الجديد، واتخذ منه وسيلة دفاع مشروعة كما جاء على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، ولعل من الإنصاف لشعراء الدعوة الإسلامية الأول أن لا يجري تحميلهم ثقل المعنى الجديد وثقل أدائه فنا شعريا، فربما كانت مرحلة الدفاع عن العقيدة التي تستوجب على الشعراء أحيانا الرد السريع والارتجال سببا يضاف إلى أسباب ضعف فنية الشعر الإسلامي في عصر النبوة وما تلاه، ولكن كان على الأديب الإسلامي في الوقت ذاته استيعاب بنية اللغة القرآنية التي حملت معاني غاية في

١- كعب بن زهير، ديوانه: ٦٥.

٢- المصدر نفسه والصفحة.

الجدة كقضايا التوحيد والمعاد والثواب والعقاب وبناء نظام الدولة الجديدة واستثمارها فنيا، الأمر الذي يتطلب فسحة طويلة من الوقت لهضمها وتمثيلها ثم التعبير عنها تعبيرا فنيا .

وقد كان يمكن استثمار الوقت الطويل للثقافة القرآنية التي مرت على الذهنية العربية والانطلاق بها نظما ونثرا فنيين لولا السياسة الأموية المتعمدة في تجاوز الإسلام وإرجاع الثقافة العربية إلى سابق عهدها في الجاهلية[1] فكان لهم ما أرادوا فعاد الشعر جاهليا كأشد ما يكون عليه من إيغال في أساليب الجاهلية ومقدماتها الطللية ورحلة الصيد وذكر أسماء مواضع الجاهليين وعاد الشعراء وكأنهم لم يتنسموا لغة الإسلام الجديد فغدا فنهم تقليديا محضا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن المنظومة الذهنية الشعرية للعربي وقتذاك اعتادت الإجادة في فن القول الشعري عن التجارب المشتركة الواسعة كالمدح مثلا فإذا ضاقت عليه دائرة المعنى ينحاز عنه أو يتركه وهذا يفسر انحسار الشعر عن فن الرثاء والإخفاق في التجويد في المعاني الضيقة، ومن المعلوم أن المعنى إذا كان أكثر عموما وأغنى أمثلة وخصائص كان أيسر في التعبير عنه وكانت الألفاظ اليه أسرع، وكلما ضاق المعنى وتحدد ودق وتعمق كان التعبير عنه أشق وكانت الألفاظ من حوله أقل وهذا ما قرره الأصمعي(ت٢١٦هـ) فيما ذكر من أن «طريق الشعر اذا أدخلته في باب الخير لان»[2] ، لذا كانت موضوعات التوحيد والمعاد والثواب والعقاب مما يعسر على الأدباء تأديتها تأدية فنية كما رأينا.

وحتى في النثر الذي علا شأنه في عصر صدر الإسلام نجد الخطيب منشغلا

١- ظ. داود سلوم، سوسيولوجيا النقد العربي القديم: ٦٢ ـ ٦٤.

٢- الأصمعي، فحولة الشعراء: ٤٢.

بهذه المعاني عن تأديتها تأدية فنية مبتعدا عن التلوينات النغمية في صياغة العبارة مفضلا الجريان على طبعه لعدم قدرته على التوفيق بين المعنى الجديد والأداء الفني لذلك كان الإمام علي عليه السلام «أول من عالج فن الخطابة معالجة الأديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب»[1].

وهذا الأمر هو الذي يفسر سر الاستحياء في استعمال السجع في النثر الإسلامي كما سيأتي في فصول البحث.

فأصحاب الفصاحة والبيان ـ بشكل عام ـ خاضوا بقوة في موضوعات الفخر والموعظة والمديح والحماسة والهجاء بينما في مجالات الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم بدوا أقل احتفاء منهم بها، وقلما نجد الشعر يقتحم هذه الميادين.

أما القرآن فلغته شيء آخر، فالنسق واحد ينتظم مختلف الموضوعات. في الموعظة بناء لغوي محكم تشبه قوة نسجه في موضوع التشريع أو خلق الإنسان والكون من غير ضعف في هذا النسج أو ذاك. في البناء اللغوي القرآني عناصر حياة تجعل منه لا يخلق على الآذان سماعه ولا يدب الملل الى سامعه ففي أسلوب القرآن «لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام»[2].

لذلك لم نر أديبا أجاد في المعاني الإسلامية الجديدة إجادة الأديب الجاهلي لمعانيه، لأنه لا يمكن التعبير فنيا عن المعنى الإسلامي الجديد بلغة الجاهلية القديمة، فعليه التخلي عن الثقافة اللغوية الموروثة القديمة والانصهار في الثقافة القرآنية الجديدة، فقد وفرت الصياغات القرآنية زخما عاليا من الثراء اللغوي وكان على الأديب في عصر النبوة التنبه إليه واقتفاء أثره واستثماره بشكل كلي وليس

١- العقاد، عبقرية الإمام علي: ١٨١.

٢- الرافعي، تاريخ الأدب العربي: ٢٤١.

الوقوف عند حد اقتباس اللفظة أو الجملة من القرآن، وأعني بالشكل الكلي البناء اللغوي المتكامل للنص القرآني القائم على نظام من العلاقات التركيبية التي تعمقت فيها الدلالة بوسائط لغوية امتزج فيها الصوت بالصورة من غير أن يسمى شعرا.

كان الأثر الحقيقي المبكر للقرآن في الكلام العربي على لسان علي عليه السلام فما وصلنا من كلامه المجموع في (نهج البلاغة) يعد من أظهر تجليات الأثر القرآني في الأدب العربي لسبب واضح هو أن المعاني الإسلامية ذائبة في نفس علي عليه السلام وهي بعد جديدة على غيره عليه السلام فقد كان «مما انعم الله على علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الإسلام»[1]، إذ رباه الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن مست الضراء بيت أبيه أبي طالب إثر القحط الذي ضرب قريشا، فاستخلصه النبي صلى الله عليه وآله لنفسه[2] وكانت تلك بداية علاقة الإمام عليه السلام بالقرآن لأنه كان لا يفارق ابن عمه صلى الله عليه وآله حتى في تأملاته في غار حراء.

وقد صور الإمام علي عليه السلام نفسه هذه المرحلة من حياته مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقال من خطبة له:

«وَ لَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ، غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»[3] .

لهذا نشأ الإمام عليه السلام حافظا للقرآن واعيا لآياته يعرف باطنها مثلما يعرف

١- الطبري، تاريخ الطبري: ٢/ ٢١٣.

٢- ظ. المصدر نفسه والصفحة. ظ.ابن هشام، سيرة ابن هشام: ١/ ٢٢٨. إسماعيل الصدر، حياة أمير المؤمنين في عهد النبي: ٤٠ ـ ٤٥ .

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٨.

ظاهرها وهو ما أكده النبي ﷺ بأحاديثه في فضل علي عليه السلام [1].

قال ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ): «وقد اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد الرسول ﷺ ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أول من جمعه» [2].

وكلام الإمام علي عليه السلام وخطبه تشكل «تراثا جما يمثل قدرة هذه الأمة العظيمة على الخلق والإبداع متمثلة بقابلية الإمام البلاغية وقدرته في التعبير عن شتى المعاني بأسلوب رائع مؤثر. وقد استمد معانيه وأفكاره من معين القرآن الذي نهل أدبه، وارتوى من آياته» [3].

كان الإمام علي عليه السلام شديد التأثر بالقرآن الكريم قولا وفعلا وعمل على ترسيخ الثقافة القرآنية في أذهان الناس بلفت أنظارهم إلى وجوب إحلال هذه الثقافة في النفوس وإمكانية استبدال البناء اللغوي الجاهلي بآخر جديد معجز في بنائه ومعانيه من خلال قدرتها على استيعاب الحياة .

جاء في كتاب (وقعة صفين) أن الإمام عليا عليه السلام لما سار بجيشه إلى صفين مر بمدينة بهرسير [4]، وإذا رجل من أصحابه يقال له حر بن سهم بن طريف من بني ربيعة بن مالك ينظر إلى آثار كسرى ويتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفر [5]:

١- ظ.النسائي، خصائص أمير المؤمنين: ١٣١ .

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٨ .

٣- ابتسام الصفار، أثر القرآن في الأدب العربي: ١٨٦ .

٤- من نواحي سواد بغداد في غربي دجلة وهي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن ظ. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٥١٥ .البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٣٢٢.

٥- تنظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٢٥٥. البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٣٨٩. الزركلي، الأعلام: ١/ ٣٣٠.

(الكامل)

جـرت الريـاح علـى محـل ديـارهم　　　فكـأنهم كـانوا علـى ميعـاد[1]

فقال له عليه السلام:

«أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[2] إن هـؤلاء كـانوا وارثـين فأصبحوا مـورثين، ولم يشكروا النعمة، فسلبوا دنياهم بالمعصية، إياكم وكفـر الـنعم لا تحـل بكـم الـنقم، انزلوا بهذه النجوة»[3] .

ولاشك في أن النص القرآني هو القمة في الاستشهاد بمثل هذه المواقـف، بيـد أن الإمام عليه السلام إنما نهى عن ذكر هذا الشاعر خاصة لأنه مـن كبـار شـعراء قـريش الذين عارضوا الإسلام وأعلنوا وثنيتهم كما في قوله[4]:

(الوافر)

أيوعـدنا ابـن كبـشة أن سنحيـى　　　وكيـف حيـاة أصـداء وهـام

ألا مـن مبلـغ الـرحمن عـني　　　بـأني تـارك شهـر الـصيام

فقـل لله يمنعنـي شرابـي　　　وقـل لله يمنعنـي طعـامي

١- ظ.المفضل الضبي، المفضليات: ١٠٢ .

٢- الدخان: ٢٥ ـ ٢٩ .

٣- نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ١٤٢ .

٤- تنظر الأبيات في كتب التفسير والأدب في آيات تحريم الخمرة مثل: الطبري، جامع البيـان: ٢/ ٤٩٢. الطباطبـائي، الميـزان: ٦/ ١٣٢. الـثعلبي، تفـسير الـثعلبي: ٢/ ١٤٢. الأبـشيهي، المستطرف: ٢/ ٢٢٩.

وكان هذا معروفا لدى المسلمين، وكان الشاعر مبغوضا لديهم جدا لـذلك لم يرد الإمامعليه السلام أن يستشهد بشعره .

وكل ذلك ثقافة جديدة عمل الإمامعليه السلام على ترسيخها في النفوس في وقت كان يعتقد فيه العربي أن الشعر وحده القادر على التأثير في معان غلب عليها في ذكر الطلل وعبر الذكريات، وإيراد الإمامعليه السلام لمثل هذه الآيات الكريمة يعد تطبيقا حيا ينقل النظرية الى التطبيق ويوحي بوجوب الإفادة من الوقوف على آثار الماضين وهو كله ينبئ عن ذوبان الإمام عليه السلام في القرآن.

ولذلك نجد في كلام علي عليه السلام ما يشبه الإحجام عن ثقافة الشعر الجاهلي فليس في كلامه ظلالها، فهو مقل على كثرة خطبه ورسائله من الاستشهاد بالشعر الجاهلي، وإن تمثل ببيت منه فهو يتخيره من الحكم التي تجري أمثالا سائرة، كقولهعليه السلام لما عصاه قومه بشأن التحكيم[1] متمثلا ببيت من قصيدة دريد بن الصمة [2]:

(الطويل)

أَمَــرْتُهم أَمْــرِي بِمُنْعَــرَجِ اللِّــوَى   فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَـدِ

وكان من خبر هذا البيت أن عبد الله وهو أخو دريد ويسمى عارضا لم يستمع لأخيه نصحا فكان أن لقي حتفه، ومن هنا وقع استشهاد الإمام عليه السلام بالبيت فقد التقى معه بسبب من التفرق والهلاك نتيجة عدم استماع النصيحة.

ومن تمثله بالشعر الذي يجري مثلا قوله عليه السلام في جواب إلى أخيه عقيل:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ، وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ

١- ظ. ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين: ٤٩٧ ـ ٥١٨ .

٢- البيت لدريد بن الصمة، تنظر ترجمته: أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ١٢ ـ ١٩.

وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْـمُقْتَعِدِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سليم:

(الطويل)

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي	**صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ**
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ	**فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ»[1].**

وقال ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) معلقا على نسبة هذه الأبيات: «الشعر ينسب الى العباس بن مرداس السلمي ولم أجده في ديوانه»[2].

وتكثر في استشهادات الإمام عليه السلام بالشعر الجاهلي ظاهرة التمثل بأنصاف الأبيات بسبب التقائه معها بسبب من الحكمة أو مناسبة من الموقف نحو قوله من رسالة الى معاوية:

«**وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْـخُلَفَاءِ حَسَدْتُ وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ**، وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا... **ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ ... وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لَاذَنْبَ لَهُ**، وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْـمُتَنَصِّحُ ... **وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ، مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ، فَلَبِّثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ** الْـهَيْجَا حَمَلْ»[3].

فقوله: (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها)، وقوله: (وقد يستفيد الظنة المتنصح)،

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٩.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٥٢.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٤.

وقوله: (لبث قليلا يلحق الهيجا حمل)، كلها أشطار لأبيات شعرية مختلفة مما يجري مجرى الأمثال عند العرب، فالأول لأبي ذؤيب الهذلي وتمامه[1]:

(الطويل)

وعيَّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وهو مما يجري مجرى الأمثال «يضرب لمن ينكر أمرا ليس منه في شيء ولا يلزمه إنكاره»[2].

والثاني مثل يضرب لمن يبالغ في النصيحة لصاحبه حتى يتهم أنه غاش له وصدره[3]:

(الطويل)

وكم سقت في آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد الظنة المتنصح

والثالث مثل يضرب للوعيد بالحرب فـ(حمل) أسم رجل شجاع كان يستظهر به في الحرب، وأصله أن حمل بن بدر رجل من قشير أغير على إبل في حرب داحس والغبراء وأغار واستنقذها وقال [4]:

(الرجز)

لبِّث قليلا يلحق الهيجا حمل ... ما أحسن الموت إذا الموت نزل

ومثله قوله عليه السلام وقد سأله بعض أصحابه كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام

١- السكري، شرح أشعار الهذليين: ١/ ٧٠ .

٢- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٤٤٣ .

٣- ظ. العسكري، جمهرة الأمثال: ٢/ ١٦١ وقد اختلف في نسبة البيت، ونسبه العسكري خطأ الى عمارة بن عقيل وهو شاعر عباسي.

٤- ظ. العسكري، جمهرة الأمثال: ٢/ ٢٠٦.

و أنتم أحق به؟:

«...أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْـمَقَامِ، وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً وَالأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللهِ نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالْحَكَمُ اللهُ وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، **وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ**، وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ...»[1].

وقوله: (وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ) من شطر بيت لامرئ القيس وتمامه[2]:

(الطويل)

ودع عنك نهبا صيح في حجراته ... ولكن حديثا ما حديث الرواحل

وهو مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجل منه [3].

وأصل المثل أن امرأ القيس «نزل على خالد بن سدوس النبهاني، فأغار باعث بن حويص على إبله، فبلغ الخبر امرأ القيس، فذكره لخالد، فقال خالد: أعطني رواحلك أطلب عليها القوم، فركبها ومضى، فلحق القوم، فقال لهم: أغرتم على إبل جاري، قالوا: ما هو لك بجار، قال: بلى والله، وهذه رواحله تحتي، فأنزلوه عنها، فأخذوها، فقال امرؤ القيس:

(الطويل)

ودع عنك نهبا صيح في حجراته ... ولكن حديثا ما حديث الرواحل

يقول: دع نهبا صاح باعث في نواحيه، فغير منكر أن يكون مثل ذلك، ولكن

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٦٣.

٢- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق عمر فاروق الطباع: ١٢٠ .

٣- ظ. الميداني، مجمع الأمثال: ٨٨. ابن الأثير، الفائق في غريب الحديث: ١/ ٣٤٣.

حدثني حديث الرواحل التي كنا نريد أن نستنقذه بها، فذهبت هي أيضاً»[1] .

وهذا هو السر في تمثل الإمام عليه السلام بصدر البيت «فكأنه قال دع عنك ما مضى وهلم ما نحن الآن فيه من أمر معاوية فجعل (هلم ما نحن فيه من أمر معاوية) مقام قول امريء القيس (ولكن حديثا ما حديث الرواحل)»[2] .

ولا يمكن تفسير قلة تمثل الإمام عليه السلام بالشعر الجاهلي بعدم معرفته به أو خلو حافظته منه، بل يدل استشهاده وتخيره لأبيات منه على دراية واسعة بمضامينه ومناسباتها وقائليها، وهذا التخير يعني أنه يحفظه ويحسن استثماره في كلامه، ولكنه لم يتأثر به أسلوبا ولم يتبع صياغاته أو يستعر صوره ولم يتفق معه إلا من خلال الأبيات التي تجري مجرى المثل السائر، فجل عدد الأبيات التي تمثل بها في كلامه الواصل إلينا في (نهج البلاغة) أثني عشر بيتا أكثرها من أنصاف الأبيات[3] .

أليس ذلك دليلا على عدم تأثره بالأدب الجاهلي على علو كعبه ؟ .

وماذا يصنع علي عليه السلام بأدب لا يمس قيمه ولا يمثل الفكر الذي آمن به ؟، ولا يعني ذلك غضا من شأن الشعر الجاهلي ولكن الإمام عليه السلام متأثر بشكل كلي بأدب القرآن وصوره وأساليبه، ومن«قصد البحر استقل السواقيا»[4] .

كان علي عليه السلام «يخلط القرآن بذاته ويحوله الى نفسه وفي حياته الى منهج واقعي والى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثارا وأحداثا تحول خط سير الحياة. فالقرآن لا يمنح كنوزه الا لمن يقبل عليه بهذه الروح:

١- العسكري، جمهرة الأمثال: ١/ ٤٥٢.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٤٦ .

٣- ظ. صبحي الصالح، نهج البلاغة (فهارس الشعر): ٨١٨. عباس الفحام، التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام (رسالة ماجستير): ١١٩ ـ ١٢٠ .

٤- من بيت للمتنبي وتمامه: قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا. ينظر البرقوقي، شرح ديوان المتنبي: ٢/ ٥٠٩ .

روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي و لا كتاب أدب وفن ولا كتاب قصة وتاريخ ـ وإن كان هذا كله من محتوياته ـ إنما جاء ليكون منهاج حياة، وهذا ما تدبره الإمام علي عليه السلام من القرآن، فكان معه فكرا وعملا»[1].

إذن الإمام علي عليه السلام أشربت روحه حب القرآن فعاد سلوكا وعملا ومنطقا فقد أثر عنه عليه السلام أنه«كان يمشي في الأسواق وحده، وهو وال يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً﴾[2]، ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس»[3].

وأثر عنه عليه السلام أنه إذا سار إلى قتال ووضع رجله في الركاب قال:

«بسم الله، فلما استوى على الدابة قال: الحمد لله الذي أكرمنا، وحملنا في البر والبحر ورزقنا من الطيبات، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[4]»[5].

ومن عمق تأثره بالقرآن جاءت دقة استدلالاته به في كثير من الأحكام الشرعية التي شهد له بها كبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، ذكر في الموطأ «أن عثمان بن عفان أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر فأمر بها أن ترجم، فقال له علي بن أبي

١- قاسم حبيب جابر، الفلسفة والاعتزال في نهج البلاغة: ٣٧.

٢- القصص: ٨٣ .

٣- المتقي الهندي، كنز العمال: ١٣/ ١٨٠ .السيوطي، الدر المنثور: ٥/ ١٣٩. الطبرسي، مجمع البيان: ٧/ ٤٦٤ .

٤- الزخرف: ١٣ .

٥- الطوسي، الأمالي: ٥١٥. ظ. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٦٨.

طالب: ليس ذلك عليها، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [1]، وقال:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[2]، فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها. فبعث عثمان بن عفان في أثرها فوجدها قد رجمت»[3].

وفي مظهر من مظاهر التأثير القرآني بالإمام علي عليه السلام قدرته على تفسير القرآن بالقرآن في دلالة بينة على إحاطته بآيات الكتاب العزيز في موضوعات عجز عن فهمها كبار الصحابة مثل موضوع الكلالة[4] وبلغه ذلك فقال عليه السلام: «الكلالة هم الإخوة والأخوات من قبل الأب والأم، ومن قبل الأب على انفراده، ومن قبل الأم أيضا على حدتها، قال الله عز قائلا: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [5]، وقال جلت عظمته: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [6]»[7]، فهذا تعريف تطبيقي للكلالة من خلال القرآن الكريم

١- الأحقاف: ١٥ .

٢- البقرة: ٢٣٣ .

٣- مالك بن أنس، الموطأ: ٢/ ٨٢٥. ظ. البيهقي، سنن البيهقي: ٧/ ٤٤٢، وتروى الحادثة مع الخليفة عمر بن الخطاب، ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ٦/ ١٢٧. الشنقيطي، أضواء البيان: ٤/ ٢٢١.

٤- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٥١٠. الراغب، المفردات: ٤٣٧.

٥- النساء: ١٧٦ .

٦- النساء: ١٢ .

٧- الدارمي، سنن الدارمي: ٢/ ٣٦٥ .

يدل على معرفة واسعة بآيات القرآن تتيح له تخير الآية المتطابقة مع الموضوع .

ومن تلك الآيات التي استوقف عندها كبار الصحابة واستعصى عليهم معناها كلمة (أبا)[1] في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [2]، وفسرها الإمام عليه السلام انطلاقا من سياقها القرآني من جهة ومن مفهومها اللغوي من جهة أخرى بالكلأ والمرعى وقال: «إن قوله: (وفاكهة وأبّا) اعتداد من الله بإنعامه على خلقه فيما غذاهم به، وخلقه لهم ولأنعامهم، مما تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم»[3] .

و(الأب) هو المرعى المتهيئ للرعي والجز[4] .

إذن الإمام عليه السلام انبعث في سلوكه من ثقافة قرآنية وعاها وذاب في معانيها فجسدها في عمله مثلما جرت على لسانه بيانا وإبداعا كما سنرى، لأن لغة الإمام تطابق صادق بين الإيمان والعمل وبين المعنى والأداء اللفظي.

وخلاصة الأمر إن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام كلها تنطق بآيات الكتاب العزيز سلوكا وقولا، لذلك كانت لغته الصدى الحقيقي للغة القرآن الكريم، فلم تجد ألفاظه غرابة في أداء الفكر الإسلامي العميق لأنها ببساطة ألفاظ القرآن الكريم ترسم بها جمله وبنى عليها صياغاته، وفصول البحث كلها تبرهن على أن كلام علي عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

* * *

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٢٢٠. القرطبي، جامع الأحكام: ١٩/ ٢٢٣ وتنظر مقولة الخليفة أبي بكر في ذلك: ابن حجر، فتح الباري: ١٣/ ٢٢٩.

٢- عبس: ٣١ ـ ٣٢.

٣- المفيد، الإرشاد: ١/ ٢٠٠. ظ. الكاشاني، التفسير الصافي: ٥/ ٢٨٦ .

٤- ظ. الراغب، المفردات: ٨ . ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ١/ ١٣.

البَابُ الأَوَّلُ

الأثـر القرآني في نهج البلاغـــة
(الشكل)

الفصل الأول: الألفاظ والبناء الجملي.

الفصل الثاني: الأداء البياني.

الفصل الثالث: جرس الألفاظ.

الفصل الأول

الألفاظ والبناء الجملي

الكلمة المفردة:

توطئة:

لم تكن الألفاظ في القرآن الكريم في مجملها مما لم يسمعه العرب، إلا أن تناسقها كان غاية الإبداع ضمن السياق الجملي، وهي قريبة التداول بعيدة المعنى ملكت من أسباب البقاء ما أتيح لها أن تنسلخ من ضيق لغة القبيلة الواحدة والبداوة المنغلقة الى أفق أرحب بكثير يعد بداية انطلاقة لحضارة جديدة تستوعب المستقبل بكل تطلعاته .

وبرغم ما وصل إليه الأدب العربي قبل الإسلام من الرفعة والرقي إلا أن في لغة القرآن شيئاً متميزاً في الصنعة والصياغة حتى لو كان اللفظ نفسه، فعملية التركيب وضم اللفظة الى أختها، والكلمة الى ما يناسبها، جعلها في مناخ جديد، أثر في حياة الألفاظ.

فما الذي أضفى على ألفاظ القرآن الكريم هذه الحياة ؟

وما الذي أبقى عليها نضرة لا تبلى ؟

وكيف أثرت في كلام الإمام علي عليه السلام فنفذت اليه؟

قبل الشروع بالإجابة عن كل تلك التساؤلات ينبغي الإقرار أولا بان القرآن ليس معجما لمفردات اللغة يضم كل ما استعمله العرب من ألفاظ، بل هو طريقة استعمال لهذه المفردات، وليس الذي اعجز العرب عن الإتيان بمثل آياته الشريفة

فيما تضمن من ألفاظ اللغة بقدر الطريقة التي جاءت بها هذه الألفاظ[1]، لذلك فالقرآن اخذ من ألفاظ اللغة ما هو اقدر على الإحاطة بالمعنى وابلغ في تقديمه.

وهنا تتجلى القيمة الاعجازية للقران الكريم، فهو الوحيد في تاريخ معجزات الأنبياء الذي رفع من شان لغات البشر فاتخذها وسيلة إعجاز وبرهنة على رسالة السماء، قال ابن الأثير (ت٦٣٨هـ): «وإذا نظرنا الى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلا سلسا، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدا هذا وقد انزل في زمن العرب العرباء وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالا، وكفى به قدوة في هذا الباب قال النبي ﷺ: **«وما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني»** يريد بذلك فاتحة الكتاب»[2].

لذلك خلت ألفاظ القرآن من كل تعقيد سواء أكان ذلك التعقيد مبعثه تنافر حروف اللفظة الواحدة أم كان من عدم انسجامها مع قريناتها داخل البناء الجملي[3].

وخلت مما تمجه الأسماع من غرابة استعمال أو زيادات في مبنى اللفظة تكون على حساب ذائقة السمع[4].

كل ذلك بين لان ثمة عناية في تخير اللفظة وقصدا في استعمال المفردة، فالاختيار إحدى أظهر السمات القرآنية في استعمال الألفاظ العربية، فهناك ألفاظ عدل القرآن الكريم عن استعمالها لابتذالها مثل لفظة (آجر) مستعيضا عنها تركيبا في غاية الأناقة في قوله تعالى:

١- ظ . الرماني، النكت في إعجاز، ضمن ثلاث رسائل في إعجازالقرآن: ١١١ .

٢- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ١٥٧.

٣- ظ . ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٦٥، الرازي، نهاية الإيجاز: ١.

٤- ظ. المصدر نفسه: ١٠٧.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً﴾ [1]، فعبر عن «الأجر بالوقود على الطين» [2].

كما عدل القرآن عن استعمال صيغة الفعل الماضي (ودع) لأنها غير مستحسنة بهذه الصيغة كقول أبي العتاهية [3]:

(المضارع)

وكان ما قدموا لأنفسهم   أعظم نفعا من الذي ودعوا

وجدير بالذكر أن نهج البلاغة تابع القرآن الكريم في خلوه من هاتين الصيغتين.إذن قد استعمل القرآن من الألفاظ أقدرها على الإحاطة بالمعنى وأخفها على السمع وأقربها الى الاستعمال وأبعدها عن الغرابة والتقعر، فسلك بالمفردة مسلكا وسطا فهو لم يأخذ منها تلك التي قتل روحها الاستعمال اليومي، مثلما لم يأخذ منها تلك التي تمجها الأسماع و «أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه» [4].

ووهب القرآن الألفاظ العربية زخما كبيرا من الحياة من خلال تخطي المدلول الجاهلي للفظة وإضافة مدلولات جديدة استوجبتها المرحلة الفكرية الجديدة للغة الإسلام، الأمر الذي جعلها تبدو وكأنها جديدة رغم أن لها جذورا ومعاني استعملت في العصر الجاهلي، كألفاظ القرآن والعقيدة والإيمان والتقوى والمعاد.

وهذا من أبين الآثار في نهج البلاغة فقد حفل بالألفاظ الإسلامية المختلفة التي جاء بها القرآن الكريم ويكفي نظرة في المعاجم التي أحصت ألفاظ القرآن

---

١ - القصص: ٣٨.

٢ - ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

٣ - أبو العتاهية، الديوان: ٢٦٨.

٤ - ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

وألفاظ نهج البلاغة للكشف عن الأثر العظيم للقرآن الكريم في هذا الباب[1]، ولكن هناك اثرا آخر للفظة القرآنية في نهج البلاغة يتمثل في الطريقة التي سلكها في التعبير الفني والتي اقتفى فيها الأثر القرآني في انتقائها.

إن الذي ميز كلام الإمامعليه السلام علي ليس ورود هذه الألفاظ بقدر طريقة استعمالها الاستعمال النابع من فهم اللفظة من النص القرآني أولا، لان للقرآن استخدامه اللغوي الخاص، الأمر الذي يجعل الاتكاء على المعاجم وحدها في التعرف على معاني الكلمات لن يؤدي الغرض المراد تحقيقه و«أن تكتسب وعيا صادقا وأن تفاضل بين مبدأ التقييد والانتقاد وانطباعك الشخصي الحي وان تكون لك معايير ثم تطبقها بمرونة وحكمة ليس بالامر السهل اليسير»[2].

وبهذا المدخل سيكون النفاذ الى دراسة اثر المفردة القرانية في نهج البلاغة على النحو الاتي:

أولاً: الاختيار.

ثانياً: الاقتباس.

ثالثاً: النقل.

أولاً: الاختيار:

اقتفى الإمام عليعليه السلام الأسلوب القرآني في اختيار اللفظة الأقدر على الإحاطة بالمعنى والأكثر انطباقا عليه فصحيح «نحن نسمع الكلمات مثلما نسمع صوت الرعد لكن الكلمات بعكس تلك المظاهر الأخرى لها طبيعة مزدوجة فهي

١- ظ. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. جواد مصطفوي، الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة .صبحي الصالح، نهج البلاغة (فهارس) .

٢- ويلبريس. سكوت، خمسة مداخل الى النقد الأدبي: ٤٤.

تحيلنا على ما هو كائن وراءها»[1].

وقد صدر الإمام عليه السلام في ذلك عن أسلوب مطرد في اختيار المفردات الذي يمكن رصده بشكلين:

١ ـ الدقة:

للإمام علي عليه السلام مراعاة واضحة في اتباع دقة القرآن الكريم في استعمال الألفاظ المتقاربة المعنى والمتفاوتة الدلالة، وهو بذلك يوحي بالعمق الدلالي للألفاظ، ويمكن تبيان ذلك بالأمثلة:

ألفاظ (اليأس، القنوط، الإبلاس):

جاءت لفظة (اليأس) في القرآن تعني انتفاء الطمع، وشدة انقطاع الرجاء[2] لذا اقترنت في الغالب بمواضع الكفر والصدور عن الكافرين قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [3]، أي انقطع رجاء الكافرين من عودة الجاهلية[4].

وقال تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[5].

لأن الكافر لا يرجو بعثا ولا نشورا ولا حياة أخرى بل هو منقطع عن ذلك كله.

١- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة: ١٥.

٢- الراغب: المفردات: ٥٥٠. ظ. الطبري، جامع البيان ٢٨/ ١٤٢. ابن منظور، لسان العرب: ياس.

٣- المائدة: ٣.

٤- ظ. النحاس، معاني القرآن: ٢٧٠ .

٥- الممتحنة: ١٣.

واستعمل الإمام علي عليه السلام اللفظة بالدقة نفسها فقال من خطبة له:

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ»[1]، فالتعبير بـ(أيس) انقطاع عن رجاء عبادة الله تعالى .

واستشف الإمام عليه السلام المعنى القرآني لكلمة (اليأس) فأورده بلسان النهي عنه نحو قوله من وصية لولده الحسن عليه السلام :

«وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ،...، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ»[2]، فقد استشف معناها من قوله تعالى في العاصين: ﴿**أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي**﴾[3] .

ولذا عدّ عليه السلام «الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاس»[4] .

أما (القنوط) فقد جاء في القرآن الكريم بمعنى اليأس من الخير خاصة[5]، لذا جاء مقترناً باليأس من رحمة الله تعالى وفضله نحو قوله تعالى:

﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١١٣.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ١٨٩.

٣- العنكبوت: ٢٣.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٨٣.

٥- ظ. الراغب، المفردات: ٣٩٠.

٦- الشورى: ٢٨، وينظر: الراغب، المفردات: ٣٩٠.

٧- الزمر: ٥٣ .

الضَّالُّونَ﴾ [1].

فكما أن الرجاء يقع من المؤمنين خوفاً من فوات رحمة الله كذلك القنوط يقع في خطاب المؤمنين في عدم اليأس من رحمة الله فرحمته نوع من الخير لذا وقع القنوط في قبالها.

يقول الإمامعليه السلام من خطبة في الاستسقاء:

«نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَام» [2]، وقنوط الأنام يعني به الإمامعليه السلام قنوطهم من رحمة الله في إنزال الغيث بدليل قوله عليه السلام في الخطبة نفسها:

«فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» [3].

مضمناً قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [4].

ويتكرر المعنى نفسه في خطبة أخرى في الاستسقاء فيقول عليه السلام : «اللهمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِين» [5]، فهذا معنى قوله تعالى:

﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله﴾ [6].

ولفهم الإمامعليه السلام لمعنى (القنوط) من داخل النص القرآني قال:

١- الحجر: ٥٦.

٢- الإمام علي، نهج البلاغة: ١/ ٢٦٨.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٦٨.

٤- الشورى: ٢٨ .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٢٥.

٦- الزمر: ٥٣.

«عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الِاسْتِغْفَار»[1].

ولاستشفاف الإمام عليه السلام معنى القنوط من النص القرآني وضعها في صفة المنافقين فقال: «حَسَدَةُ الرَّخَاءِ وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ وَمُقْنِطُو الرَّجَاء»[2].

لأنهم يحرصون على منع الخير عن الناس وتيئيسهم.

وقد جمع القرآن الكريم لفظتي (اليأس) و(القنوط) في آية واحدة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾[3].

فقد جمعت الآية الكريمة اليأس لأنه قرين الشر وقرنت به القنوط لأنه يأس من الخير، وذكر اليأس أولا لاقترابه من الشر فهو أولى به ثم جاء بالقنوط آخر ليعود على بدء فضلا عن ذلك إن ذكر القنوط بعد اليأس من باب ذكر الخاص بعد العام لان اليأس عام في انقطاع الرجاء والقنوط خاص باليأس من الخير[4].

واحتذى الإمام عليه السلام الأسلوب القرآني في الجمع بين اللفظين فقال من خطبة له: «الْحَمْدُ لله غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِه»[5].

فقرن القنوط بالرحمة والاياس بالمغفرة وقدم القنوط على اليأس اتباعا للأسلوب القراني، و(مايوس) على القلب من (ميؤوس) كما في (مازور) بدلا من (موزور).

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٢٤ .

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٩.

٣- فصلت: ٤٩ .

٤- ظ. محمد الدوري، دقائق الفروق اللغوية: ١٨٧ ـ ١٨٨ .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ١٠٩. وينظر مثلها في المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٥ .

أما الابلاس فهو اليأس الشديد الذي ينطوي على معنى السكون وانقطاع الحجة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [١]، لانقطاع حجتهم وحزنهم من يأسهم، وسمي إبليس بذلك ليأسه من رحمة الله وانقطاع حجته [٢].

وجاء الابلاس في العذاب كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [٣]، وكله بمعنى الحزن المعترض من شدة الياس [٤].

واستعمل الإمام علي عليه السلام لفظة (ابلس) بالمعنى القرآني ذاته كقوله:

«وَبَادِرُوا الْمَوْتَ فِي غَمَرَاتِهِ ... وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ ... وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ» [٥].

وقال الإمام عليه السلام في صفة الموتى: «ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسا» [٦]، فهو يأس مع حزن وانكسار، وقد يوحي بعدم التمكن من النطق وإدلاء الحجة .

ألفاظ (الصراط، السبيل، الطريق):

استعمل القران الكريم لفظة (الصراط) للدلالة على الطريق الواضح أو

١- الروم: ١٢. وينظر : النحاس، معاني القرآن: ٥/ ٢٤٨ .

٢- ظ. الراغب، المفردات: ٦٦. الطبري، جامع البيان: ٧/ ٢٥٣ .

٣- المؤمنون: ٧٧ .

٤- ظ. الراغب، المفردات: ٦٠. الطبري، جامع البيان: ١٨/ ٥٣ .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٨١ .

٦- المصدر نفسه: ١/ ١٦٥.

طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه[١]، وسمي الصراط بذلك لأنه مأخوذ من الاستراط ـ إذ أصله السين ـ لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه أي يبتلعهم كما سمي لقما لأنه يلتقمهم[٢].

ويقترن الصراط بالاستقامة التي هي ضد الاعوجاج وهو الغالب في القران الكريم نحو قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤]، والصراط المستقيم هو الدين الحق، وانما سمي الدين صراطا لانه يؤدي بمن يسلكه الى الجنة كما ان الصراط يؤدي بمن يسلكه الى قصده[٥].

واستعمل الامام عليه السلام لفظة (الصراط) بمعناها القراني وهي الطريق الموصل الى الجنة وجاء ت في نهج البلاغة في موضعين، قال الامام عليه السلام واعظاً:

«... وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا»[٦].

وقال الامام عليه السلام محذرا: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ»[٧].

فالصراط طريق مخصوص في الاخرة يفضي بأصحابه الى النعيم ويودي بأهل المعاصي الى الجحيم بحسب استعمال الإمام عليه السلام لها.

أما (السبيل) فهو الطريق الذي فيه سهولة والسبيل هي الطريق المسلوكة

١- ظ. الطبري، جامع البيان: ١/ ٧٣. ابن منظور، لسان العرب: سرط.

٢- ظ. الراغب، المفردات: ٢٣٠. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢٥. العكبري، التبيان في اعراب القرآن : ١/ ٧.

٣- الفاتحة: ٦.

٤- البقرة: ١٤٢.

٥- الطبرسي، مجمع البيان: ١/ ٣٤.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٨٣.

٧- المصدر نفسه: ١/ ١٥٨.

تقول سبيل سابلة أي مسلوكة، لذا يقترن لفظ (السلوك) مع السبيل كثيرا[1] .

قال تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [2] .

وقال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ [4].

وانما اقترن السلوك مع السبيل لسهولته اذ هو مشتق من الجريان تقول أسبل السحاب مطره وسمي السبيل كذلك لكثرة الجريان فيه، والسبيل هي الطريق السهلة السلوك .

ولذلك تقترن كثيرا بالله اشارة الى الطريق الذي يسلك لنيل الخير[5]، فقد وقعت في بضع وخمسين موضعا من القران الكريم بلفظ (سبيل الله) [6].

ففي الجهاد قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾ [7] .

وفي الانفاق قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [8].

وتوخى الامام علي عليه السلام الاستعمال القراني ذاته للفظة السبيل فقد كثرت اضافتها الى الله تعالى كقوله مذكرا: «وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ،

١- ظ. الراغب، المفردات: ٢٣٣. الأنباري، أسرار التكرار في القرآن: ١٣٩.

٢- طه: ٥٣.

٣- النحل: ٦٩.

٤- نوح: ٢٠.

٥- ظ. الزركشي، البرهان: ٤/ ٨٠.

٦- المصدر نفسه: ٤/ ٨٠.

٧- البقرة: ١٥٣.

٨- البقرة: ١٩٥.

عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ»[1].

وقوله: «وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2].

واتبع الامامعليه السلام الاسلوب القراني فقرن بالسبيل السلوك كثيرا ، قال عليه السلام يصف أهل الدنيا: «كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلا»[3]، وانما قال ذلك لانهم سرعان ما يرحلون فالطريق سالكة تنتقل باهلها من حال الى حال، فوجه الشبه«اعتبار سرعة سيرهم وقرب الاخرة منهم»[4].

ولاستشعار الامامعليه السلام بما تحمل لفظة السبيل من نيل الخير عند سلوكه فانه كثيرا ما يصفها او يضيف اليها الفاظ الخير والتفاؤل مثل: (سبيل الرشد، سبيل الجنة، سبيل الحق، سبيل المنهج، سبيل مرضاته، سبيل الراغبين، سبيل السلامة، سبيل قاصد سبيل الهدى، سبيل النجاة، سبيل المؤمنين، سبيل أبلج، قصد السبيل، وضح السبيل، نهج السبيل، سبل الامن، سبل الطاعة، سبلا نيرة»[5].

بينما لم يرد مثل ذلك في لفظة (الطريق) سوى ولقصد بلاغي - سناتي عليه - في لفظة (الهدى) .

والامامعليه السلام في كل ذلك صادر عن تتبع حريص للاسلوب القراني في دقيق استعماله لهذه اللفظة، فقد كثر في التعبير القراني وصف السبيل او اضافتها الى

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٣٩٢.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٢٣١.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٢١.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤.

٥- ظ. مصطفوي، الكاشف: سبل.

بعض ما ذكرناه من الفاظ الخير والتفاؤل ،كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[2].

اذن صدر الامامعليه السلام في توليد اشتقاقاته في دقة الاستعمال عن طرائق الاستعمال القراني للفظة(السبيل) .

وقد يكون السبيل تبعا لمن يقصده فيضاف الى القاصد لسهولته وتوطئه للسالك[3]، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[5].

فالاية الكريمة تدل على ان الله تعالى سهل السبيل للقاصدين وبيدهم اتخاذ السبيل الذي يرتضونه ويزيد ذلك وضوحا كون الله تعالى يسرهم لذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾[6].

وبهذا الفهم استعمل الامام علي عليه السلام لفظ السبيل في قوله:

«الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»[7].

أما (الطريق) فمأخوذ من السبيل التي تطرق بالارجل ثم استعير لكل مسلك

١- النساء: ١١٥.

٢- الممتحنة: ١، وينظر مثلها: الأعراف: ١٤٦، غافر: ٢٩، المائدة: ١٦.

٣- ظ. ابو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ٢٤٦.

٤- الأعراف: ١٤٦.

٥- الإنسان: ٣.

٦- عبس: ٢٠.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٧.

يسلكه الانسان وهو لا يقتضي السهولة كالسبيل[1] .

ولذلك استعملها الامام عليه السلام في بعض اوصاف اصحابه الذين افتقدهم بقوله: «أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ»[2]، لأن طريق الموت تكتنفه الصعوبة ومع ذلك فهم ركبوه مروضين له.

ويقول في وصف التقوى:

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ»[3]، في اشارة الى ان الطريق الى الجنة ليس سهلا .

ولأن في الطريق معنى عدم السهولة فكان مما جعله الامام عليه السلام في اوصاف المنافقين بقوله: «قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ»[4]، لأن في كلامهم تزييفا للحق وتسهيلا للصعب، ولأن في الطريق معنى الوعورة للسالكين فيه فالإمام عليه السلام ينصب نفسه دليلا على الهدى بقوله:

«وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، أَلْقُطُهُ لَقْطاً»[5].

وفي مثال آخر يقول الامام عليه السلام :

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ»[6]، لان طرق السماء لم تسلك من قبل والامام عليه السلام أخبر بها وأعلم.

١- ظ. العسكري، الفروق اللغوية: ٢٤٦. الراغب، المفردات: ٣٠٣. المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: ٤٨١.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٥ .

٣- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٩.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٢١٦.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٢١٦ .

٦- المصدر نفسه: ٢/ ٧٩.

وقد جاءت لفظة (الهدى) مضافة الى (الطريق) في موضع واحد من نهج البلاغة في قول الامامعليه السلام:

«لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِه»[1]، اشعارا بان الهدى أصبح طريقا يتجافاها اكثر الناس لذا تبدو موحشة غير سهلة السلوك .

وإذا اراد الامامعليه السلام الاشارة الى سهولة الطريق فانه يورد معه لفظة (يسلك) كقوله: «مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاء»[2].

ولذا قال الامامعليه السلام يصف الشيطان: «وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ، إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَه»[3]، لانها طرق وعرة لا تفضي الى خير ولكن الشيطان يحببها في أعين مريديه.

ولا يكاد اسم (الطريق) يراد به الخير إلا مقرونا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك[4]، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[6].

وأخذ الامامعليه السلام بهذا المعنى فقال لائما أصحابه: «قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّم»[7].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٦٩.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٦٩.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥.

٤- ظ. الزركشي، البرهان: ٤/ ٨٠. السيوطي، الإتقان: ١/ ١٩٤.

٥- الأحقاف: ٣٠.

٦- النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٨٦.

وتوسع الامام عليه السلام في ذلك فكثرت في كلامه الالفاظ المناسبة لمعنى (الطريق) مثل: (طريق المنافرة، طريق مظلم، طريق المتاهة، طريق العمى، وعثاء الطريق، طرق الافة) كقوله مثلاً: «وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ»[1].

وجمع الامام عليه السلام بين لفظتي السبيل والطريق مفرقا في الاستعمال بينهما كقوله في صفة المؤمن: «قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ وَسَلَكَ سَبِيلَه»[2].

وفي موضع اخر قال فيه: «وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيل»[3].

وفي الحق إن اتباع الامام عليه السلام دقة الاستعمال القرآني للألفاظ بدا أسلوبا مطردا لديه ينبع من فهم عميق للفظة القرانية داخل النص وتفاعلاتها مع جاراتها من المفردات الاخرى ـ كما مر ـ وليس بمعزل عن السياق الذي وردت فيه ولولا خوف الإطالة لكثرت الأمثلة كما في استعمال (البصر والبصير) و(الروح والنفس) و(الغيث والمطر).

ومن اطراد الامام عليه السلام في دقة استعمال الألفاظ قوله يصف ضعف الانسان: «فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ، مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ»[4].

فقد جعل(التسكين) للحار و(التحريك) للبارد لان من شأن الحرارة التهييج والتثوير فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة (التسكين) ومن شأن البرودة التخدير والتجميد فاستعمل في قهرها بالحار لفظة (التحريك).

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٢٧٣.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٣٢.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٣٩.

ومثل ذلك قوله عليه السلام: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْصَّيْفِ، قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ، قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ»[1].

فقد ناسب مع (الحر) التسبيخ لأن الحر ثائر هائج وناسب مع البرد (الانسلاخ) لأنه جامد ملتصق.

واستعمل لفظة (الباريء) في قوله يصف بديع خلقة الخفاش: «تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، ...، فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِه»[2].

فقد استعمل الباريء ولم يستعمل الخالق مثلا لأن «البرء خلق على صفة فكل مبروء مخلوق وليس كل مخلوق مبروء»[3]، والباريء هو الذي خلق الخلق لاعن مثال وانما أوجدهم وأبدعهم فهو المخترع والمحدث[4]، وجاء تعريف الباريء مطابقا لقول الامام عليه السلام وكأنه مأخوذ منه .

وأصل البرء مأخوذ من تبرئة الشيء من الشيء وخلوصه منه كبرء المريض من المرض والمديون من دينه وسمي الباريء كذلك لانه ميز الاشكال بعضها من بعض بعد التقدير[5]، قال تعالى في بني اسرائيل الذين اتخذوا العجل:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧٨.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣٥٩.

٣- الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى: ٣٧.

٤- ظ. الطبري، جامع البيان: ٢٨/ ٥٦. الزمخشري، النهاية في غريب الحديث: ١/ ١١.

٥- ظ. الزجاج، نفسير أسماء الله الحسنى: ٣٧. العسكري، الفروق اللغوية : ١١٣. الزبيدي، تاج العروس: ١/ ٤٤.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾[1].

وذكر الباريء هنا إشارة الى التمييز والايجاد، اذ فيه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة «فذكر الباريء ههنا تقريع لهم لتركهم عبادة العالم الحكيم برأهم بتمييز صورهم بعضها من بعض»[2].

ومن الاستعمال الدقيق للالفاظ قولهعليه السلام في وصف الدنيا:

«وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ»[3].

وحسن التخصيص لأن الامامعليه السلام ساق كلامه «ليصف ذل الدنيا وإن حصل فيها أمن فهو في محل التغير السريع والخوف اليه أسرع»[4]، فقد خص الامن بالجناح والخوف بالقوادم لأن الجناح يستر ويقي البرد والأذى، والقوادم مقاديم الريش والراكب عليها بعرض خطر عظيم وسقوط قريب، كقول أبي نواس[5]:

(الطويل)

تغطيت من دهري بظل جناحه ... فعيني ترى دهري، وليس يراني

ومن أمثلة الدقة في اختيار الألفاظ قولهعليه السلام من خطبة له:

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ، فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ،

١- البقرة: ٥٤.

٢- الآلوسي، روح المعاني: ١/ ٢٥٩. النسفي، تفسير النسفي: ١/ ٤٤.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٧.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٨٧.

٥- أبو نواس، الديوان: ٢/ ٤٨٠.

وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ»[١] .

فقد ناط بكل واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها، يقول ابن أبي الحديد (ت٧٣٦هـ): «ولو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها ولا استقرت في قرارها فقد قال: (أمنا لمن علقه) فالأمن مرتب على الاعتلاق وكذلك في سائر الفقر كالسلم المرتب على الدخول والبرهان المرتب على الكلام والشاهد المرتب على الخصام والنور المرتب على الاستضاءة، ولو قال: (وبرهانا لمن دخله ونورا لمن خاصم عنه وشاهدا لمن استضاء به) لكان قد قرن باللفظة مالا يناسبها»[٢].

ففي النص تبدو الألفاظ منسجمة مع جملها وفقراتها التي وردت فيها، حتى ليصعب استبدالها بكلمات أخرى، قد لاتؤدي المعنى الدقيق الذي تحمله هذه الألفاظ في دلالتها وانسجامها التركيبي .

إذن ثمة قصد وانتقاء في اختيار دقائق الألفاظ، وهذا من صناعة الخطابة التي علمه الله اياها بلا تعليم وتعلمها الناس من بعده كما يقول ابن أبي الحديد[٣].

٢ ـ الألفاظ الموحية:

ويسميها الدارسون المعاصرون الالفاظ ذات الدلالة الاضافية أو ظل المعنى[٤] (shade of meaning) ، وللالفاظ خزين هائل من التجارب البشرية

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٣٧.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٧١.

٣- ظ. المصدر نفسه : ١٣/ ١٤٣.

٤- أحمد مختار عمر، علم الدلالة: ٣٦. .

فهي «كالقماقم أغلقت سداداتها على شحنة من تجارب لا حصر لها اختزنها فيها الانسان على كر العصور»[1].

ويبدو ان الالفاظ الموحية اكتسبت من هذا الخزين ضعفين من المعاني: الاول وهو المعنى الاصلي للفظة، والثاني وهي المعاني الجانبية المصاحبة للفظة بحيث توحي بأكثر من مدلولها الظاهري لذلك«فهي المقياس الفني لتقدير قيمة اللفظ»[2].

واختيار الالفاظ الموحية في الاستعمال يعني «استغلال ما للالفاظ من قوة تعبيرية بحيث يؤدي بها فضلا عن معانيها الفعلية كل ما تحمل في أحشائها من صور مدخرة ومشاعر كامنة لفت نفسها لفا حول ذلك المعنى الفعلي»[3] .

ورغم ان ايحاء اللفظة من اهتمامات النقد الحديث ومصطلحاته[4])، الا أن معناها ادركه النقاد العرب الاقدمون ووقفوا عليه وعالجوه وهم يتحدثون عن فصاحة اللفظة المفردة كابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) وابن رشيق (ت٤٥٦هـ) وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) [5]، «وإن لم يجددوا للافصاح عنه عبارة كالتي نستخدمها في عصرنا الحاضر»[6].

١- شارلتون، فنون الأدب: ٣٦.

٢- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٥.

٣- شارلتون، فنون الأدب: ٧٦.

٤- ظ. العزاوي، النقد اللغوي عند العرب: ٢٣١. كرومبي، قواعد النقد الأدبي: ٣٩.

٥- ظ. العلوي: عيارالشعر: ٤٠ ـ ٤٨. ابن رشيق، العمدة : ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧. الخفاجي، سر الفصاحة: ٦٧.

٦- احمد بدوي، اسس النقد الأدبي: ٤٢٤.

وقد كان لتفرد الاسلوب القرآني في انتقاء الالفاظ أثر كبير في ظهور هذا اللون من الدراسات اللغوية الادبية القديمة كدراسات غريب مفردات القرآن التي انطوى تحت هذا العنوان كثير من الالفاظ الموحية، ومثل وقفات الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، وتدبر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) لالفاظ القران الكريم في استشفاف ما تضمنت من معان دلالية[1] .

وبلغ من احتفال ابن الاثير(ت٦٣٧هـ) باللفظ الموحي أن سماه جوامع الكلم وقال عن أثرها في نفسه «وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الالحان»[2].

ولكن كيف يرتسم الايحاء على الالفاظ، فكان مما اختاره التعبير القرآني وانسرب تأثيره الى كلام الامام علي عليه السلام ؟ .

يبدو ليست كل الالفاظ لها امكانية الايحاء بمعان ظلالية فهي صيغ لالفاظ معينة وصحيح «أن كل كلمة أيا كانت توقظ دائما في الذهن صورة ما»[3]، ولكن ليست كل كلمة لها القدرة على بعث ما استبطنت من خيال وظلال وربما اختلف إدراك هذا المعنى من فرد الى آخر بحسب التقارب والتشابه بين التجارب المكتسبة في ذهن السامع والتجارب المختزنة في طيات اللفظ[4].

١- ظ. الراغب، المفردات: ٢٠٠ وما بعدها . الشريف الرضي، تلخيص البيان : ٢٠٢ ـ ٣٢٣. الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٠٨ ـ ١١٢ ـ ١٣٤ ـ ١٩٠. الصاوي، منهج الزمخشري في تفسير القران : ٢٣٢.

٢- ابن الاثير، المثل السائر: ١/ ٩٦ ـ ٩٨.

٣- فندريس، اللغة: ٢٣٧.

٤- ظ. أحمد مختار عمر، علم الدلالة: ٣٦.

وقد يتوصل الى الكشف عن الالفاظ الموحية من خلال جرس اللفظة أو زيادات مبانيها أو بكثرة المران والخبرة في الألفاظ العربية[1] .

وبجرس الكلمة إسهام واضح في نقل إيحاءات اللفظة فليس ثمة فاصل كبير بين القيم الصوتية للالفاظ ودلالاتها «فجرس الكلمة هو الموسيقى الداخلية أو هي الاصوات المفردة التي ينشأ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها ومدى توافق هذا الايقاع الداخلي مع دلالة اللفظة»[2] .

وما كان ليفوت البلاغيين العرب القدامى الالتفات الى الدلالة الايحائية لموسيقى اللفظة، فأكدوا الربط بين إيقاع اللفظة ومدلوله وصوره الايحائية، يقول ابن جني «فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه اصوات الافعال التي عبر عنها»[3] .

وبجرس الكلمة قيمة حسية في الألفاظ«ونوع من الموسيقى يوحي الى الاذهان بمعنى فوق المعنى الذي تدل عليه الألفاظ»[4]،لأن «الألفاظ أصوات ذات جرس»[5]، كما إن «الكلمات ليست مجرد إشارات مجردة واصطلاحية فحسب بل بوسعها أن تنشيء بجرسها ورنتها وإيقاعها لحنا مستقلا عن مدلولهاالخاص وهي تملك ايحاءات أخرى عديدة»[6] .

ونخلص من هذا أن ايحاء اللفظ يعطي إضافة بيانية في المعنى ونبرة في الجرس

١- ظ. ابراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ١٠٣ .

٢- ابراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ٧٥.

٣- ابن جني، الخصائص: ١/ ٦٥ ـ ٦٦.

٤- طه حسين وآخرون، التوجيه الأدبي: ١٣٧ .

٥- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب: ٢٧٦ .

٦- لويس هارتيك، الفن والأدب: ٣٦.

تعبر عن صدى دلالة اللفظ. ويمكن تبيان ذلك وبيان انسراب أثره الى كلام الامام علي عليه السلام بالامثلة:

أ ـ استغلال طاقة الحرف في اللفظة:

استعمل القرآن الكريم لفظة (خشع) و(خضع) إيحاء بمعنيين مختلفين فعبر بالأول عن السكون والتذلل كأثر عن الباطن المعنوي وعبر بالثاني عن التطامن والتوضع أثرا للظاهر الحسي، فجاء أكثر استعمال (الخضوع) في البدن وهو الإقرار بالتسليم والانقياد، في حين جاء استعمال (الخشوع) في القلب والبصر والصوت[١].

ومن هنا كانت صفة الخشوع مما يحمد عليه المؤمن لان منبعها القلب والخشية من الله والايمان به «وهي هيأة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب ولذلك خص تعالى القلب بالذكر»[٢]، كقوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

أما الخضوع فإذا كان لغير الله فهو قبيح مستهجن في شخص الانسان، قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[٤])، تعبيرا عن الذل والانقياد. ولأن في إلانة الكلام سببا إلى إلانة البدن وخضوعه نهى الله تعالى النساء عنه فقال سبحانه:

﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[٥].

١- ظ. العسكري، الفروق اللغوية: ٣٨.

٢- الثعالبي، تفسير الثعالبي: ٥/ ٣٧٧.

٣- الحديد: ١٦.

٤- الشعراء: ٤.

٥- الأحزاب: ٣٢.

وتابع الامام علي عليه السلام القرآن في هذه الدلالة الايحائية فقال:

«وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ، يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً»[1].

فقوله: «ظلت له الأعناق خاضعة» وصف لظاهر البدن تكنية عن الذل والإنقياد.

ومثل ذلك قوله عليه السلام في وصية لولده الحسن عليه السلام:

«مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى»[2]، لما تحمل من معنى الذلة.

ولعل في صوت الضاد في لفظة (الخضوع) شيء من إيحاءات القهر والاستكانة فهي تحمل جميع صفات الشدة والقوة كالجهر والاستعلاء والإطباق والاستطالة[3].

أما لفظة (الخشوع) ففي صوت الشين صفات للهمس والرخاوة[4]، وفيها التفشي والانتشار الذي يتفق مع الخشوع الذي يكون منبعه القلب ثم ينتشر على بقية الجوارح كالأبصار والأصوات، لذا لايصح التعبير عن القلب بالخضوع لأن الخضوع عن خوف وتقية ومداراة.

والخشوع بعد مصطلح إسلامي يعبر عما يستشعره الإنسان من إيمان وخشية

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٠.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ١٩٨.

٣- ظ. مناف الموسوي، علم الأصوات اللغوية: ٦٤.

٤- ظ. المصدر نفسه: ٧٧ .

وتقوى في قلبه، قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾[1]، لأن خشوع البصر له علاقة بإيمان القلب فهو صورته كقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[2].

واقتفى الإمام عليه السلام إيحاء اللفظة نفسها فقال يوصي الحسن عليه السلام:
«فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ»[3].

وفي موضع آخر قال: «فَاتَّقُوا تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ»[4]، لأنه يؤشر مدى إيمان القلب.

وقال في بعث الموتى: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً»[5]، والهينمة الصوت الخفي.

والخشوع والخشية كلاهما من «أفعال القلوب التي لاتصدر عن جماد إلا أن يكون ذلك من صنع البيان إذ يبث الحياة في الصخرالاصم»[6]، لذا قدم التعبير القرآني لفظة (الخشوع) قبل التصدع لأنه مقدمة للتصدع لما فيه من التأثير الباطني الذي يكون أولا مقدمة للتأثير الظاهري ، في قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾[7].

١- القلم: ٤٣.

٢- النازعات: ٨ ـ ٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨.

٤- المصدر نفسه: ١/ ١٥٤.

٥- المصدر نفسه: ١/ ١٥١.

٦- بنت الشاطيء، الإعجاز البياني للقرآن: ٨٩.

٧- الحشر: ٢١.

وقد عد السيد المرتضى لفظة (خاشعا) من صيغ الإيحاء في الدلالة على المبالغة التي تدعو إلى «تعظيم القرآن في مقام الإخبار عن جلالة خطره»[1].

ومن امثلة استغلال طاقة الحرف في إلقاء مزيد من الايحاءات الجانبية استعمال القرآن الكريم لبعض الأبنية الخاصة في توخي تكثير المعنى مثل زيادة حرف (الطاء) في بعض الألفاظ المبتدئة بحرفي الصاد والضاد مثل (اصطرخ، اصطنع، اصطفى، اصطلى، اصطاد، اضطر»، وهي من حروف الإطباق التي تزيد الصوت تفخيما[2]، كقوله تعالى موحيا ومصورا جلبة أهل النار وكثرة صراخهم من العذاب: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ [3] .

فالاصطراخ هو شدة الصياح والنداء والاستغاثة وهي توحي بأن الصراخ بلغ ذروته والاضطراب قد تجاوز مداه [4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [5] .

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [6] .

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[7].

١- ظ. المرتضى، أمالي المرتضى: ١/ ٤٢٨.

٢- ظ. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة: ١١٦. مناف الموسوي، علم الأصوات اللغوية: ٤٧ ـ ٤٩.

٣- فاطر: ٣٧. وينظر: سيد قطب، التصوير الفني للقرآن: ١٦.

٤- محمد حسين الصغير، الصوت اللغوي في القرآن: ١٦٥ ـ ١٦٦.

٥- القمر: ٢٧.

٦- فاطر: ٣٢.

٧- النمل : ٧.

وقـال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[1].

والإحلال هو الخروج من الإحرام، لذلك فيه كبير إباحة بعد المنع. ففي كل هذه الألفاظ المزيدة زيادة في المعنى وتفخيم له للفت النظر اليه .

وأخذ الإمام عليه السلام بهذا الإيحاء من الألفاظ المزيدة كلما طلب السياق مزيدا من المعنى الإضافي كقوله عليه السلام :

«الْحَمْدُ لله الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ... وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ»[2].

وقال جامعا بين الإصطفاء والاصطناع:

«ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ الله الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِه»[3] و(اصطنعه على عينه) تقال لما يشتد الإهتمام به .

ويختار الإمام عليه السلام لفظة (مصطلحون) فيصف المقبلين على الدنيا:

«أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا»[4]، والاصطلاح التراضي بعد التغاضب .

ومثله قوله عليه السلام : «قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُم»[5]، توبيخا للسامعين على ارتكاب رذائل الأخلاق وإنما قال (اصطلحتم) لسكوتهم عن إنكار بعضهم على بعض ما يصدر عنه من المنكر.

١- المائدة: ٢.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٨٩.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٤٦٢.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٢٤٩.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٣١١.

وتوسع الإمام عليه السلام في هذا الأسلوب من الألفاظ الموحية فقال:

«...فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا الله، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ، عَلَّمَهُ الله نَبِيَّهُ ص فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي»[1].

فقوله (تضطم) يوحي بشدة اشتمال قلب الإمام عليه السلام على العلم الإلهي وكنى بالجوانح عن القلب لاشتمالها عليه .

وقال واصفا ما بقي من الدنيا:

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا»[2].

والصبابة ما تبقى في الإناء، وفي قوله عليه السلام (اصطبها صابها) تهكم وتحقير للقلة القليلة مما بقي من الدنيا وهي مثل قولهم تركها تاركها[3].

وقال عليه السلام من خطبة في خلق الأرض وهياج ماء بحارها:

«فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِياً مَقْهُورا»[4].

وفي لفظة (اصطخاب) ايحاء بشدة الغلبة والصخب .

ومثل هذا كثير من الألفاظ التي استنفد فيها طاقة الحرف مثل لفظة (قضم وخضم) و(كظم وكتم) و(قصم وفصم) .

ب ـ ومن الألفاظ الموحية في القرآن الكريم انتقاء صيغ زيد في مبانيها مقاطع

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٩٩.

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٠٥.

٣- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣١٨.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٩٦. ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٢٩.

صوتية مكرورة زيادة في قوة معناها «وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة فمن ذلك خشن واخشوشن فمعنى خشن دون اخشوشن لما فيه من تكرار العين وزيادة الواو»[1] .

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [2] .

ومعنى(الكبكبة) هو القلب وإنما كرر المعنى دلالة على شدة العقاب، وهو«تدهور الشيء في قوة»[3] .

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [5]، وقوله سبحانه في وصف المنافقين:

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ [6].

وانتهج الإمام عليه السلام الأسلوب نفسه فاستعمل هذه الصيغ وتوسع فيها فجاءت في أشكال كثيرة مثل (جرجرة، زحزح، شقشقة، قلقلة، اعذوذب، احلولى، وحاوح، ذعذعة، وعوعة، نهنهة، لجلجة، ذبذبة، بلبلة).

فمن الزحزحة التي جاءت في القرآن قوله عليه السلام مقتبسا يصف المؤمنين:

«قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّار»[7].

١- ابن الأثير، المثل السائر: ٢/ ٢٥٠.

٢- الشعراء: ٩٩. وينظر في تفسيرها: الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١١٩.

٣- الراغب، المفردات: ٤٢٠.

٤- آل عمران: ١٨٥. وينظر: سورة البقرة: ٩٦.

٥- يوسف: ٥١. وينظر فيها: محمد حسين الصغير، الصوت اللغوي في القرآن: ١٨١.

٦- النساء: ١٤٣.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٨٢.

وقال لائما المتقاعسين عن طاعته:

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِ»[1] .

فلفظة جرجرتم فيها زيادة معنى للتضجر والتثاقل الذي عليه أصحابه المتقاعسون.

واستعمل (احلولى) في ثلاثة مواضع مختلفة ،كقوله ذاكرا النبي ﷺ:

«فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلًا خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا»[2] .

ففي (احلولت) فضل معنى على (حلي) .

ومثلها يصف الدنيا وقد جمع معها لفظة (اعذوذب):

«وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى»[3] .

وقال ناصحا: «فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا»[4] .

وتوحي لفظة (احلولى) بكثرة التطعم بلذة الدنيا والابتهاج بها .

وما عرض له الإمام عليه السلام في هذه الألفاظ أثر مقصود اليه في ذاته، لأنه من باب زيادة المعنى في زيادة المبنى.

ومن زيادة المباني في الألفاظ الموحية استعمال صيغة (افتعل) بدل (فعل)، يقول ابن الأثير (ت٦٣٨هـ): «فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر، قال تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة. وينظر: ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٤٨.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٢٣٤.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٥٧.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٤٦٥.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [1]، فمقتدر ههنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على التفخيم للأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب او للدلالة على بسط القدرة»[2].

قال الإمام عليه السلام ينصح أصحابه:

«وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَر»[3] .

ففي لفظ (مزدجر) تكثير معنى وايحاء بشدة الضوابط الزاجرة، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [4] .

ومن الايحاء قوله عليه السلام : «وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسا»[5].

ففعل التضعيف (جرع) زاد في معنى الإجبار والتجرع .

ومثل ذلك قوله يصف أحوال بني اسرائيل: «اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ»[6] .

وهكذا نجد الإمام عليه السلام قد اختار لكل عبارة ألفاظا ذات طاقة معينة في إضاءة المعنى المراد .

ثانياً ـ الاقتباس:

زخر نهج البلاغة بألفاظ القرآن الكريم ووشي بمفرداته التي حرص الإمام

١- القمر: ٤٢.

٢- ابن الأثير، المثل السائر: ٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٦١.

٤- القمر: ٤.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧٨.

٦- المصدر نفسه: ٢/ ١٠٥.

علي عليه السلام فيها على اقتباسها من نصها ليوظفها في الدلالة نفسها، ولكن بموقفه الفني الذي هو فيه.

وفي اقتباس الألفاظ القرآنية نتلمس تمكن المفردة القرآنية المقتبسة وتفاعلها مع مفردات الإمام علي عليه السلام وامتزاجها بعلاقات جديدة في جمل الإمام عليه السلام، إذ لا نجد ثمة غرابة بينها وبين نص الإمام عليه السلام .

ويمكن تلمس طريقين لاقتباس الألفاظ القرآنية:

١ـ اقتباس اللفظة القرآنية.

٢ـ اقتباس الاستعمال القرآني للألفاظ.

١ـ اقتباس اللفظة القرآنية:

والمقصود باللفظة القرآنية اللفظة التي نقل القرآن الكريم دلالتها من الجاهلية الى دلالة جديدة اختص بها وحده، وهي كثيرة جدا في كلام الإمام عليه السلام، في خطبه ورسائله ووصاياه وكتبه وقصار كلمه، فلا تكاد تخلو منها فقرة من فقرها، فقد طبع الإمام عليه السلام كلامه بكلام الله تعالى بهذه الاقتباسات التي تجيء متمكنة في النص مما يدل على شدة امتزاج ذات الإمام عليه السلام بثقافة القرآن الكريم[١]، فلا يجد مشقة من استلال اللفظة القرآنية من مخزونه الذهني لأنها حاضرة دائما باللفظ والمعنى في ذهنه كلما أراد التعبير عن معنى ما.

واقتباسات الإمام عليه السلام للألفاظ التي اختص بها القرآن كثيرة جدا، كألفاظ الصلاة وأعمالها، والعبادات وتفصيلاتها، وألفاظ الآخرة والعالم الآخر، وألفاظ التقوى والتوحيد وأسماء الذات المقدسة وصفاتها.

وبعيدا عن استقصاء الالفاظ القرآنية وإحصائها في نهج البلاغة سيكون وكد

١- ظ . البصير، عصر القرآن: ٣٦.

البحث في التأثير الفني في طبيعة هذه الإقتباسات ومدى انصهار المفردة القرآنية في النص الجديد في نهج البلاغة، لذا سأحاول تسليط الضوء على الإقتباسات التي تكشف عن عمق فهم المفردة المقتبسة داخل النص القرآني.

بمعنى ثان إن اقتباسات الإمام علي عليه السلام للفظة القرآنية تحمل في طابعها اقتباس النص الذي جاءت فيه وتلك سمة فنية تضاف الى طبيعة اقتباسات الإمام للفظة القرآنية والتي هي اقتباسات فاعلة تضيف مزيدا من المعاني داخل النص الجديد الذي حلت فيه وتمتزج معه بعلاقات غاية في التمكن والانشداد .

لذا فالإمام عليه السلام في اقتباساته يوجد المناخ المشابه لما هو موجود في النص الاصلي القرآني للمفردة من خلال صناعة علاقات تقتفي الأسلوب القرآني ـ كما سيمر بنا ـ كي لا تبدو اللفظة المقتبسة غريبة على المحيط الجديد، وذلك واحد من أسرار تعبير الإمام وطبيعة تأثير القرآن فيه. وبيان ذلك وتفصيله بالأمثلة:

ألفاظ القرآن وصفاته:

جاءت لفظة القرآن في نهج البلاغة أكثر من أربعين مرة بينا جاءت ألفاظ أسمائه وصفاته مستلة من الفهم الواعي للنص القرآني، بمعنى إن فهم اللفظة القرآنية المقتبسة ينبع من داخل السياق القرآني نفسه .

قال الإمام علي عليه السلام : «الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ»[1]، والذكر هو القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٦٦.

٢- ابراهيم: ٧.

الذِّكْرِ﴾[1].

والإمام عليه السلام إنما جعل الحمد مفتاحا للذكر لأن أول كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وهذه إضافات قرآنية للمعنى، أما المعنى الأولي فيمكن أن يستفاد منه أن الحمد يسبق ذكر الله مطلقا، فإنك تذكر الله تعالى ولكن بعد حمده.

وفي موضع آخر قال الإمام عليه السلام يصف القرآن:

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ ... وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ..واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ»[3].

فقد جاءت أسماء القرآن العظيم وصفاته مستلة من آيات عدة اقتبسها الإمام عليه السلام من مواضع مختلفة من القرآن وضمنها كلامه .

فقوله: (ذكر الله) ،مأخوذ من القرآن إذ وصف كثيرا بالذكر .

وقوله: (شفاء الصدور) اقتباس من الفهم القرآني في قوله تعالى لوصف القرآن: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[4].

وقد تكرر هذا المعنى عند الإمام عليه السلام في مواضع عدة من كلامه عليه السلام كقوله: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُم فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ»[5].

١- ص: ١.

٢- الفاتحة: ١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٥.

٤- يونس: ٥٧.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤١٦.

وسمي القرآن بالقصص اتباعا لما ورد في القرآن من قوله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1].

ولاستشعار الإمام عليه السلام بثقل تكرار (أحسن) عدل عنها الى (أنفع).

وفي لفظة (تلاوة) مثل آخر للألفاظ القرآنية التي اختص بها القرآن[2].

ويقول الإمام عليه السلام: «انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ»[3].

فلفظة (بيان) مأخوذة من قوله تعالى: ﴿هَـذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

ولحرص الإمام عليه السلام على اقتباس اللفظة مع ما يحيطها من جاراتها جاء قوله: (اتعظوا بمواعظ الله) موافقا لما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وقال الإمام عليه السلام: «إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ»[6] وقوله: (الكتاب الناطق) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾[7].

وفي وصف آخر للقرآن قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَسَبَبُهُ

١- يوسف: ٣.

٢- ظ. ابتسام الصفار، أثر القرآن الكريم في الأدب العربي: ١٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤١٦.

٤- آل عمران: ١٣٨.

٥- البقرة: ٦٦.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠٣.

٧- المؤمنون: ٦٢.

الْأَمِينِ»[1].

فقد وصف القرآن بـ(حبل الله) وعبر عنه بالسبب اعتمادا على قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً﴾[2].

والذي سوغ وصف الحبل بالمتين إضافته الى لفظ الجلالة لأن لفظة (المتين) جاءت في مواضع القرآن الكريم مختصة بالله سبحانه .

قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3]، وفي هذا دليل على قدرة الإمامعليه السلام في التصرف باقتباس النص القرآني ومن مواضع شتى منه .

وقال الإمامعليه السلام : «وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ الله، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّك، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ»[4].

فقد وصف القران بأوصاف شتى كلها مشتقة من آيات القرآن الكريم مثل (كتاب الله ، الحبل المتين ، النور المبين ، الشفاء النافع) وتوسع فقال: (الري الناقع)، وقوله: (عصمة للمتمسك) من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله﴾[5].

ولفظة المتمسك أخذها من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[6]، وقوله: (لايعوج) أخذه من قوله تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٠.

٢- آل عمران: ١٠٣.

٣- القلم: ٤٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٦٢.

٥- آل عمران: ١٠٣.

٦- الأعراف: ١٧٠.

﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1].

أما قوله: (لا يخلقه كثرة الرد وولوج السمع) فهو من خصائص القرآن المجيد شرفه الله تعالى بذلك فـ«كل كلام منثور أومنظوم اذا تكررت تلاوته وتردد ولوجه الأسماع مل وسمج واستهجن إلا القرآن فإنه لا يزال غضا طريا محبوبا غير مملول»[2].

ومن أسماء القرآن الأخرى التي اقتبسها الإمامعليه السلام، لفظة (التنزيل)، قال من خطبة ناصحا: «إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّداً ص نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ»[3] وقد تكررت لفظة (التنزيل) كثيرا في القران ، نحو قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[5].

وذكر الإمامعليه السلام لفظة (الكتاب) أكثر من سبع وعشرين مرة في مواضع مختلفة من كلامه عليه السلام مثل قوله: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ... وَفُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ وَتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُه»[6].

وجاءت ألفاظ (الكتاب، الفرقان، التبيان) كلها من الألفاظ التي وصف بها الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[7]، وقد ذكرت لفظة (الكتاب) كثيرا بمعنى القرآن الكريم .

١- الزمر: ٢٨.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٠٤.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧٣.

٤- الشعراء: ١٩٢.

٥- يس: ٥.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٦٤.

٧- البقرة: ٢، وينظر السور: آل عمران: ١١٩، النساء: ١٠٥.

وأخذ لفظة (الفرقان) من قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[1].

وأخذ لفظة (التبيان) من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

ألفاظ العالم الآخر:

وأكثر الإمام عليه السلام في مواعظه من تذكير الناس باليوم الآخر إصلاحا لأنفسهم مستقيا من المعين القرآني ومستعينا بألفاظه، كقوله واعظا: «وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً»[3]، فلفظ الآخرة مأخوذ من قوله تعالى في أكثر من موضع: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾[4].

وقال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[5] و(يوم القيامة) من ألفاظ القرآن التي اختص بها، وقد وردت كثيرا في آيات الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[6]، كما وردت كثيرا على لسان أمير المؤمنين عليه السلام.

١- الفرقان: ١.

٢- النحل: ٨٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٧٧.

٤- الضحى: ٤.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٠٥.

٦- القيامة: ١، وينظر السور: المائدة: ١٤، يونس: ٦٠، هود: ٦٠، النحل: ٢٥، الكهف: ١٠٥.

وقال الإمام عليه السلام: «وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْـمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ»[1].

ولفظة (الموعود) تكنية عن الموت و(القارعة) من ألفاظ يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْـمَوْعُودِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾[3].

وفي لفظ آخر من ألفاظ الآخرة قال عليه السلام محذرا: «فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ»[4].

و(البرزخ) لفظ قرآني محض أخذه الإمام عليه السلام من قوله تعالى:

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[5].

وجاء أخوه عقيل اليه عليه السلام يسأله ما يسد فاقته من بيت مال المسلمين فأحمى له الإمام عليه السلام حديدة ووضعها في يده، وقال له:

«أَ تَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى»[6]، ولفظة (لظى) مناسبة تماما للمعنى الذي يريده الإمام عليه السلام حين اختارها من ألفاظ النار، وقد جاءت قي قوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾[7].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٣٤.

٢- البروج: ٢٠.

٣- القارعة: ١ ـ ٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٢.

٥- المؤمنون: ١٠٠.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٨.

٧- المعارج: ١٥ ـ ١٦.

وقال الإمام عليه السلام: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ»[1]، والراجفة من أسماء القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾[2].

ومن خطبة يصف أهل القبور، قال الإمام عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ ... مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ ... وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ، لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ، وَنَكَالِ الْعِقَابِ وَنَوَالِ الثَّوَابِ»[3].

فقد جاءت الألفاظ (النشور، المعاد، الجزاء، العقاب، الثواب) كلها مستقاة من آيات القرآن التي تصف عالم البعث والنشور والعقاب والثواب، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[5].

وفي ضوء ما تقدم نجد الإمام عليه السلام يقدم زخما لغويا لألفاظ القرآن الكريم إقتباسا، وكانه يريد بذلك التذكير بهذه الألفاظ متابعة للقرآن وتأكيدا على انتقائه اللفظ المناسب في الموقع المناسب .

آـ اقتباس الإستعمال القرآني للألفاظ:

نزل القرآن الكريم بألفاظ لغة العرب فتشرفت باختيار القران لها، ولكن الاستعمال القراني لها في أداء المعنى الإسلامي الجديد جعلها تبدو في حلة أبهى إذ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٥.

٢- النازعات: ٦.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٥١.

٤- فاطر: ٩.

٥- القصص: ٨٥.

أكسبها نضارة وبعث فيها حياة جديدة، وما يفرقها عن الألفاظ الخالصة النسبة للقران هو أن الاولى أصبحت بعد نقل مدلولها الجاهلي وتطويره اصطلاحية إسلامية كما مر. أما الثانية فهي قرانية الاستعمال ونسبتها الى القران نسبة استعمال. وتخير القران لها هو الذي لفت النظر اليها فوهبها زخما كبيرا من الحياة بل حفظها غضة طرية.

وقد اقتبس الإمام عليه السلام هذا الاستعمال القرآني للألفاظ ـ دون غيره ـ بنفس الدلالة القرآنية التي جاءت في سياق النص .

وهي كثيرة جدا في كلام الإمام علي عليه السلام .

قال الإمام عليه السلام في التوحيد:

«فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْ لَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلَا مَسْكَناً لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ»[1]،

ففي هذه الفقرات ثمة اقتباسات لألفاظ القران مثل (عمد، الكلم الطيب، العمل الصالح، موطدات) وكلها من القران، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [3].

وحتى قوله: (فأجبن طائعات) من ألفاظ القران والإمام عليه السلام أعاد صياغتها كما سيمر في مبحث الجمل، فهي من قوله تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٩.

٢- الرعد: ٢.

٣- فاطر: ١٠.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1].

وأخذ الإمامعليه السلام لفظة (التناوش) فقال يصف أهل القبور:

«لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد»[2]، أي ذكروا من مضى من آبائهم.

والتناوش من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[3].

واقتبس لفظة (طوبى) فقالعليه السلام: «فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيم»[4].

وكلها من ألفاظ القران فـ(طوبى) من قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾[5].

ولفظة (قلب سليم) من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[6].

وقال الإمامعليه السلام في صفة الملائكة:

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ»[7]، فلفظة (أولي أجنحة) من قوله تعالى:

١- فصلت: ١١.

٢- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٤.

٣- سبأ: ٥٢.

٤- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٩.

٥- الرعد: ٢٩.

٦- الشعراء: ٨٩.

٧- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٩٢.

﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [1].

وقال في التوحيد: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ» [2].

ودائبان تثنية دائب وهو الجاد المجتهد وسمي الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفتران ولا يسكنان وهي من قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [3].

وأخذ لفظة (تزلف وتبرز) من قوله تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [4]، واستعملها بمدلولها القراني نفسه فقال عليه السلام ناصحا:

«وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» [5].

وقال عليه السلام في عهده الى مالك الأشتر:

«ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً» [6].

والقانع السائل، والمعتر الذي يعرض لك ولا يسألك [7].

واللفظان استعملهما الإمام عليه السلام بالدلالة نفسها التي جاءت في قوله تعالى:

١- فاطر: ١.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٨٢.

٣- ابراهيم: ٣٣.

٤- الشعراء: ٩٠.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٧.

٦- المصدر نفسه: ٢/ ٢٥٧.

٧- ظ. ابن منظور، لسان العرب: قنع، عرر.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [1] .

وأخذ لفظة (ناكس) فقال: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً»[2] .

والعمر الناكس يعني به الهرم لفظ مأخوذ من الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [3] .

بدا من ذلك أن الاقتباس طريق من طرق تأثر الإمام بألفاظ القران وهو إما اقتباس ألفاظ طور القران دلالتها فاختص بها أو اقتباس ألفاظ نسبت للقران من جهة استعمالها ولكن بالدلالة القرانية ذاتها .

ثالثاً: النقل:

والمقصود بالنقل هنا نقل اللفظة من محيطها القراني التي هي فيه الى موقف فني آخر وتوظيفها وفق علاقات جديدة.

ومناقلة الألفاظ بين النصوص بهذا النحو تستبطن مدى القدرة على فهم المفردة داخل النص واستكشاف المساحة التي تتحرك في طياتها المعاني قبل التقاطها مع ما يحيط بها من معنى مركوز في الذهن أصلا بسبب الاستعمال القراني لها .

بمعنى آخر إن الإمام علياًعليه السلام حين يعمد الى نقل اللفظة القرانية من محيطها الدلالي القراني وتوظيفها في موقفه الفني الذي هو فيه يستغل ما لهذه اللفظة من معان أضافها عليها محيط النص السابق نفسه، ويستغل انطباعها واستقرارها في الأذهان .

١- الحج: ٣٦.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٥٦.

٣- يس: ٦٨.

لذا فإن الإمام عليه السلام حين يستقي ألفاظ القران سيبدو وكأنه يستقي النص كله ولكن بلفظة واحدة. قال الإمام عليه السلام مهددا في كتاب الى معاوية:

«وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِالْإِحْسَانِ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سِرْبَالَ الْمَوْتِ»[1].

فقد نقل لفظة (سرابيل) من دلالة الى أخرى، قال تعالى يصف أهل النار: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾[2].

وفي لفظ آخر قوله عليه السلام يصف المؤمن: «قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ»[3]. مشيرا الى طرف الزهد فيه .

وقال الإمام عليه السلام ناصحا:

«وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ»[4].

فقد نقل اللفظ الأخير من موقف الى موقف ،قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[5].

وهو مثل قوله عليه السلام :

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِه ..»[6].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٦.

٢- ابراهيم: ٥٠.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٧٣.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٢٤٤.

٥- البقرة: ٢٦٨.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٨٧.

فالقسم الثاني من تعداده لأصناف الناس وهو (المجلب بخيله ورجله) منقول من قوله تعالى مخاطبا الشيطان: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [1].

والإجلاب بالخيل إشارة الى جمع أسباب الظلم.

وقال الإمام عليه السلام في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشا»[2]،

والرياش والريش بمعنى وهو اللباس الفاخر، وهو لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته [3].

وهذه اللفظة جاءت في القران في موقف تعداد النعم في قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ [4].

وقال الإمام عليه السلام يصف الناس من بعده:

«يُدَعْذِعُهُمُ الله فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ»[5]، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [6].

ولكن الإمام عليه السلام أخذه بعيدا ووظفه في موقف آخر رغم نقله العبارة

١- الإسراء: ٦٤.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٧٦.

٣- ظ. الطبرسي، جوامع الجامع: ١/ ٦٤٩، ابن منظور، لسان العرب: ريش.

٤- الأعراف: ٢٦.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٩٧.

٦- الزمر: ٢١.

بالألفاظ ذاتها، ومراده عليه السلام «كما أن الله ينزل من السماء ماء فيسكنه في أعماق الأرض ثم يظهر منها ينابيع الى ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يفرقهم الله في بطون الأودية وغوامض الأرض ثم يظهرهم بعد الإختفاء»[1].

وأخذ لفظة (الوليجة) من القران الكريم فقال في الزبير بن العوام:

«يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ»[2]، والوليجة استعملها القران فيما اختبر بها المسلمين في قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

ومثل ذلك لفظة (تجأرون)، قال الإمام عليه السلام: «فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ ... وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ ... لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ»[4]، ولفظة (جأرتم) من ألفاظ القران وهي الصوت المرتفع، قال تعالى:

﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾[5].

ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه: «وَقَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ»[6]، ودارستكم أي درسته عليكم، وهي من قوله تعالى:

﴿كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣١٧.

٢- الإمام علي عليه السلام ،نهج البلاغة: ١/ ٤٣، وينظر: حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ٣/ ١٥٤.

٣- التوبة: ١٦.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١١٦.

٥- المؤمنون: ٦٥.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٦.

وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [1].

وقوله (فاتحتكم الحجاج) بمعنى حاكمتكم بالمحاجة والمجادلة وهي من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [2] أي احكم .

ولانصهار الإمام عليه السلام في النص القرآني وقدرته على التصرف بألفاظه ونقلها ما أعانه على توليد كثير من الإشتقاقات المبتناة على الأصل القرآني بعد نقلها الى دلالة اخرى وبتوظيف جديد. مثل قوله في التوحيد:

«عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْـمُـضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْـمُتَخَافِتِينَ وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ .. وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْقُلُوبِ ... وَنَاشِئَةِ الْغُيُومِ وَمُتَلَاحِمِهَا»[3] .

فقوله: (ناشئة الغيوم) يعني أول ما ينشأ منها وهذا توليد وتوسع على الأصل القرآني في قوله تعالى:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [4]، وناشئة الليل أول ساعاته.

وقال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْـأَكْبَرِ﴾[5]، وقال تعالى:

﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْـأَكْبَرُ﴾ [6]، وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [7].

١- آل عمران: ٧٩.

٢- الأعراف: ٨٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٣.

٤- المزمل: ٦.

٥- التوبة: ٣.

٦- الأنبياء: ١٠٣.

٧- السجدة: ٢٥.

وأخذ الإمام عليه السلام بصيغة (الأكبر) وولد عليها صيغا أخرى مقتفيا بذلك الأثر القرآني فقال: «أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ، وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ»[1].

وقال في موضع آخر: «وَ إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»[2].

ومن حكمه عليه السلام قوله: «الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»[3].

وفي موضع آخر قال: «الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[4].

ويبدو للبحث أن الامام عليا عليه السلام قد صدر عن ذائقة فنية في انتقاء ألفاظ القرآن وسلك أسلوبا مطردا في امتياحه لألفاظه إذ يلتقط منها مرة ويقتبس مرة ثانية وينتقل بدلالاتها سواهما.

التركيب الجملي:

توطئة:

إن تأثير الجملة القرآنية في جملة الإمام علي عليه السلام تأثير أسلوبي يأخذ منحى البناء الذي أقامه الإمام عليه السلام في صناعة جمله، ولاشك في «أن القرآن تحدى العرب ببلاغة نظمه، وإن عجزهم عن الإتيان بمثله حملهم على أن يقروا أن هناك كلاما أبلغ من كلامهم وإن كان من جنس هذا الكلام»[5]. فالجملة القرآنية بنيت

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٧٤.

٢- المصدر نفسه : ٢/ ٢٢٢.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٣٤٨.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٣.

٥ - طه أحمد ابراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٢٧.

بالأساليب نفسها التي بني عليها الكلام العربي الرفيع الذي تجسد في الشعر والخطابة، إذن بم كان التمايز في الجملة القرآنية ؟

لعل الجواب على هذا التساؤل الكبير هو السر في هذه المسيرة التاريخية الحافلة بكثرة ماوضع من مصنفات في إعجاز القران البياني بدءا من الجاحظ (ت٢٥٥هـ) والرماني (ت٣٨٦هـ) والباقلاني (ت٤٠٣هـ) والشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) والسيد المرتضى (ت٤٣٦هـ) حتى عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ). وقد أضاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني بعض طريق الباحثين في دراسة نظم القرآن وحدد مجال الإعجاز البياني في بناء الجمل وطرائق نظمها من خلال أنظمة العلاقات التي تنتظم عناصر التركيب الواحد، أي طريقة في إقامة العلاقات بين عناصر الجملة بالأستغلال الأمثل لمعاني النحو[١] .

إن للقرآن أسلوبه في تفجير كل مستويات اللغة التركيبية واستغلال طاقتها في إقامة علاقات غير متوقعة بين العناصر التي تتشكل منها الجمل. ولعل أظهر إعجاز يمكن وضع اليد عليه لهذا الأسلوب هو دقته وخلوه من أي خلل تركيبي قد يضعف بناءه[٢] .

وإذا كنا حددنا بأن سر إعجاز القران البياني يقع في طريقة نظمه، وبشكل أدق يقع في طريقة إقامة العلاقات بين عناصر الجملة، فإننا سنقع في سؤال أكبر، هو في كيفية تحديد هذه العلاقات بحيث يتم منها تشكيل صيغ تنهض الى مستوى الإعجاز. ولا يمكن تحديد العلاقات بين عناصر البناء الواحد في الجملة لأنها راجعة الى مستعمل اللغة نفسه، ولو أمكن تحديدها لأمكن الإتيان بجمل إعجازية تشبه جمل القران. ومن هنا يمكن القول إن الكشف للوقوف على نهاية أسرار الجملة القرانية أمر كمن يحتفر في طبقات الأرض يبتغي لها نهاية .

---

١ – ظ. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٥٥. محمدحسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم: ١٧.

٢ – ظ. الباقلاني، اعجاز القرآن: ٣٥ ـ ٣٨.

لذلك فإن تأثير التعبير القراني في مجال الجملة عند الإمام علي(عليه السلام) هوتأثير بنائي أسلوبي رغم أن الأساليب القرانية في جزء منها موجودة في الكلام العربي على وجه الإجمال، ولكن القران عمق منها واستعملها بدقة في الكشف عن المعنى بحيث تأثرها الإمام (عليه السلام) واستقاها منه.

ويبدو تأثير الأسلوب القراني في بناء الجملة في نهج البلاغة واضحا في شكلين:

١ـ إعادة صياغة الجمل القرانية.

٢ـ بناء الجمل القصيرة والطويلة.

وستكون الوقفة عند الثاني طويلة لما فيه من استقاء فني قائم على أساليب علم المعاني في بناء الجمل، وإنما تقدم الأول للبرهنة عمليا بأن ثمة تأثيرا مباشرا فعليا للجملة القرانية في كلام الإمام علي(عليه السلام) وليكون مدخلا للثاني .

أولاً: إعادة صياغة الجملة القرآنية:

إن أكثر ما يطالع الدارس في بناء الجمل في نهج البلاغة هو ملكات الإمام(عليه السلام) في قوة إحضار النص القرآني وقدرته على التصرف بالجملة القرآنية وإعادة صياغتها طبقا لموقفه الفني فـ«لايكفي أن تكون للمرء مواهب عظيمة وإنما ينبغي أن يعرف كيف يديرها»[١].

يقول الإمام(عليه السلام) : «وَاللهِ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ، الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا»[٢].

١- ويلبريس. سكوت، خمسة مداخل في النقد الأدبي: ٤٣.

٢- الإمام علي(عليه السلام)، نهج البلاغة: ٢/ ١١٠.

فقوله: (فيما عقد ..) تعديل لصياغات قرآنية من قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[2].

وقال الإمامعليه السلام من خطبة يصف فيها المتقين:

«يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ»[3].

فقد تضمن قوله معرفة واسعة بآيات القران التي تتضمن معنى الشكر لأن الله تعالى قد أثنى على الشكر والشاكرين في مواضع كثيرة من كتابه العزيز .

نحو قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[5].

ولعلو مرتبة الشكر طعن إبليس في بني آدم فقال: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[6]، وقد صدقه الله تعالى في هذا القول فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[7].

ووعد الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ

١- الأنفال: ٦٣.

٢- آل عمران: ١٠٣.

٣- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٦. ظ.حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ١١/ ١٤٢.

٤- البقرة: ١٥٢.

٥- النساء: ١٤٧، وينظر: آل عمران: ١٤٤.

٦- الأعراف: ١٧.

٧- سبأ: ١٣.

لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]. وكذلك قوله عليه السلام: «ويصبح وهمه الذكر»، فهي إعادة صياغة لمجموعة من الآيات التي جاء فيها معنى الذكر، نحو قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾[4].

ويبدو أن كل تلك الآيات انصهرت على لسان الإمام عليه السلام فأعاد صياغتها بقوله: «وهمه الشكر».

وفي مثال آخر، قال الإمام عليه السلام يصف بيت الله الحرام:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ «ع» وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ»[5].

فهذه التراكيب الجملية معدلة من علاقات قرآنية سابقة، فقوله: (مثابة لمنتجع أسفارهم) إعادة بناء منقولة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[6]. ومثابة أي يثاب اليه ويرجع مرة بعد أخرى. وقوله: (تهوي اليه ثمار الأفئدة).

تحرير وتأكيد من قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ

١- ابراهيم: ٧.

٢- الأحزاب: ٤١.

٣- البقرة: ١٥٢.

٤- البقرة: ٢٠٠، وينظر: النساء: ١٤٢.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٩.

٦- البقرة: ١٢٥.

مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1].

وحتى قوله (ثمار) تداع لقوله تعالى (ثمرات)، ولكن نقلها الى علاقة جديدة تختلف عن علاقتها السابقة في البناء القراني.

«وهوي الأفئدة ميولها ومحبتها»[2].

أما جملة (من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة)، فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[3].

والإمامعليه السلام لم يتخل عن اللفظة القرانية (فج عميق) لأنها هي التي أوحت اليه أن يضيف (مفاوز قفار سحيقة) وهي بعد آصرة ربطه بالبناء القراني.

وقال الإمامعليه السلام: «وَلَا تَتَمَنَّ الْـمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيق»[4].

فقد أخذه من قوله تعالى:

﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْـمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[5].

واستشف الإمامعليه السلام الأسلوب الشرطي في بناء الآية الكريمة في قوله تعالى: (إن زعمتم... فتمنوا الموت) فقال مستثنيا: (إلا بشرط وثيق).

ومثل ذلك قولهعليه السلام: «وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْكَ»[6].

١- ابراهيم: ٣٧.

٢- حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ١١/ ٣٤١.

٣- الحج: ٢٧.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١.

٥- الجمعة: ٦.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١.

فقد صاغها من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] .

وحرر الجملة القرآنية فأعاد صياغتها مع الإبقاء على الأسلوب الأصلي (الأمر) ، لأنها محوره فجاء قوله: (وليبر) صورة لقوله تعالى: «فحدث»، ونقل المصدر القراني (نعمة) واشتق منه الفعل (أنعم) بسبب من قوة حضور النص القراني في ذهن الإمامعليه السلام وإيحاء للسامع بالآية الكريمة السابقة .

وأخذ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[2].

ووعى مضمونه فعبرعنه ناصحا:

« أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُم »[3].

وأحيانا ينقل الإمامعليه السلام التركيب القرآني الى وجهة أخرى بعد إعادة صياغته كقوله يصف المنافقين: «إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا»[4] .

فهذا التركيب مقلوب الصياغة القرانية في وصف المؤمنين الفقراء:

﴿لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾[5]، والإلحاف الإلحاح بالسؤال .

وفي أحيان أخرى يتعمد الإمامعليه السلام الإبقاء على عناصر الجملة القرآنية الرئيسية، ولكن يعيد بناءها بعلاقات اقتضاها السياق الجديد، كقولهعليه السلام في خطبة في التوحيد: «إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَه»[6] .

١- الضحى: ١١.

٢- الأحزاب: ٦٧.

٣- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٤.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٩.

٥- البقرة: ٢٧٣.

٦- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٨.

فهذا من قوله تعالى: ﴿أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [1].

وغير ذلك كثير لايسع المقام لذكرها[2] .

بدا من ذلك أن للنص القراني قوة حضور واضحة في كلام الإمام عليه السلام بحيث تمكنه من تأدية مايرمي اليه من معنى بظلال الصياغات القرانية التي حرص الإمام فيها على أن يطبع كلامه بطابع القرآن في الشكل والمضمون.

ثانياً: بناء الجمل القصيرة والطويلة:

بان مما سبق مدى تأثر الإمام عليه السلام بالأسلوب القراني إذ يعيد مرة صياغة الجملة القرانية ويبني جمله وفق الطريقة القرانية مرة ثانية. فبناء الجملة في نهج البلاغة قائم على أساس فهم الأسلوب القراني في صناعة الجملة، لذا سيكون الأثر الذي نحاول تتبعه في نهج البلاغة متجسدا في شكل الطريقة التي انتهجها الإمام عليه السلام في بناء جمله. ومن هنا ينبغي أولا تحديد الطريقة القرانية في بناء الجملة ثم تتبع أثرها في نهج البلاغة .

ولا بد من تحديد معنى الجملة كي نتبين معالم الجمل القصيرة والطويلة، وقد ذكر النحاة أن الجملة أصغر وحدة لغوية قائمة على المسند والمسند اليه وتفيد معنى يحسن السكوت عليه، قال سيبويه (ت١٨٩هـ): «هذا باب المسند والمسند اليه وهما مالا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا»[3].

وتبعه ابن جني (ت٣٩٢هـ) فحدد عناصر الجملة بقوله: «الجمل تتركب من جزءين جزءين: إما اسم واسم نحو المبتدأ وخبره وإما فعل واسم نحو الفعل

١- النحل: ٢٣.

٢- ظ. الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥، ١/ ٤٣٨، ١/ ٢١.

٣- سيبويه، الكتاب: ١/ ٢٣.

والفاعل وما أقيم من المفعولين مقام الفاعل ولابد في كل واحدة من هاتين الجملتين إذا عقدت من اسم يسند اليه غيره»[1].

ويبدو أن اجتزاء الجملة بصورة المسند والمسند اليه جاء لأجل تيسير القاعدة النحوية[2]، أما الجملة التي ندرسها فهي أعقد من ذلك بكثير، إنها مسافة المعنى التي تقطعها الألفاظ لاستيفائه من الإبتداء إلى تمام موافاة المعنى وانتهائه.

بمعنى أن ما سماه النحاة بالفضلة أو القيد أو التكملة أو متعلقات الجملة ولواحقها ركائز أساسية في بناء الجملة شأنه في ذلك شأن المسند والمسند اليه فقد «تتحول الفضلة إلى عُمْدة في الكلام لأمر بلاغي، وتصبح مسنداً إليه كما هو عليه بعد بناء الفعل للمجهول كقولنا قُرِئَ الكتابُ.. فالكتاب صار مسنداً إليه حين بني الفعل للمجهول بعد أن كان فضلة قبل بنائه للمجهول: قرأ زيد الكتابَ ... فمتعلقات المسند أو المسند إليه من الكلام الزائد لا يكون لمجرد زيادته وإنما لغاية معنوية وبلاغية، ولعل الأدباء يتمايزون بمدى قدرتهم على توظيف الفضلة في صورهم الجمالية»[3].

وبشكل عام تنتظم الجملة القرانية في شكلين:

١ـ الجمل القصيرة وهي الأكثر شيوعا في الاسلوب القراني وفي نهج البلاغة.

٢ ـ الجمل الطويلة. ولكل منهما ركائزه في البناء الجملي .

أ- ركائز بناء الجملة القصيرة:

يبدو التأثير القراني في بحث الجملة عند الإمام عليه السلام في شكل الطريقة التي

١- ابن جني، سر صناعة الاعراب: ١/ ٢٨٨.

٢- ظ. المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه: ٣١. وينظر: علي ناصر، الجملة الطويلة في القرآن الكريم: ٤ ـ ٥.

٣- حسين جمعة، في جمالية الكلمة: ٧٣.

انتهجها كلما توخى التعبير الفني، فهو يعمد الى تفجير طاقات اللغة بكل مستوياتها البنائية في مجال نظم الجملة للإحاطة بالمعنى. وقوة العلاقات القائمة بين عناصر الجملة وبين مستويات اللغة، هي في اكتشاف مصادر القوة لتكوين الجمل وتركيبها الفني .

إن اتخاذ القرآن اللغة معجزة له لفت النظر الى ما فيها من طاقة ابداعية كامنة فيها، يتفاوت مقدار تفجير هذه الطاقة بحسب إمكانات مستعمل اللغة نفسه، الأمر الذي تنبه اليه الإمام علي عليه السلام، ولاغرابة ،لأنه ابن القران وربيبه وعدله، فكان أن سلك سبيل القران في تتبع أسلوب نظم الجملة واستشفاف التنوع الدلالي لأنواعها كأساليب الخبر والإنشاء والفروقات الخفية بين الجمل الإسمية والفعلية .

فما أسلوبه مثلا في خطبة وصف المنافقين إلا وعي لأسلوب القران الكريم وتأثير عميق لنظمه، قال الإمام عليه السلام يصف المنافقين:

«وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ..»[1] .

فثمة تنوع مقصود اليه في الأداء بين الجمل الفعلية والإسمية، فحين أراد تبيان الحالة الحقيقية التي عليها المنافقون ومانطوت عليه نفوسهم من عناد ثابت راكز عمد الى استعمال الجملة الإسمية فقال: (فإنهم الضالون المضلون) وأردفها بجمل قصيرة بالأسلوب نفسه.

وحين أراد إبراز الطبيعة الظاهرة في القدرة على التغيير والظهور في أكثر من شكل عمد الى استعمال الجمل الفعلية لما فيها من صفة التجدد والحدوث فقال: (يتلونون ألوانا) وأردفها بجملة قصيرة فقال: (ويفتنون افتنانا).

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٩.

ولأن إصرارهم على العناد سيحملهم على الاستمرار في تتبع عثرات المسلمين حذرهم الإمامعليه السلام بقوله واصفا إياهم: «يعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد».

وهكذا يمضي في وصف المنافقين فيستعمل الجمل الاسمية ليشير بها الى حقيقتهم الثابتة: «قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ، يَمْشُونَ الْخَفَاءَ وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ، حَسَدَةُ الرَّخَاءِ وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ»[1].

وتبدو واضحة مناسبة الإبتداء بالفعل (يمشون) مع لفظة (الخفاء) ويدبون مع (الضراء) لما تحمل من معاني تجدد التلون والاستمرار على المراءاة. وقوله: (يمشون الخفاء) أي في الخفاء ونصب على نزع الخافض وكذلك (يدبون الضراء)، والضراء شجر الوادي الملتف وهو مثل يضرب لمن يختل صاحبه[2].

وهذا الأسلوب أصله القران من قبل واستعمله بدقة في تبيان خبيئات المعاني والإمامعليه السلام وعاه وتوسع فيه، قال تعالى في المنافقين:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[3].

فقد جاء خطابهم للمؤمنين بالجملة الفعلية (آمنا)، ولشياطينهم بالجملة الأسمية المحققة بـ(إن)، لأن حديثهم للمؤمنين جاء عن مداجاة ورياء وادعاء، ولم يصدر عن أريحية وصدق رغبة في الإيمان والإعتقاد فجاء بأسلوب الجملة الفعلية .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٩.

٢- ظ . الميداني ،مجمع الأمثال: ٣٥٠. وينظر: ابن منظور، لسان العرب: ضرأ.

٣- البقرة: ١٤، وينظر مثل ذلك: الأنبياء: ٥٥ وتفسيرها في: مجمع البيان: ٢/ ٥٢.

أما خطابهم لإخوانهم فهو حقيقة ما انطوت عليه نفوسهم من الثبات على اليهودية والقرار على الإعتقاد [١].

١ـ التقديم والتأخير:

وقد كثر في بناء الجمل في نهج البلاغة أسلوب التقديم والتأخير، ويمكن تحديده بشكلين:

الأول: التقديم بين جزئي الجملة:

وهو من قبيل تقديم الخبر على المبتدأ سواء كان مفردا أم جارا ومجرورا أم ظرفا، وهو في القران كثير غرضه في الغالب الاختصاص، نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [٢]، فتقديم الظرف (علينا) يدل على الاختصاص أي «لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شان عن شان» [٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [٤].

فقد كان تقديم الجار والمجرور(إلينا، علينا) معناه «التشديد في الوعيد وأن إيابهم ليس إلا الى الجبار المقتدر على الإنتقام وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ومعنى الوجوب الوجوب في الحكمة» [٥].

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٨٦. ابن الأثير، المثل السائر: ٢/ ٢٤٣. درويش الجندي، النظم القراني في كشاف الزمخشري: ٥٩. حسين جمعة، جمالية الكلمة: ٦٠.

٢- ق: ٤٤.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٣١٧.

٤- الغاشية : ٢٥ ـ ٢٦.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٥٩٥.

وابتنيت في نهج البلاغة كثير من الجمل على هذا الاسلوب، كقول الإمام علي عليه السلام لأصحابه: «وَ إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي»[1] .

فهو إنما قدم الخبر الجار والمجرور (معي) تأكيدا منه على يقينه بأمر الله لأنها جاءت في معرض كلامه عن خصومه الذين كنى عنهم بالشيطان في قوله أول كلامه: «أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ»[2] .

ويريد الإمام عليه السلام بالبصيرة البصيرة التي كانت معه في زمن رسول الله انها لم تتغير.

وقال الإمام عليه السلام لما خوف الغيلة: «وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً»[3].

فإنما قدم الخبر (علي) تأكيدا بيقينه بالله تعالى. ومن أمثلة تقديم الجار والمجرور قوله عليه السلام : «إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً»[4]، وتقديمه أفاد معنى التوبيخ فهو صاحب حق مضيع .

وهو مثل التقديم في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ [5] .

وصيغ تقديم الخبر(الجار والمجرور) في الجمل القصيرة كثيرة في نهج البلاغة مثل: «وَ إِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلا»[6] .

وقوله: «إِنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَما»[7] .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣١٥.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٥.

٣- المصدر نفسه: ١/ ١٢٦.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٩٢.

٥- الحجرات: ٧. وينظر: الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٢٧٨. محمد حسنين، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٧٢.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٢.

٧- المصدر نفسه: ٢/ ٣٦٢.

وقوله: «وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ»[1].

وكلها صياغات أكدت لفت الإنتباه الى إظهار المعنى الأهم بأسلوب تقديم الخبر على المبتدأ.

وقد يجيء الظرف متقدما كقول الإمام عليه السلام موصياً:

«وَاعْلَمْ، يَا بُنَيَّ، أنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً»[2]، فقدم الظرف (أمامك) للتحذير. وتقديم الخبر في نهج البلاغة من أكثر أساليب الإمام عليه السلام استعمالا في كلامه.

الثاني: التقديم في المتعلقات:

تضمن القران الكريم في مواطن كثيرة من آياته الشريفة تقديم المتعلقات التي أفادت معنى الاختصاص، فقد يقدم المتعلق في آية ويؤخر في أخرى بحسب اقتضاء المقام .

قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[3].

فالغرض من تقديم الأول (شهداء) إثبات شهادتهم على الأمم وفي الآخر (شهيدا) اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.

وفي مثال آخر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[4].

فقد تأخرت الصلة (عليه) بينما تقدمت في قوله تعالى:
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[5].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٧٩.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ١٨٩.

٣- البقرة: ١٤٣. وينظر: الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٤٩.

٤- الروم: ٢٧.

٥- مريم: ٩ .

لأن في الثانية «قصد الاختصاص وهو محزه فقيل: (هو علي هين)، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر»[1].

وأما في الاولى «فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[3]، فقد تقدم الظرف (له) وحقه التأخير «وإنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباريء سبحانه وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شي ء وأحقه بالتقديم وأحراه»[4].

ومثل هذه الصيغ على سبيل الأمثلة لا الإحصاء، الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[5]، وقوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[7]، وفي كلها أفاد التقديم الدلالة على الإختصاص.

وأكثر الإمام عليه السلام من هذا الأسلوب في بناء جمله القصيرة، فقد تقدم المتعلق لإفادة الاختصاص. نحو قوله في ذكر قريش:

«وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ»[8].

فقد تأخرت الصلة (بالأمس) بينما تقدمت في قوله ليلة استشهاده عليه السلام:

١- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٣٧٥، وينظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٣٠٢.

٢- المصدر نفسه: ٣/ ٣٧٥.

٣- الإخلاص: ٤.

٤- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٤٨٤.

٥- الطارق: ٨، وينظر: الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٥٨٧.

٦- الأنعام: ٩٠، وينظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٣٣٢.

٧- البقرة: ٣، وينظر: الزمخشري، الكشاف: ١/ ٣٢.

٨- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٠.

« أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ وَغَداً مُفَارِقُكُم»[١] .

لأنه في مقام الوعظ والاعتبار من صروف الأيام وتقلباتها، أما في الاول فهو في مقام التهديد والوعيد ولفظة (الصاحب) التي ذكرت في الاولى غيرها في الثانية، الاولى كناية عن الشجاع الذي عرفته قريش في الماضي والحاضر، والثانية إشارة الى الصاحب والرفيق المجاور الذي سرعان ما يفارق بالموت.

وقال الإمام عليه السلام في رسالة الى معاوية بعد قضية التحكيم:

«وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ»[٢] .

فقد فصل بين العامل ومعموله وقدم ضمير النصب (إياك) على سبيل التخصيص الذي أفاد الإهانة في كون المخاطب ليس أهلا للإجابة، بينما كانت سرعة الاستجابة تلمح بصلة الضمير (نا) بالفعل (أجبنا) كونها متعلقة بالقرآن.

وقال الإمام عليه السلام في صفة أهل البيت عليهم السلام :

«إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي»[٣] .

فقد تقدم الظرف (اليهم) على عامله (يفيء) وكذا (بهم) على (يلحق)، لأنه في معرض الثناء على آل بيت النبوة فهم وحدهم بهذا الاقتصار جعلهم كمقنب يسير في فلاة، فالغالي منه أي الفارط المتقدم الذي قد غلا في سيره يرجع الى ذلك المقنب إذا خاف عدوا، ومن قد تخلف عن ذلك المقنب فصار تاليا له يلتحق به إذا أشفق من أن يتخطف.

إذن ثمة قصد من تقديم المتعلق أو تأخيره، فقد تقدم الظرف (أمام) وتأخر

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٣٩.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٢٣٣.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٨. ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٨٨.

في بناء الجملة بالاسلوب نفسه في قوله عليه السلام: «شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَه»[1] .

فقد تأخرت الصلة لانه يريد أن من كانت هاتان الداران أمامه لفي شغل عن أمور الدنيا، وأشار بلفظة (أمام) باعتبار أن الجنة والنار غايتان ينتهى اليهما، وانبنى الفعل (شغل) للمفعول لغرض ذكر الشغل دون المشغل .

بينما تقدم الظرف (أمام) في قول الإمام عليه السلام من رسالة الى عمرو بن العاص محذرا: « فَإِنْ يُمَكِّنِّي الله مِنْكَ وَمِنِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا»[2]، باعتبار عدم انقطاع عذاب الآخرة .

وتبع الإمام عليه السلام القران الكريم في تقديم المتعلقات اسلوبا ودلالة، فقدم الأفضل في قوله من خطبة في التوحيد: «اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد »[3]، فقدم السماء على الارض اتباعا للأثر القراني .

وذلك اسلوب مطرد في نهج البلاغة وقدمها في موضع واحد لان الحديث كان عن الارض واهلها في قوله مستنهضا أصحابه:

«اللهمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ، سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ... فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ .. فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسمَاوَاتِكَ»[4] .

فقدم شهادة البشر بلحاظ القرب والمشاهدة.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٤.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٢١٣.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٠.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ١٦.

﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [1] .

فقد تقدمت الارض على السماء في هذا الموضع لأنه «لما ذكر شهادته على شؤون أهل الارض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدم الارض على السماء» [2] .

ومثله قوله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ الله لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [3] .

فقدم الأرض «ترقيا من الأدنى الى الأعلى ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها وهو كالدليل على كونه حيا» [4]، فالخطاب موجه لأهل الأرض [5]، وهو النبي ﷺ ومن حاججه من أهل نجران، وليتسنى التدرج في العطف الى الابعد في الحكم، لان اشياء الارض يعلم كثيرا منها كثير من الناس، اما اشياء السماء فلا يعلم احد بعضها فضلا عن علم جميعها [6] .

وتكرار حرف الجر (في) لأن السياق سياق محاججة يقتضي البسط والزيادة في القول [7] .

وتبع القران في تقديم الجنة على النار كقوله عليه السلام :

١- يونس: ٦١.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٧٨.

٣- آل عمران: ٥.

٤- البيضاوي، تفسير البيضاوي: ٢/ ٧.

٥- ظ. الزركشي، البرهان: ٣/ ٢٥٧ .

٦- ظ. ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣/ ١٥١.

٧- ظ. فاضل السامرائي، التعبير القرآني: ١٠٣. أحمد النجماوي، السماء والأرض في القرآن (رسالة ماجستير)، جامعة الموصل: ٣٦.

«مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ»[1].

وجدير بالذكر أن لفظ (الجنة والنار) لم ترد في القران مجتمعة متعاطفة على الاطلاق، وإنما قدمها الإمام عليه السلام على أساس من فهم الآيات الشريفة التي تدعو الى الجنة وتحذر من النار وهي كثيرة جدا[2].

ومن تقديم الافضل تقديم الشمس على القمر كقوله عليه السلام: «فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»[3]، وقوله: «وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ»[4].

كل ذلك اتباعا للأثر القراني في تقديم الشمس على القمر[5].

وتبع الإمام عليه السلام القران الكريم في تقديم الأغرب في الصفة في قوله يصف النبي سليمان عليه السلام: «فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً أَوْ إِلَى دَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»[6].

فقدم تسخير الجن على الإنس تأسيا بقوله تعالى في تقديم الصفة الأغرب: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[7].

فقدم الجبال لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لانها جماد والطير حيوان الا انه غير ناطق .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٧٦.

٢- مثل: البقرة: ٢٤. آل عمران: ٩٢. الشعراء: ٨٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٦٥.

٤- المصدر نفسه: ١/ ١٨٢.

٥- ينظرالسور: ابراهيم: ٣٣. الزمر: ٥، فصلت: ٣٧. القيامة: ٩.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٣.

٧- الأنبياء: ٧٩. ظ. الزمخشري،الكشاف: ٣/ ١٠١. الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٣٠٢.

آ ـ الحـذف:

وللحذف دوره في بناء الجمل القصيرة. وهو في اللغة يعـني الإسـقاط[1]، وفي الاصطلاح إسقاط الكلام لدليل [2].

والحذف طريقة في الاتساع والاختصار في القـول، درسـه النحـاة[3]، ووقـف عليه البلاغيون[4] طويلا، قال عنه عبد القـاهر الجرجـاني(ت٤٧١هــ) مـشيرا الى قيمته البلاغية: «هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الامـر شـبيه بالـسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح مـن الـذكر والـصمت عـن الإفـادة أزيـد للإفـادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبن»[5].

وقـد كثـر أسـلوب الحـذف في القـران الكـريم، يقـول الـشريف المرتـضى (ت٤٣٦هـ) في أماليه: «وفي القران من الحذوف العجيبة والاختصارات الفـصيحة ما لا يوجد في شيء من الكلام»[6]، كقوله تعالى في قصة يوسفعليه السلام وصـاحبه في السجن ورؤيا الملك البقر السمان والعجاف:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [7].

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: حذف.

٢- ظ. الزركشي، البرهان: ٣/ ١٠٢.

٣- ظ.سيبويه، الكتاب: ٤/١٠٨ ـ ١٠٩. المـبرد، الكامـل: ١/ ١٨٠. ابـن جـني، الخـصائص: ٢/ ٣٦٠.

٤- ظ. الباقلاني، إعجاز القرآن: ١٦١. العسكري، كتاب الصناعتين: ١٧٥ ـ ١٧٧. الآمـدي، الموازنة: ١٦٩ ـ ١٧٠.

٥- الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٩٥. ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ١٧٢ ـ ٢٦٦، ٣/ ١١٤.

٦- الشريف المرتضى، الأمالي : ٣/ ١٥٧.

٧- يوسف: ٤٥.

فلو بسط الكلام فأورد محذوفه لقال: «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ففعلوا فأتى يوسف فقال يايوسف أيها الصديق»[1] .

وكثيرا ما يرد الحذف في القصص القراني كقصة سليمان عليه السلام في سورة سبأ.

وفي نهج البلاغة كثرة واضحة من أساليب الحذف التي اقتفى فيه الاسلوب القراني في بناء الجمل القصيرة، مثل قول الإمام عليه السلام من خطبة ملحمية يصف فتنة يهلك فيها الناس: «تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا»[2]، والتقدير (تكيل لكم) فحذف تأسيا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[3]، أي كالوا لهم او وزنوا لهم.

وفي كلام الإمام عليه السلام إشارة الى أخذ الفتنة الناس وإهلاكهم زمرة زمرة كما يفعل الكيال فيما يكيل جملة جملة.

وقال الإمام عليه السلام في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن عليه السلام يتسرع الى الحرب: «امْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي»[4]، أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه فـ(عن) متعلقة بمحذوف تقديره: استولوا عليه وأبعدوه عني .

ولما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن المسبب .

وفي قوله: (املكوا) معنى البعد ولكنه أعقبه بـ(عن) لانهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين إلا وقد أبعدوه عنه فلذلك قال: «املكوا عني هذا الغلام».

أما قوله (لايهدني) أي: (لئلا يهدني) فحذف اللام ونصب الفعل بـ(أن) الناصبة المضمرة، ومعنى (يهدني) يكسرني على تقدير «هلاكه عن اضعافه لركنه

١- الشريف المرتضى، الأمالي: ٣/ ١٥٧.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٤٤.

٣- المطففين: ٣.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٨.

وانكسار نفسه بذلك»[1].

ولعل بسبب هذه الحذوف علق الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) على كلام الإمامعليه السلام بانه: «من أعلى الكلام وأفصحه»[2].

وقد يحذف الموصوف بقصد الإبهام، كقوله عليه السلام:

«أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ»[3].

فقد حذف الموصوف في قوله: (تخدعكم الكواذب) ليدع النفس تذهب كل مذهب في تسمية هذه الكواذب من أمان وأباطيل وأوهام .وجاء الاستفهام على سبيل التهكم والتقريع لهم«ببقائهم على غوايتهم»[4].

وعلى هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[5].

أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة او للطريقة «وأيما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع ايضاحه»[6].

ومن اسلوب حذف الفاعل جاء قول الإمامعليه السلام في خطبة الإستسقاء:

«نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ وَهَلَكَ السَّوَام»[7].

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٥.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١/ ٢٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٤٤.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٥.

٥- الإسراء: ٩.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٨٠٥. ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٣/ ٤٠١.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٦٨.

فهو إنما قال: (منع الغمام) بحذف الفاعل لانه كره أن يضيف المنع الى الله تعالى وهو منبع النعم، كما إنه ليس مناسبا نسبة المنع الى الله تعالى في مقام السؤال والاسترحام، «ولأن الجود الالهي لابخل فيه ولا منع من قبله وإنما يكون بحسب عدم الاستعداد وقلته وكثرته»[1]، لذلك «اقتضى حسن الأدب أنه لم يسم فاعله»[2].

وقد يتوخى الإمامعليه السلام الحذف لغاية الإبهام، كقوله يخبرعن أمر مقتل عثمان من كتاب الى أهل الكوفة: «فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوه»[3].

فقد أضمر الفاعل ولم يقل: (فأتاح الله له قوما) ولا: (أتاح له الشيطان) وجعل الامر مبهما تألفا لقلوب الناس المنقسمة في هذا الشأن.

وجاء اسلوب حذف الفاعل في القران كثيرا كقوله تعالى:

﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[4]. لما كان الفاعل معلوما اقتضى المقام عدم ذكره.

وقد يحذف المفعول في بناء الجملة، نحو قول الإمامعليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي»[5].

فتقدير الكلام: لا يجرمنكم شقاقي على أن تكذبوني.

وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٠٦.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٦٦.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٢٧. وينظر رسالة ماجستير: فراس عبد الكاظم، المبني للمجهول في نهج البلاغة (رسالة ماجستير)جامعة بابل: ١١٧.

٤- النساء: ٢٨.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢٥.

مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾[1].

وعلى دأب الإمام(عليه السلام) في قدرته على استحضار النص القراني ونقله والتصرف في اقتباسه فقد وظفه في موقفه الفني دون أدنى تكلف .

وحذف المفعول كثير إذا أمن اللبس، نحو قوله تعالى:

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾[2]. والتقدير (من رحمه) .

وقد كثر أسلوب حذف المفعول في نهج البلاغة مثل قول الإمام(عليه السلام):

«هَلَكَ مَنِ ادَّعَى وَخابَ مَنِ افْتَرى»[3]، فهو (عليه السلام) يريد هلك من ادعى الكذب لانه لابد من تقدير ذلك لان الدعوى تعم الصدق والكذب .

ويبدو أن المحذوف الإمامة، لأن سياق الكلام كله كنايات عن الإمامة وكأنه يقول: «وردي من اقتحمها وولجها من غير استحقاق»[4].

وفي كلام الإمام(عليه السلام) تعريض بمعاوية بسبب ادعائه ماليس له من إمامة.

وقد يحذف الخبر اختصارا، نحو قول الإمام (عليه السلام):

«أَلَا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّمَاظَةَ لِأَهْلِهَا»[5].

فقوله: (ألا حر) مبتدأ وخبره محذوف تقديره (في الوجود).واللماظة كناية عن الزهادة بالدنيا.

ومثله قوله في التوحيد:

١- الانشقاق: ٨٩.

٢- هود: ٤٣.

٣- الإمام علي(عليه السلام)، نهج البلاغة: ١/ ٥٤. ظ.: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٧٧.

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٧٧ .

٥- الإمام علي(عليه السلام)، نهج البلاغة: ٢/ ٤٠٩.

«الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ»[1]، فارتفعت (سماء) لانه مبتدأ محذوف الخبر وتقديره(في الوجود) .

وكلام الإمام عليه السلام مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[2].

وقال الإمام عليه السلام: «إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُو»[3].

(فخير) خبر مبتدأ محذوف تقديره: (فأنت خير مامول) .

وهذا البناء يشبه الصياغة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[4]،

وتقديره: (فإساءته على نفسه)، والحذف بعد فاء الجزاء جائز وهو كثير[5].

وقد يحذف عامل الفاعل، مثل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[6]، والتقدير: (إن استجارك أحد من المشركين استجارك).

ومثل هذا البناء قوله عليه السلام في الدنيا:

«وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى»[7] .

فقد ارتفع (جانب) بعد (إن) لانه فاعل فعل مقدر يفسره ظاهره أي: (وإن

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٨٢.

٢- البروج: ١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٠٦.

٤- فصلت: ٤٦.

٥- ظ. ابن هشام، مغني اللبيب: ١/ ١٢٢.

٦- التوبة: ٦.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٨.

اعذوذب جانب اعذوذب)لان (أن) تقتضي الفعل وتطلبه .

٣ـ الاستفهام:

وهو في أصل اللغة طلب الفهم فـ«استفهمه سأله أن يفهمه»[١]، وكذلك هو في اصطلاح النحاة .

والاستفهام في القران الكريم غير حقيقي لانه واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام «وإنما يخرج مخرج التوبيخ والتقرير»[٢]، فالله تعالى إنما يستفهم عباده ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فاذا استفهموا أنفسهم عنه يجدونه عندها يخبرهم به[٣].

وأورد الزمخشري (ت٥٣٨هـ) قوله تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤]، فقال: «معناه فلنسألن المرسل اليهم وهو الأمم يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، ... فإن قلت فاذا كان عالما بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى سؤالهم، قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم»[٥].

لذلك فأكثر استفهامات القران الكريم لا تحتاج الى جواب، والاستفهام الحقيقي هو الذي يوافق لفظ الظاهر معناه الباطن[٦].

١- ابن منظور، لسان العرب: سأل. ظ.الزمخشري، أساس البلاغة: سأل.

٢- الأوسي، أساليب الطلب: ٣٠٨. عبد العليم فودة، أسلوب الإستفهام في القرآن: ٣٥٤.

٣- ظ. المبرد، المقتضب: ٣/ ٢٩٢. الزركشي، البرهان: ٢ / ٢٢٧. السيوطي، الإتقان: ٢/ ٧٩.

٤- الأعراف: ٦.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٦٧. وينظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٢٦٠.

٦- ظ. ابن فارس، الصاحبي: ١٨١.

ويبدو أن الجملة الإستفهامية تثير مزيدا من التيقظ والتنبه لدى السامع، لأنها تثير فيه الفضول فتحمله على البحث عن جواب لهذا الطلب سواءً أكان حقيقيا أم مجازيا .

ومثلما كان الاستفهام ركيزة من ركائز بناء الجمل القصيرة في القران كان كذلك في نهج البلاغة.

وتأثر الإمامعليه السلام في بناء جمله على الاستفهام الاسلوب القراني، فقد كثر في الافعال وبخاصة مع أداتي التصديق (الهمزة وهل)، والسبب في كثرة الافعال في أساليب التصديق «أنها متغيرة متجددة وهذا التغيير المستمر يجعلها محل التعرف وموطن الاستفهام، ولان الإنكار والتعجب والتوبيخ وهي الأغراض الغالبة في الاستفهام القراني مردها في الغالب إن لم يكن دائما الى الافعال لا الى الذوات»[١].

وهذا المعنى ما يذهب اليه النحاة في حقيقة أن الاستفهام حقه أن يكون مع الفعل لذا كثر تعلقه به، قال سيبويه (ت١٨٩هـ): «حروف الاستفهام بنيت للفعل إلا أنهم قد توسعوا فيها فابتدعوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك»[٢]، من ذلك أساليب فعل الرؤية التي جاءت في أكثر من ثلاثين موضعا في القران الكريم، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [٣]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ [٤]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [٥] .

١- عبد العليم فودة، أسلوب الإستفهام في القرآن: ٣٥٣.

٢- سيبويه، الكتاب: ١/ ٥١.

٣- الرعد: ٤١. وينظر: النسفي، تفسير النسفي: ٣/ ١٧٤.

٤- التوبة: ١٢٦.

٥- الفيل: ١.

والاستفهام في كل ذلك إما للتقرير بمعنى إثبات الرؤية للمتحدث عنه مع التوبيخ كما يفهم من السياق، وإما لإنكار الواقع بمعنى أنهم«لم يروا فهم ملومون على ترك الرؤية موبخون عليها»[1].

والاصل في اسلوب أفعال الرؤية (ألم تر، ألا ترون) أن تتعدى بنفسها وعديت بـ(أل) في بعض مواضعها لان الاسلوب بمعنى (ألم ينته الى علمك الى كذا)، كما ذكر ذلك الزمخشري (ت٥٣٨هـ) [2].

وقد استقى الإمام عليه السلام هذا الاسلوب من القران فكثر في بناء جمله،نحو قوله واعظا:

«أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ وَفِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ، أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا، يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى ؟»[3].

ومثلما أخذ الإمام عليه السلام صيغة الاستفهام المنفي (ألم يروا) فقد أخذ كذلك أسلوبه في الاستفهام المنفي بصيغة (أليس) .

وكلا الاسلوبين مما جاء في القران، نحو قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾[4]، فهذا استفهام اريد به التقرير والوعيد.

وقد تفيد مع التقرير التوبيخ والتهكم كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ

١- الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٢٦٠.

٢- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢٧١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢١.

٤- الزمر: ٣٢.

كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ [1]، أو يفيد مع التقرير التعظيم نحو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [2].

وقد أكد الإمامعليه السلام المعنى في الاستفهام الذي أفاد التقرير والوعيد بتكرار أداة الاستفهام (الهمزة).

ومن الاساليب الاستفهامية التي استقاها الإمام عليه السلام من القران الكريم أسلوب (أرأيت)، كقوله محاججا:

«أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً ... فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ مَا كُنْتَ صَانِعا ؟» [3].

ومثله قولهعليه السلام : «أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُه» [4]، فهذا البناء مأخوذ من قوله تعالى:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ [5].

وقدر القرطبي (ت) الكلام «أوتأمرونني بالعصيان» [6].

ومن أساليب القران الاستفهامية، أسلوب (ما منع) كقوله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [7]، فقد تأثره الإمامعليه السلام فقال:

١- الأحقاف: ٣٤.

٢- التين: ٨.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠٥.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٨.

٥- هود: ٨٨.

٦- القرطبي، جامع الأحكام: ٩/ ٨٩.

٧- الأعراف: ١٢.

«وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ»[1].

وتأثر الإمامعليه السلام اسلوب الاستفهام القراني المسوق مساق التمهيد لما بعده لمعان بلاغية، كقوله تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[2].

فقد أفاد معنى التحقير.

وقد يفيد معنى التعظيم كقوله تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[3].

وانتهج الإمامعليه السلام الاسلوب نفسه، فقال ناصحا:

«أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ، هَيْهَاتَ لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِه»[4].

ومثل هذا قوله لمروان بن الحكم وقد تشفع له الحسن والحسينعليهما السلام لإطلاق سراحه بعد أسره في الجمل:

«أَوَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ، لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِه»[5].

وشبهها بالكف اليهودية لان اليهود شأنهم الغدر والحنث.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٦٣.

٢- الطارق: ٥ ـ ٧.

٣- الأنعام: ١٩. وينظر في تفسيرها: الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٨١.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٠١.

٥- المصدر نفسه: ١/ ١٤١. وينظر: ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٨١.

وقال الإمام عليه السلام :

«أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ، قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ، بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ »[1].

وهذا الاسلوب في الاستفهام الذي يساق مقدمة لغرض ما يكثر في كلام الإمام عليه السلام .

وأخذ الإمام عليه السلام من اسلوب القران صيغة (هل ينتظر) فقال مزهدا:

«فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ، وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ ؟»[2].

فهذا من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[3].

وقد تنبني جمل الإمام عليه السلام كلها بصيغ الاستفهام في التوطئة الى الغرض الذي ساق الكلام لأجله، وهو من أصعب الأساليب، كقوله عليه السلام :

«هَلْ تَحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً، بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، أَ يَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا، كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ، مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟»[4].

فاستفهاماته على سبيل الإنكار عن الإحساس بالموت. والتساؤلات الأخيرة

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٦.

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٥٦.

٣- يونس: ١٠٢. وينظر في تفسيرها: الطبرسي، مجمع البيان: ٥/ ١٣٨.

٤- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٢٦١.

من قبيل تجاهل العارف بالنسبة اليه[1].

وصيغة (هل تحس) جاءت في قوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾[2].

والإمام عليه السلام ترامى الى الغرض الأخير من كلامه، وإنما جعل حديثه عن الملك والجنين توطئة مهد بها لمعناه الدقيق في وصف الذات المقدسة .

وجملة الأمر إن الاستفهام واحد من أساليب التعبير عند الإمام عليه السلام في بناء الجمل القصيرة التي اقتفى في بنائها الأسلوب القرآني.

٤ـ الأمر:

الامر في أصل اللغة معروف وهو نقيض النهي[3]، لان الامر طلب ايقاع الفعل والنهي طلب لترك ايقاعه[4]، وفي اصطلاح البلاغيين هو «طلب ايجاد الفعل»[5]، أو «قول القائل لمن دونه افعل»[6].

ويعرفه العلوي (ت٣٨٩هـ) بقوله: «صيغة تستدعي الفعل او قول ينبيء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»[7].

وقد انبنت كثير من الجمل القرانية القصيرة على الامر بصيغه المختلفة التي غالبا ما يقتبسها الإمام عليه السلام في مبناها ومعناها او يتأثر اسلوبها في إقامة الجملة على صيغها.

١- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٠.

٢- مريم: ٩٨.

٣- ظ. ابن منظور، لسان العرب: أمر.

٤- ظ. ابن الخشاب، المرتجل: ٢٠٥.

٥- ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ١/ ١٨١.

٦- الشريف الجرجاني، التعريفات: ٣٨.

٧- العلوي، الطراز: ٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

فمن اقتباسات الإمام عليه السلام لصيغ الامر القرانية، قوله عليه السلام من كتاب لأحد عماله: «وَأَطِعِ الله فِي جُمَلِ أُمُورِكَ»[1]، أي في جملتها وفيها كلها ،وليس يعني في جملتها دون تفاصيلها.

وصيغة (أطع الله) جملة طلب مقتبسة من الاسلوب القراني الوارد كثيرا في كتاب الله العزيز .مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ﴾[3].

وقال الإمام موصيا ولده الحسن عليهما السلام: «فَاسْتَعِنْ بِالله عَلَى مَا أَهَمَّكَ»[4]، فصيغة (استعن) من صيغ الامر القرانية التي بنيت عليها كثير من الجمل في الكتاب العزيز، كقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْبِرُوا﴾[5].

كما أخذ صيغة (انفروا) من قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾[6]، ووظفها لموقفه فقال: «انْفِرُوا رَحِمَكُمُ الله إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ»[7]، ومعنى انفروا اخرجوا الى الغزو.

ومن صيغ الامر القرانية التي أخذها الإمام عليه السلام وبنى بها جمله صيغة (اتق الله) التي ترددت كثيرا في كلامه عليه السلام نحو قوله: «فَاتَّقِ الله فِي نَفْسِكَ»[8]، وقوله:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٢. ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٥٠.

٢- النور: ٥٤.

٣- آل عمران: ٣٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٢٢٩ .

٥- الأعراف: ١٢٨، وينظر مثلها: البقرة: ١٥٣.

٦- التوبة: ٤١.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢١٢.

٨- المصدر نفسه: ٢/ ٢٦٨ .

«فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَـدَيْكَ»[1]، وكلـها مـن صـيغ القـران الـتي جـاءت كـثيرا في آياتـه الشريفة كقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ الله﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله﴾[4].

وقد يأخذ الإمامعليه السلام الصيغة القرانية وينقلها بتوظيف جديد ، كقوله:

«اعْتَصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَادِهَا»[5]، فقد أخذ صيغة (اعتصم) من قوله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً﴾[6]، ونقلـها الى معنـى آخـر، بينمـا في قولـه: «فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ»[7] حرص على ايجاد علاقات مشابهة لمحيط النص القراني لصيغة (اعتصم) في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِالله﴾[8].

وقالعليه السلام موصيا في إحدى رسائله: «وَخَادِعْ نَفْسَكَ وَارْفُقْ بِهَا وَلَـا تَقْهَرْهَـا، وَخُذْ عَفْوَهَا»[9].

وبنيت الفقرات من جمل قصيرة بصيغة الامر والمعنى الذي اراده الإمـامعليه السلام

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٨.

٢- البقرة: ٢٠٦.

٣- الأحزاب: ١.

٤- الأحزاب: ٣٧.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٤٥ .

٦- آل عمران: ١٠٣.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٨٥ .

٨- الحج: ٧٨.

٩- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٢ .

هو: «التلطف بالنفس في النوافل ومخادعتها في ذلك وعدم قهرها حتى لا تمل وتضجر وتترك، بل أمره أن يأخذ عفوها ويتوخى أوقات النشاط وانشراح الصدر للعبادة»[1]، ومحل الشاهد قوله: (خذ عفوها)، فهو منقول من قوله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [2].

وأخذ الإمام بناء الفعل (أقم) من القران الكريم وتوسع فيه فقال من كتاب له لعامله على مكة: «أَمَّا بَعْدُ فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ»[3].

لأن صيغة (أقم) لم تستعمل في القران مع الحج بل غالبا ما تأتي مع الصلاة، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [4].

وقد يتصرف الإمام عليه السلام ببناء النص القراني فينقله بعد إعادة صياغته من صيغة الى أخرى، كأن ينتقل بالاسلوب الخبري الوارد في النص القراني الى اسلوب الإنشاء الطلبي بصيغة الامر بحسب موقفه الفني .

كقوله عليه السلام : «وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ»[5]، فهذا منقول من الصيغة الخبرية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [6].

وقد ينتقل بالنص القراني من صيغة الاستفهام الى الامر، كقوله عليه السلام موصيا: «وَوَقِّرِ اللهَ وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَه»[7]، فهذا البناء الطلبي منقول من قوله تعالى:

١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤٨/١٨.

٢- الأعراف: ١٩٩، وينظر في تفسيرها: الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٥١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٩ .

٤- الإسراء: ٧٨.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١ .

٦- الأعراف: ١٧٠.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٢ .

﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾ [1]، وكقوله عليه السلام: «وَاكْظِمِ الْغَـيْظ» [2]،فهـو منقـول من قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [3].

وقد ينقل الإمام عليه السلام صيغة الامر القراني ذاته، كقولـه عليه السلام: «فَمَـنْ آتَـاهُ الله مَالًـا فَلْيَـصِلْ بِـهِ الْقَرَابَـةَ ... وَلْيَـصْبِرْ نَفْـسَهُ عَلَـى الْحُقُـوق» [4]، فـصيغة (فليصبر) من صيغ الامر المباشر في قولـه تعـالى: ﴿وَاصْـبِرْ نَفْـسَكَ مَـعَ الَّـذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [5].

ويسلك الإمام عليه السلام في بناء بعض جمله الطلبية سبيل القران الكريم في ابتنائهـا على أفعال الامر التي تفيد التكثير في المعنى، كقوله عليه السلام:

«فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَـذِلْ نَفْـسَكَ فِيمَـا افْتَـرَضَ الله عَلَيْـك» [6]، فقـد جاءت الاوامر كلها بصيغ الافتعال الـتي تفيـد الزيـادة والكثـرة في طلـب الامـر، لذلك جاء بالفعل الماضي (افترض) مزيدا للتكثير، وصـيغة (اجتنـب) مـن أوامـر القران الكريم التي جاءت في خمسة مواضع فيه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ [7]، وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [8].

ومن المعاني المستفادة من القران الكريم التي خرجت فيها الأوامر عن حقيقتهـا

١- نوح: ١٣.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٢.

٣- آل عمران: ١٣٤ .

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٢٤ .

٥- الكهف: ٢٨.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٣ .

٧- الحجرات: ١٢.

٨- الحج: ٣٠.

الاستعلائية الدعاء، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[1].

فـهو من باب التعبد والضراعة الى الله[2].

وقد ورد مثله كثيرا في نهج البلاغة، كقول الإمام عليه السلام ذاكرا الرسول صلى الله عليه وآله:

«اللهمَّ افْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ اللهمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا»[3].

وقد يخرج الامر الى معنى التهديد، كقوله عليه السلام من رسالة الى معاوية:

«وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً، وَاخْرُجْ إِلَيَّ وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ»[4]، فخرجت افعال الامر (اخرج، اعف) عن معانيها الحقيقية في الأمر الى معنى مجازي أفاد التهديد .

ومثل هذا الاسلوب جاء في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5] .

فالامر (اعملوا) أفاد التهديد.

وفي موضع آخر جاء الفعل (اخرج) في كلام الإمام عليه السلام يفيد معنى آخر، فقد بلغه عن أبي موسى الأشعري وكان عامله على الكوفة تثبيطه الناس عن اللحاق به، فقال من رسالة بعثها اليه:

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكَ ...

١- آل عمران: ١٩٤.

٢- ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٤٧٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٣٨ .

٤- المصدر نفسه: ٢/ ١٤١.

٥- فصلت: ٤٠.

وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ»[1]، فقوله الاخير أمر اراد به الإهانة حين كنى عن مقره بالجحر.

وقد يخرج الامر الى معنى التخيير مثل قوله لمّا غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفّين و منعوهم من الماء:

«قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ»[2].

فوقعت أفعال الأمر (أقروا، رووا) في معنى التخيير والغرض منه بث الهمة في نفوس أصحابه عليه السلام.

وهكذا نجد الإمام عليه السلام متنقلا بصيغة الأمر من الحقيقة الى المجاز وبقية الإستعمالات في التحذير والتهديد والتوهين اتساعا في اللغة .

ب- ركائز بناء الجملة الطويلة:

وهي الجمل التي تكتنف أكثر من أسلوب نحوي في بنائها، بمعنى آخر هي الجمل التي تستطيل بجمل قصيرة تتخذها عناصر لها فتمتد الى مسافة قولية طويلة[3].

والجمل الطويلة شكل آخر من أشكال الجمل القرانية، وقد أخذت بعض وسائل اللغة وآلياتها دورها في امتداد الجملة مثل:

١ـ جملة الشرط:

أقيمت الجملة الطويلة في بنائها على أسلوب الشرط الذي يستدعي أداة شرط وفعل شرط وجوابه، مثل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٠ .

٢- المصدر نفسه : ١/ ١١٥.

٣- ظ. علي ناصر، الجملة الطويلة في القرآن، كلية التربية ، جامعة بابل: ٤.

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ففي الآية ضرب من البناء الجملي الطويل الذي تتآزر فيه جملة الشرط المؤلفة من أداة الشرط وفعله وجوابه المتاخر وجملة (كان) الناقصة واسمها الذي تنوع بوسيلة التعاطف فجاء خبر (كان) المتأخر(أحب) اسم تفضيل تطلب إطالة في الكلام وبعد إتمام جملة (كان) التي شكلت جملة فعل الشرط جاءت جملة جوابه المتأخرة وهي (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره).

ولا شك في أن بناء الجملة بهذا الامتداد الطويل يتطلب مهارة فائقة في القدرة على الربط بين الجمل القصيرة بحيث يضيف مزيدا من الثراء اللغوي، كما أنه أقدر على بسط المزيد من المعاني من خلال الإكثار من أساليب البناء الجملي .

وفي القران أمثلة كثيرة على ذلك[2]، كقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[3].

ويبدو أن اسلوب الجملة الطويلة لم يأت الا للحدث العظيم الذي تحملها معانيها، كما رأينا في سورة التكوير .

وفي نهج البلاغة أثر بين لهذا الاسلوب في بناء الجمل الطويلة القائمة على أسلوب الشرط. يقول الإمام عليه السلام :

١- التوبة: ٢٤.

٢- ظ. مثلاً: سورة الفلق، الناس.

٣- التكوير: ١ ـ ١٤.

«إِذَا رَجفَتِ الرَّاجِفَةُ وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ»[1].

وامتدت جملة الشرط المكونة من فعل الشرط (رجفت الراجفة) وجوابه (فكم حجة يوم ذاك داحضة) الى مسافة قولية ضمت ما بين الفعل وجوابه جملا معطوفة واسلوبا للنفي والاستثناء في قوله: (فلم يجز ...الا بحقه) بعدها جاء جواب الشرط المتأخر (فكم حجة ..).

ولاريب، إن في ذاك تشويقا وانشدادا للسامعين يحملهم على الترقب والتطلع لمعرفة جواب الشرط خاصة وأن اسلوب الشرط يحمل معه عنصر المفاجأة للسامع.

ومثلها قوله عليه السلام في التوحيد: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ، مِنْ تَجْدِيدِ الْخَلْقِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا»[2].

فجاء جواب الشرط (أماد السماء) متأخرا بعد ثلاث جمل متعاطفة .

ومثل ذلك جملة (لو) المتضمنة معنى الشرط، كقوله عليه السلام يصف منازل الموت: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى»[3].

فالمسافة ممتدة متطاولة بين(لو) وجوابها، أتاحت خلالها بسط مزيد من

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٥ .

٢- المصدر نفسه: ١/ ٢٥٢.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٤٢.

المعاني في تفاصيل الحساب، ويبدو للتعاطف بين الجمل القصيرة دورا بينا في إمتدادالجملة الطويلة حتى انتهت بالجواب بعد حين: (لرأيت أعلام هدى) .

وقد تكررت الجملة الطويلة بـ(لو) المتضمنة معني الشرط في كلام الإمام عليه السلام كثيرا .

آ ـ جملة (إن):

وجملة (إن) واسمها وتأخر خبرها وردت في بعض آيات القران جملة طويلة ممتدة الى مساحة قولية كقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ [1].

فقد فصل بين اسم (إن) وهو (الذين يكفرون بآيات الله ورسله) وخبرها (اولئك هم الكافرون حقا) بجمل كثيرة معطوفة أتاحت مساحة أكبر لبسط المعنى المراد في الآية الكريمة فقد ترك تنويع صلة الموصول بذكر صفات الكافرين تشويقا لمعرفة خبر (إن) .

وجاء قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ على وجه التأكيد، «لئلا يتوهم متوهم أن قولهم (نؤمن ببعض) يخرجهم من جنس الكفار ويلحقهم بالمؤمنين» [2].

وتقفى الإمام عليه السلام مثل هذا الاسلوب، فجاءت بعض جمله طويلة مبنية على هذا البناء، مثل قوله من كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعيّ و هو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدوّ طالبا للغارة:

١- النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

٢- الطبرسي، مجمع البيان: ٣/ ١٣٢.

«... وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ ـ لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا ـ لَرَأْيٌ شَعَاعٌ»[1].

ويبدو ان لإعمال المصادر أثره البين في مساحة القول ومده مثل (تعاطيك، تعطيلك) فضلا عن الجملة المعترضة (ليس بها من يمنعها) معطوفة بقوله: (ولا يرد الجيش عنها).

وقول الإمامعليه السلام هذا تفصيل لإجمال ورد قبل كلامه في صدر كتابه على سبيل التوبيخ وهو قوله: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ»[2].

وفي مقال آخر من وصية لولده الإمام الحسن عليه السلام، يقول:

«غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَّقَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي»[3].

والإمامعليه السلام يريد القول: أن همي بنفسي يقتضي اهتمامي بك لانك بعضي بل كلي فإن كان اهتمامي بنفسي يصرفني عن غيري لم تكن انت داخلا في جملة من يصرفني همي بنفسي عنهم لانك لست غيري. وقد كان للتعاطف والجملة المعترضة (فصدقني رأيي...) سبب مباشر في مد الجملة وتأخر خبر (إن) الجملة الفعلية (وجدتك).

ويجدر ذكره ان الجملة الطويلة بـ(إن) واسمها وخبرها تقصر في الخطب دون الرسائل. قال عليه السلام من خطبة له: «أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا،

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٥ .

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٢٧٥.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ١٨٠ .

وَتَرْغَبُونَ فِيهَا وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ»[1].

وفي شكل أقصر قوله عليه السلام: «وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ، اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ»[2].

وقوله عليه السلام: «إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ»[3].

وكان هذا الإقتفاء في هذا المجال إمتدادا لثقافة قرآنية متأصلة، جعلت الإمام عليه السلام ينحو منحاه، ويتبع خطاه .

٣ـ جملة النداء:

وللنداء أثره في مد الجملة في الاسلوب القراني الذي تأثره الإمام فتقفاه. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[4].

وجاء النداء متكررا ليمتد به القول حتى يكون جوابه جملا من الدعاء المباشر. وهذه الطريقة في البناء تستدعي التنويع في جواب النداء .

ومثل هذا الاسلوب جاء على لسان أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء لما عزم على القتال بصفين: «اللهمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤١١.

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٣٨.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٥٢.

٤- آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤.

سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ، وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمِمَّا لَا يُرَى، وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ»[1].

فالتنوع في النداء مد في الكلام الى مساحة قولية مهدت لان يكون الشرط جوابا للنداء، بعد استدراج كثير من الحقائق، واستقراء جملة من الوقائع، ومن ثم يأتي الجواب مطبقا للمفصل. فواضحة المسافة الممتدة بين النداء (اللهم رب) وبين جوابه بأسلوب الشرط (إن أظهرتنا .. فجنبنا) .

وقال الإمام عليه السلام لائما أصحابه: «أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْه»[2].

فأطال الإمام عليه السلام في ندائه بجمل معطوفة تنبيها لأصحابه بذكر معايبهم لينفر عقولهم عنها لذلك وصفهم بشهادة الابدان مع غيبة العقول[3].

وقوله: (القلوب المشتتة) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[4].

٤ـ جملة القسم:

يؤتى بالقسم في العربية لغرض توكيد الكلام وتقويته، وهو في الموروث

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠٦ .

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣٠٤.

٣- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٥٦.

٤- الحشر: ١٤.

الشعري الجاهلي يكاد يكون نادرا[1] بينما هو في التعبير القرآني سمة أسلوبية ظاهرة وفريدة لم تعرفها العربية من قبل فقد أقسم القرآن بالحيوان والظواهر الطبيعية المختلفة.

والقسم أحد وسائل مد الجمل القصيرة الى جمل طويلة، فما بين المقسم به وجوابه ثمة جمل قصيرة، نحو قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2].

تأخر جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ بعد سبع آيات مما يعطي قدرة كبيرة على التأثير في المتلقي.

ويتضح جمال الاسلوب القرآني في كونه يوحي بزيادة في الشوق والانتظار، ويدفع بطبيعته إلى تطلع النفس لمعرفة المقسم عليه «فان القرآن لا يلجأ إلى القسم إلا في الامور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد واثبات فقد يطيل القسم ويطيل معه الشوق»[3].

لذلك يكثر هذا الاسلوب في خطب الإمام عليه السلام أكثر من رسائله لان لحظات القسم تستدعي المزيد من انشداد المسامع اليه فتستغل لبسط مزيد من المعاني عبر أساليب متنوعة من الجمل القصيرة .

قال الإمام عليه السلام في خطبته الشقشقية: «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ، أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ

١- ظ. حاكم حبيب الكريطي، القسم في الشعر الجاهلي، مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد الثاني ٢٠٠٦م : ٥٣ ـ ٥٤.

٢- الشمس: ١ ـ ١٠.

٣- بدوي طبانة، بلاغة القرآن: ٢٤٠.

آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1].

فقد جعل جواب القسم بكامل جملة (لولا)، وفلق الحبة أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾[2].

والمقارة الموادعة والمسالمة .وكظة الظالم إشارة الى ظلم الظالم[3].

ويقول عليه السلام في مثل آخر: «وَبِالله لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا، مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ، أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَام»[4].

فقد تنوعت الاساليب في هذا البناء في جملة (لو) التي اكتنفت جملا اعتراضية ألقت مزيدا من بسط المعاني. وجواب القسم هو تمام المعنى في جواب (لو) .

أما قوله (من رغبة اليه او رهبة منه) وقوله (ما الدنيا باقية) فهي جمل اعتراضية.

ونستخلص مما سبق أن الإمام علياً عليه السلام تأثر بالتعبير القرآني فاستقى من ألفاظه وأجرى عليه أسلوبه.

* * *

1- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٤ .

2- الأنعام: ٩٥.

3- ظ . ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٩٦.

4- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١١٦ .

الفصل الثاني
الأداء البيـــــاني

أولاً: الاستعمال المجازي:

توطئة: التعريف بالمجاز والمجاز القراني:

يعد المجاز مظهرا من مظاهر الرقي في اللغات الحية، وهو يؤشر مديات التطور فيها، لأن تطور الفكر عند الإنسان هو الذي ألجأه الى البحث عن وسيلة يؤدي بها عن هذه المعاني الجديدة التي اعتملت في نفسه.

ولما كانت المفردات ثابتة في موروثات اللغة ولا يمكن استحداث ألفاظ لتأدية معان استجدت في ذهن الإنسان [1]، كان لابد من نقل ألفاظه القديمة الموروثة والتجوز بها وفق نظام من العلاقات بين المعنى الأصلي الحقيقي للفظة والمعنى الجديد، والمسافة التي تقطعها اللفظة في هذا النقل يسمى مجازا .

لذا فالمجاز في اللغة هو اسم للمكان الذي يجاز فيه يقول ابن منظور (ت٩١١هـ): «جزت الطريق وجاز الموضع جوازا ومجازا وأجازه وأجاز غيره وجازه: سار فيه وسلكه وجاوزت الموضع جوازا بمعنى جزته والمجاز والمجازة: الموضع»[2] .

١- ظ. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية: ٧٦ ـ ٧٨ .

٢- ابن منظور، لسان العرب: جوز.

وأخذ هذا المعنى للإشارة الى الحركة الانتقالية لدلالات الألفاظ، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ): «وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز»[1].

و(الملاحظة) التي يشير اليها عبد القاهر الجرجاني هي التي تنظم العلاقات الدلالية بين الألفاظ المنتقل بها الى المجاز.

وكثر الاستعمال المجازي في التعبير القراني نظرا للأفكار الجديدة التي جاء بها الدين الإسلامي الجديد كمبدأ التوحيد الالهي والذات المقدسة ومعاني المعاد والثواب والعقاب وما يترتب عليها من جنة أو نار، ولأن صنوف المجاز تكثر في تلقين الحقائق الخالصة[2].

ويعد المجاز في القران شطر الحسن منه كما يقول الزركشي (ت٧٤٩هـ)[3].

أنواع المجاز القرآني في نهج البلاغة:

في نهج البلاغة استعمال واسع لأساليب المجاز نجده في شطر واسع منه صدى للمجاز القراني وقد حرص الإمامعليه السلام في بعض منه على اقتباسه وتوظيفه وفي بعضه الآخر على التوسع في نقله واستعماله.

والمجاز نوعان: لغوي وعقلي وكلاهما جاء في التعبير القرآني وتقفاه الإمامعليه السلام في استعماله .

١ ـ المجاز في المفرد (المرسل):

حدد البلاغيون طبيعة العلاقة بين دلالات الألفاظ المنقولة عن معانيها

١- الجرجاني، أسرار البلاغة: ٢٨١.

٢- ظ. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث: ٢٣٦.

٣- الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٥٦.

الأصلية فإذا كانت قائمة على أساس المشابهة فهي مجاز لغوي استعاري وإن لم تكن تفيد المشابهة فهي مجاز لغوي في المفرد [1]. ويسميه الزركشي(ت٧٩٤هـ) المجاز الإفرادي ووصف كثرة استعمالاته في القران الكريم بقوله «يعجز العد عن إحصائها»[2]، ولم يكن مبالغا.

والسكاكي (ت٦٢٦هـ) أطلق عليه اسم المجاز المرسل[3] لإرساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة بل ردد بين علاقات بخلاف المجاز الإستعاري فإنه بعلاقة واحدة وهي المشابهة[4].

ويبدو أن الانتقال في المجاز المرسل من المعاني الاصلية للفظة الى المعاني الجديدة يتم على وفق نظام منطقي يحدد المسارات الدلالية للألفاظ إذ بعثته الفطرة السليمة الأولى لمستعمل اللغة.

وفي هذا النظام لابد من وجود دالة اصطلح على تسميتها البلاغيون (قرينة) توجه الذهن الى المعنى الجديد للفظة في اللحظة التي تصرفه عن المعنى القديم .

لذا فالانتقال من المعنى الاول للفظة الى المعنى الثاني يسير وفق علاقات حصرها البلاغيون بوجوه محددة [5].

والذي يهمنا من ذلك ليس تعداد هذه العلاقات وإنما تبيان الأثر المجازي القراني منها في كلام الإمام علي(عليه السلام) . ومن آثار ما جاء من المجاز المرسل القرآني في نهج البلاغة ما يأتي:

١- ظ. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٥٠ ـ ٥١.

٢- الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٦٥.

٣- ظ . السكاكي، مفتاح العلوم: ١٩٥.

٤- ظ. عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: ٣٧٦. محمدحسين الصغير، أصول البيان العربي: ٥٠.

٥- ظ. الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٥٦ وما بعدها. أحمد مطلوب، البلاغة العربية: ٢٠٣.

السببية:

وهي اطلاق لفظ السبب وإرادة المسبب، كإطلاق لفظ اليد في معـاني النعمـة أو القدرة والقوة، مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [1] .

والمراد قدرته لأن اليد سبب فيها فذكرت الآية الكريمة الـسبب وعـدلت عـن الاثر المسبب عنها .

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [2] .

واليد هنا تعني القوة والقدرة لأنها سبب فيها [3].

وقد أخذ الإمامعليه السلام بهذه الاستعمالات لكلمة اليد فقال:

«وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ الله عَلَى الْجَمَاعَةِ»[4] .

فتجوز بلفظ اليد في قدرة الله وحراسته للجماعة ورغب في لزوم طريقة أكثر المسلمين المتفقين على راي واحد بأن يد الله على الجماعة [5].

وفي موضع آخر قال الإمامعليه السلام :

«لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ، حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ الله، أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَـا فِـي يَـدِه»[6]، واليد تعني هنا التملك والتصرف لأنها سبب فيه كونـهـاالقابضة.

ومن إطلاق اسم السبب على المسبب قول الإمامعليه السلام :

١- الفتح : ١٠.

٢- الذاريات: ٤٧.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٢٠ .

٤- الإمام عليعليه السلام ، نهج البلاغة: ٨/ ١٢٣.

٥- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٣٤.

٦- الإمام عليعليه السلام ، نهج البلاغة: ١٩/ ٢١٦. ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٩٨.

«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ»[1] .

فهذا تجوز بلفظ السمع في إقبال القلوب على ما ينبغي أن يسمع من أوامر الله ونواهيه«لأن قبول الشيء مرتب على سماعه ومسبب عنه»[2] .

وهو من أثر قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [3] .

أي ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به ونسبة إسناد كل ذلك الى القلوب من باب المجاز العقلي، وتجوز بلفظ البصر في إدراك القلوب للحقائق ولفظ العشوة لعدم ذلك الإدراك [4].

المسببية:

أي ذكر المسبب وإرادة السبب، مثل قوله تعالى:

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [5]، فهم لم يدعوه الى النار، إنما دعوه الى الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿تدعونني لأكفر بالله﴾ [6]، لكن لما كانت النار مسببة عنه أطلقها عليه [7] .

وجعل الايمان بما جاء من عند الله سببا للنجاة وجعل إعراضهم عنه

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١١/ ١٧٧.

٢- البرهان: ٢/ ٢٥٦.

٣- هود: ٢٠.

٤- ظ. ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧٥.

٥- غافر: ٤١.

٦- السورة نفسها والآية .

٧- الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٥٩ . ظ.الطبرسي، مجمع البيان: ٨/ ٤٤٤.

ودعوتهم إياه للشرك سببا الى النار وعدل عن ذكر الاسباب وأطلق المسببات عنهما عليها.

ومثل هذا جاء في قول الإمامعليه السلام يصف الدين الاسلامي:

«.. فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ ... وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّق »[1]، لأن الدخول في الإسلام سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

وفي موضع آخر قال الإمامعليه السلام يحض أصحابه على القتال:

«قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّم»[2]، فأطلق لفظ النجاة على الداخل في الجهاد والمقدم عليه لأنه ينجيه من العار في الدنيا ومن النار في الآخرة وأطلق لفظ الهلاك على المتوقف عن القتال المتثبط فيه لأنها نتيجة عنه[3].

وقد يريد أن النجاة من سيف الأعداء للمطرق المقدم لأنه مع إقدامه وتجلده يرتاع له خصمه، والهلاك بسيف الأعداء للمتثبط المتلوم .

وفي مثل آخر، قال عليه السلام في صفة خلق الخفاش:

«فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَارا»[4]، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[6].

ويبدو أن هذا التبادل الدلالي بين السبب والمسبب يؤشر مدى تماسك السبب

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٧/ ١٧١.

٢- المصدر نفسه: ٧/ ٣٥٤.

٣- ظ. حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ٨/ ١٥٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٩/ ١٨٣.

٥- الأنعام: ٩٦.

٦- النبأ: ١١.

والنتيجة يقول الزمخشري «وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما والتصاقهما»[1] .

وقد ينوب أحدهما عن الآخر في الاستعمال، فيكون مجازا .

المحلية:

أي إطلاق لفظ المحل وإرادة الحال، نحو قوله تعالى:

﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ﴾[2]، فمقامي يريد به مكاني «كما تقول فعلت كذا وكذا لمكان فلان»[3].

ومثله قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾[4]. بمعنى خاف ربه.

وأخذ الإمام عليه السلام بهذا الاستعمال فقال يصف علاقة المؤمنين بالله:

«وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَه»[5]، ومقام الله «كناية عن عظمته وجلالته المستلزمة للهيبة والخوف»[6].

ونحو هذا قول الإمام عليه السلام في رضا الله عن المتقين: «فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ وَحَمِدَ مَقَامَهُم»[7].

١- الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢٤٩ .

٢- يونس: ٧١.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٨١.

٤- ابراهيم: ١٤.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٤٢.

٦- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧٥.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٤٢.

الآلية:

وذلك بأن يطلق اسم الآلة ويراد به الأثر الذي ينتج عنها، نحو قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1]، أي ذكرا حسنا، أطلق اللسان «وعبر به عن الذكر لأن اللسان آلة الذكر»[2].

واستعمل الإمام عليه السلام هذا المجاز فقال محبذا في البذل والإنفاق:

«وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ»[3].

ولسان الصدق هو الذكر الحسن بين الناس وهو من غايات البذل بينما غاية جمع المال توريثه للغير«وتوقع الذكر الجميل من الناس أدعى الى البذل وذلك من الاستدراجات الحسنة»[4].

ومعلوم أن الإمام عليه السلام لايريد باللسان الجارحة كما لا تريد الآية ذلك بل المراد الكلام الذي آلته اللسان .

وتوسع الإمام عليه السلام في استعمالات اللسان المجازية فقال في وصف النبي صلى الله عليه وآله: «كَلَامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَان»[5] .

ويعني به الكلام الصادر عن هذه الجارحة. وكلام الرسول صلى الله عليه وآله بيان لأنه يخرج الشيء من حيز الخفاء الى حيز الوضوح فصمته صلى الله عليه وآله ينبيء عن كلمة كامنة كأنها

١- الشعراء: ٨٤.

٢- الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٨٣.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٢٦.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٥.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢١٥ .

لسان ناطق .

وقال عليه السلام : «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِه»[1] .

وفي موضع آخر قال: «قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ، وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِه»[2]، وقد علق عليها جامع النهج الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) بقوله:

«وهذا من المعاني العجيبة الشريفة والمراد أن العاقل لا يطلق لسانه الا بعد مشاورة الروية ومؤامرة الفكرة والأحمق تسبق حذفات لسانه كلامه مراجعة فكره ومماخضة رايه فكان لسان العاقل تابع لقلبه وكان قلب الأحمق تابع للسانه»[3].

ومن هذا المجاز قوله تعالى في سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [4] ،أي «بحفظنا وحراستنا وبمرأى منا»[5]، لأن العين آلة الرؤية وبالنسبة الى الله كلها مجاز توحي بشدة العناية .

وفي هذا الاستعمال جاء قول الإمام عليه السلام موصيا:

«فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِه»[6]، فلفظ العين مجاز في العلم بعد الرؤية ويجوز أن تأتي مجازا من باب إطلاق السبب على المسبب[7].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣١٦.

٢- المصدر نفسه والصحيفة.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٥٩.

٤- القمر: ١٤ .

٥- الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ٣٠٧. ظ.الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٨٣.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٨.

٧- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة : ٢/ ٤٥٢.

الجزئية:

أي أن يطلق لفظ الجزء ويراد به الكل، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ﴾[1]، ونحو قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[2].

أي هي في قبضته وتنالها قدرته، والمعنى أن «مامن حيوان يدب على وجه الارض الا وهو مالك له يصرفها كيف يشاء وجعل الأخذ بالناصية كناية عن القهر والقدرة لأن من أخذ ناصية غيره فقد قهره وأذله»[3].

وقد أخذ الإمام عليه السلام بهذا المعنى فقال من دعاء له: «بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّة»[4].

أي في ملكك وتحت تصريف قدرتك «وإنما خصت الناصية لحكم الوهم بأنه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية ولأنها أشرف ما في الدابة فسلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة»[5].

واليد مجاز من القدرة بعلاقة السببية وهي منقولة من قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[6].

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفّين: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ الله عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله...»[7]، فقوله: (وجه الله) تجوز والمراد به ذاته .

١- العلق: ١٥.

٢- هود: ٥٦.

٣- الطبرسي، مجمع البيان: ٥/ ٢٥٠. وينظر : النحاس، معاني القران: ٣/ ٣٩٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٤٧.

٥- ابن ميثم البحراني، شرح البحراني: ٢/ ٥٦.

٦- الملك: ١.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٦٥.

وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2]، أي ذاته.

ولما كان الوجه هو أشرف أجزاء البدن للدلالة عليه، فقد أطلق مجازا على الذات القدسية جريا على عادة العرب في الاستعمال .

الملزومية:

وهي إطلاق اسم الملزوم وإرادة اللازم، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [3] .

فأطلق اسم الفطرة على الدين مجازا لأن الفطرة لو خليت وذاتها، فإنها تأخذ بالدين وتلازمه، لأن ذلك من طبيعة الأشياء التلقائية.

وقد أخذ الإمام عليه السلام هذا فقال:

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ، إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ... وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ»[4] .

فجاء إطلاق لفظ الفطرة على كلمة التوحيد مجازا لاسم الملزوم على لازمه[5]، وهو أمر شائع الاستعمال في لغة العرب .

الحالية:

وهي إطلاق لفظ الحال وإرادة المحل، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

١- البقرة: ٢٧٢.

٢- الرحمن: ٢٧، وينظر في تفسيرها: الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٥٩.

٣- الروم: ٣٠.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٥.

٥- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٧٤.

نَعِيمٍ﴾[1] .

فالنعيم ليس مكانا يحل فيه لأنه معنى ذهني وإنما أريد به المكان الذي يحل فيه النعيم وهو الجنة [2] .

وعلى هذا المجاز جاء قول الإمام علي عليه السلام في رسالة الى عامله يحذره:

«أ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ الله أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ، أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟»[3] .

والتمرغ هو التمعك والتقلب في النعيم[4]، واستفهام الإمام عليه السلام على سبيل الإنكار لهذا العمل[5].

وقوله: (في النعيم) منقول من الأثر القراني كما هو بين والمرء لا يتمرغ في النعيم وإنما في مكان فيه النعيم فأطلق الحال وأريد المحل .

وخلاصة الأمر إن المجاز الإفرادي المرسل من أكثر أنواع المجازات القرآنية ورودا في تعبيراته، وقد وقعت صياغات الإمام عليه السلام بنفس أساليب التعبير القرآني مقتبسا المضمون ومقتفيا الصياغة، ولا يعني ذكر أنواع المجاز المرسل أن الإمام عليه السلام قصدها لذاتها، فهي لم تكن موجودة أصلا زمن الإمام عليه السلام، وإنما استوجب ذكرها تفصيلا في دراستها وتبيانا لأثر المجاز القرآني في كلامه عليه السلام .

١- المطففين: ٢٢.

٢- ظ. الطبري، جامع البيان : ٣٠/ ١٣٠.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ١٥٧.

٤- ظ. ابن منظور، لسان العرب: مرغ. الزمخشري، أساس البلاغة: مرغ.

٥- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٤٥١.

٢ ـ المجاز في التركيب (العقلي):

وهو الذي يستفاد تجوزه من طريق التركيب أو الاسناد. ويعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) الجلي والمبتكر لهذا النوع من المجاز، وهو عنده «كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والإتساع في طرق البيان»[١]، ويسميه المجاز الحكمي لانه توصف به الجمل في التاليف والاسناد، وقد يسميه المجاز العقلي لأنه يتوصل الى فهمه بطريق العقل وقد يطلق عليه المجاز الاسنادي او الاسناد المجازي، لأنه إنما يفهم في التركيب لا في الكلمة [٢].

جاء هذا التفصيل من عبد القاهر الجرجاني في هذا الضرب من المجاز الفرعي في وقت لم يستقر مصطلح المجاز الرئيسي ذاته على رؤية محددة عند البلاغيين أنفسهم [٣].

وعرفه الزركشي(ت٧٩٤هـ) بقوله: «وهو أن تستند الكلمة الى غير ما هي له أصالة بضرب من التأويل»[٤].

وفي المجاز العقلي تفخيم للمعنى وتأثير أكبر مما هي عليه في الحقيقة[٥]. فالانتقال الدلالي حاصل بالفعل ولكنه هذه المرة يتأتى من طريق أشمل يكتنف المعنى الكلي للجملة بحيث يتجوز به وكأن الجملة بذلك تعامل كمفرد،

١- الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٢٩٥ . وينظر: أسرار البلاغة: ٣٣٨، ٢٢٧.

٢- ظ. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٤٤.

٣- ظ. البلاغة العربية، أحمد مطلوب: ١٩٨ ـ ١٩٩.

٤- الزركشي، البرهان: ٢/ ٢٣١.

٥- ظ. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٢٩٤ ـ ٢٩٥، ٣٠٠ ـ ٣٠٣. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ١٥١ ـ ١٥٢.

«فالألفاظ لم تنقل عن أصلها اللغوي فدلالتها على ذاتها بذاتها والكلمات لم تجتز وضعها في الاصل الى مقارب له او مشابه، وإنما يستشعر بهذا المجاز عن طريق التركيب في العبارة والاسناد في الجملة فهو مستنبط من هيأة الجملة العامة ومستخرج من تركيب الكلام التفصيلي دون النظر في لفظ معين او صيغة منفردة»[1].

ويبدو أن الذي أتاح لعبد القاهر الجرجاني امكانية ابتكار المجاز الحكمي العقلي هو كثرة ما اشتملت عليه الآيات القرانية فضلا عن الاعتقاد الاعتزالي الذي يراه الجرجاني والذي يعلي من شان العقل كثيرا .

ولا مبالغة في القول إن كثيرا من هذه التعبيرات القرانية القائمة على أسلوب المجاز العقلي قد انسربت الى كلام الإمام علي عليه السلام وهو الناظر المتدبر لآيات القران الكريم فكان أن استعملها كثيرا في خطبه ورسائله وحكمه لاندماجه في التعبير القرآني جملة وتفصيلا .

ومثلما كان للمجاز الافرادي المرسل علاقات تسير بمقتضاها الانتقالات الدلالية بين المعنى الاول والمعنى الثاني للفظة المتجوز بها فإن للمجاز العقلي مسارات معينة قائمة على أساس العقل والمنطق توجه الانتقال الدلالي في الجملة وتصرف الذهن الى المعنى الجديد بالقرينة التي يكتنفها التركيب لفظا او حالا[2].

ويمكن تلمس أثر التعبير القراني في نهج البلاغة من خلال بعض وجوه المجاز العقلي التي حددها البلاغيون بالأمثلة التي تبين الأثر الفعلي للمجاز القراني في نهج البلاغة وليس الغرض تعداد وجوه المجاز العقلي وحصرها:

١- محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٤٤.

٢- الجرجاني، أسرار البلاغة : ٣٦٠.

الزمانية:

أي بناء الكلام للفاعل واسناده الى الزمان، كقول الإمام علي عليه السلام من خطبة في التوحيد: «وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ... فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ»[1].

وفي تعبير آخر قال الإمام عليه السلام: «فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ»[2].

ولاريب إن ذلك أخذه من قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [3].

فمعنى(سجى) السكون، والليل لايسكن «لأنه غير قابل للحركات المباشرة التي قد توصف بالهدوء حينا وبالفاعلية حينا آخر وانما المراد به سكون الناس فيه عن الحركات»[4].

والتعبير يوحي بشدة الهدوء والسكينة بحيث تطلق على الليل نفسه لأنه زمنه.

وفي موضع آخر قال الإمام عليه السلام:

«وَايْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ»[5].

كنى بذلك (عن ظهور المسودة وانتقامها من اهل الشام وبني امية وكانت المسودة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية)[6] ،وإسناد الشر لليوم مجاز علاقته الزمانية.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٨٥.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٢٩.

٣- الضحى: ٢.

٤- محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٤٩.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٣٩.

٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٧٨.

وفي قول الامام عليه السلام تحذير لهم وانذار بما سيكون من بني امية من جمع الناس في بلائهم، ونسب التفريق اليهم والجمع الى الله تقريرا لما سينزل به قدره من ابتلاء الخلق بهم «فانهم لو فرقوهم في اطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر الله لهم»[1].

المكانية:

أي بناء الكلام للفاعل وإسناده الى المكان، نحو قول الإمام عليه السلام:

«وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَار»[2].

والدار لا ينطبق عليها صفة الشر لأن الشر من صفات الأحياء وانما المراد من يسكن الدار وفي ذلك شدة مبالغة في تصور شر النزول في تلك الدار وهي جهنم والعياذ بالله.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [3] فإثبات الشر للمكان مجاز عقلي لأن الشر معنى لا مكان له سوى في العقول، ومثل ذلك قوله عليه السلام:

«إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ص نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَار»[4].

واراد بشر الدار نجد والحجاز واليمامة وشرها في فساد احوال الناس فيها فهم «في بلاد لا نبات فيها ولا فاكهة ولا طعام ولا لباس»[5].

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٥٢.

٣- المائدة: ٦٠.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٧٣.

٥- حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ١/ ١١٥.

وفي موضع اخر قال الإمام عليه السلام متحدثا عن الفتنة:

«فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا ... فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ»[1] .

وخير الدار يعني بها مكة وشر الجيران يقصد قريشا. واشار بتيههم الى ضلالهم عن القصد في ظلمات الفتن[2].

وقال عليه السلام في وصف الانبياء: «فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ»[3]، وخير مستقر يعني به الجنة، «محل كرامته في مقعد صدق عند مليك مقتدر»[4].

ومن المجاز المكاني قول الإمام عليه السلام في صفة المتقين: «إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ، حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُم»[5]، والحقيقة أن الذي يهمل هو الدمع لا العيون، لأن الأخيرة مكان الدموع، وهي من قوله تعالى: ﴿تولَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾[6].

فأسند الفيض للدمع وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض[7].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٦.

٢- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٤٤.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢١٢.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٦.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢١٨.

٦- التوبة: ٩٣.

٧- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٣٦.

السببية:

فيما بني فيه الكلام للفاعل وأسند للسبب ،مثل قول الإمام عليه السلام يصف المتقين:

«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ»[1]، والتجارة معنى ذهني وليس من شأنها الربح وإنما الذي يربح هو التاجر فقد أسند الربح للتجارة لأنها سبب فيه .

ولفظ التجارة استعير لاكتسابهم الراحة في مقابل الصبر ورشح بلفظ الربح وكونها مربحة باعتبار قصر المدة على المكاره وطول مدة الراحة [2].

وقد جاء طرفا الجملة المسند والمسند اليه مجازيين.

ولا ريب في أن هذا من قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[3].

فالربح هنا معنى مجازي لا يراد به الزيادة على راس المال في بيع البضاعة والتجارة هنا مجازية فلا يراد بها المعاملات السوقية وانما المراد بالربح تحقيق المعنى المجازي منه بالفائدة وعدم خسران الاعمار والمراد بالتجارة المعنى المجازي منها بالاثابة وصالح الاعمال[4].

ويبدو من الأمثلة السابقة أن للتعبير القرآني المجازي أثره المباشر في كلام الإمام علي عليه السلام ، وأقول مباشر لأنه اقتبس المضمون من صياغات الصورة القرآنية، لذا انحصر ذكر الشواهد على الدليل العملي في انسراب الأثر

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٣.

٢- ظ. حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ١٢/ ١٢٢.

٣- البقرة: ١٦.

٤- ظ. محمد حسين الصغير، مجاز القران: ١٢٤.

المجازي القرآني الى كلام أمير المؤمنين عليه السلام دون إحصاء وجوه وعلاقات المجاز العقلي.

ولا يعني ذلك خلو كلام الإمام عليه السلام من باقي الوجوه المجازية، بل المراد توخي القناعة في التلمس الفعلي لظاهرة المجاز القرآني في نهج البلاغة، وكيف يستقيم ذلك ونحن قررنا من أول البحث أن الإمام عليه السلام تقفى الأسلوب القرآني في قدرته على استغلال كل ما تهبه اللغة من طاقات بشرط معرفة التأتي إليها ؟!.

فقد جاء قوله عليه السلام من المجاز العقلي يصف المؤمن: «بَعِيدٌ هَمُّه»[1]، وقوله عليه السلام فيه: «بَعيداً فُحْشُه»[2]، وقوله عليه السلام يذكر إبليس:

«وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيد»[3] .

وكل هذه المعاني (الهم، الفحش، الغيب) لا تنطبق عليها صفة البعد لأنها معان موهومة يعني بها الإمام عليه السلام المبالغة بحكم استفادة المباينة من لفظة البعد. وكل ذلك الاستعمال مستقى من الأسلوب القرآني في استعمال مفردة (بعيد) بخاصة في إيقاعها وصفا (للضلالة)، نحو قوله تعالى:

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[4] .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[5] .

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[6] .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٨٣.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٦.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٩١. وينظر : حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ١١/ ٢٨٦.

٤- النساء: ٦٠.

٥- النساء: ١١٦.

٦- إبراهيم: ٣.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [1] .

ففي كل ذلك إسناد ما في معنى الفعل الى ما يتصل به بواسطة فالبعد في حقيقة الأمر للضال وليس للضلال [2]، لأن البعد اصلا للضال فهو الذي يتباعد عن الطريق وعن الحق فوصف به فعله[3] .

وهذا هو المجاز العقلي بعينه .

ثانياً: البعد التشبيهي:

التعريف بالتشبيه عند البلاغيين:

اتفق البلاغيون على حد التشبيه في انه التقاء طرفين في صفة يشتركان بها على أساس من المقارنة [4].

ويختصر حده القزويني (ت٧٣٩هـ) فيقول: «مشاركة أمر لآخر في معنى»[5] .

أما طبيعة هذه المشاركة فقد احترز منها من قبل ابن رشيق(ت٤٥٦هـ) في قوله يعرف التشبيه: «وصف الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة لامن جميع جهاته»[6]، وكأن ابن رشيق يحرص على عدم المطابقة بين الشيئين في عقد الصورة التشبيهية لأن الفن في الاحساس بالاشياء يتم بالتشكيل والتركيب والتفاعل لا

١- الحج: ١٢.

٢- ظ. الزمخشري، الكشاف : ١/ ٢٥٢.

٣- البروسي، روح البيان: ٨/ ٣٠٣

٤- ظ. الجاحظ، الحيوان : ٤/ ٣٧٣. الرماني، النكت في اعجاز القران: ٧٤. ابو هلال العسكري، الصناعتين: ٢٤٥. السكاكي، مفتاح العلوم: ٣٣٢.

٥- الخطيب القزويني، الايضاح: ٢١.

٦- ابن رشيق، العمدة: ٢/ ٢٩٤.

بالمطابقة وهو «لا يتحقق على مدى تحقق الصفات المشتركة بينها على نحو الحقيقة والواقع»[1].

وقال قدامة(ت٣٣٧هـ): «ويغلب أن يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها وافتراق في اشياء ينفرد كل منهما بصفتها»[2]، فلا يراد من التشبيه نقل الواقع بأمانة لأنه سيبدو حينئذ «مجرد رسم الأشكال والألوان محسوسة كما نراها»[3]، بل ان روعة التشبيه تكمن في انزياحاته عن لغة الحقيقة الى لغة المجاز ولو بنسبة ادنى من اللغة الاستعارية التي تذوب فيها الصورة التشبيهية كما سيمر.

والتشبيه ركن اساسي من اركان البيان العربي «فقد فتن العرب بالتشبيه منذ القدم وغالى نقادهم في الإعجاب بمكانته»[4] .

إذن ما الجديد الذي جاء به التشبيه القرآني ؟

لاشك ان اكثر ما يلفت الانتباه في التشبيهات هي القدرة على ايجاد ائتلافات بين طرفين يبدوان جد متباعدين اما لأنهما متنافران بالفعل، والإبداع يكون في إيجاد نقاط التقاء بين المتنافرات، أو لأننا اعتدنا صور الأشياء وألفناها بهذا الثبات فيأتي من يحرك هذا الثابت في أنظارنا فيؤلف بين المتباعدات من خلال ما يزيد وينقص منها «فحسن التشبيه أن يقرب البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك»[5]، حتى لو كان بينهما ما يبدو للرائي انه تنافر.

١- مجيد ناجي، الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٩٦.

٢- قدامة بن جعفر، نقد الشعر: ٦٥.

٣- العقاد، الديوان في النقد والأدب: ١/ ١٦.

٤- مصطفى ناصف، الصورة الأدبية: ٤٠.

٥- ابن رشيق، العمدة: ١/ ٢٥٩.

قال عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ): «إن لتصوير الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله والتقاط ذلك له من غير محلته واجتلابه اليه من النيق البعيد بابا آخر من الظرف واللطف ومذهبا من مذاهب الاحسان لا يخفى موضعه من العقل»[١].

وبهذا النحو ستبدو الصورة التشبيهية في غاية الاثارة والاستغراب والتعجب المؤثر في النفس فـ«تغير الأحوال وتجددها لذيذ لما يستحدث معه من الاحساس بها»[٢]، لذلك فالمشبه الذي يأتي بربط غير متوقع بين طرفي التشبيه تكون تشبيهه «دائما شيئا جديدا يحمل الإثارة»[٣].

وتلك هي مهمة الابداع معرفة غير المعروف لا المزيد من معرفة المعروف.

وعندها سيكون التشبيه نقلا حقيقيا للشعور وليس مجرد حلية شكلية طارئة وستغدو الصورة التشبيهية ممتزجة في سياق النص ولا يمكن الاستغناء عنها لانها ستمس جوهر الفكرة ذاتها[٤]، وعندها يمكن ان نعيد ما قرره ابن الاثير (ت٦٣٧هـ) في أن التشبيه «يجمع صفات ثلاثة هي المبالغة والبيان والايجاز»[٥]، فهو قادر على أن «ينقل اللفظ من صورة الى صورة اخرى على النحو الذي يريده المصور فان أراد صورة متناهية في الجمال والأناقة شبه الشيء بما هو ارجح منه حسنا وان اراد صورة متداعية في القبح والتفاهة شبه الشيء بما هو أردأ منه صفة»[٦].

١- الجرجاني، اسرار البلاغة: ١١٦. وينظر: الرازي، نهاية الايجاز: ٧٦. القرطاجني، منهاج البلغاء: ٤٦.

٢- ابن سينا، الشفاء، الخطابة : ١٠٣.

٣- عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للادب: ٦٦.

٤- ظ. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث: ٤٤٥.

٥- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٩٤.

٦- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القراني: ١٦٧.

وتاسيسا على ما سبق يمكن القول بدءا ان اسلوب التشبيه القراني جاء في غاية الفرادة في طريقة حشده لعناصر تتسابق غرابة ائتلافها مع جدة عرضها.

وسنحاول دراسة هذا الاسلوب في التشبيهات التي جاءت على لسان الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة من خلال مظاهر تأثير التشبيه القرآني فيها، وقد أوجزها البحث بثلاثة مظاهر أساسية، يعرض لها تباعا على النحو الآتي:

ظواهر من التأثير القرآني في نهج البلاغة:

١ ـ صيغ المثل القرآني وتأثر نهج البلاغة بصورها:

تشيع في تشبيهات الإمام ظاهرة التشبيه التمثيلي بصيغ معينة تتخذ شكلا محددا نحو: (مثلكم ... كمثل) و(مثل ... كمثل) و(على مثل، في مثل). وما بين طرف المشبه (مثل) وطرف المشبه به (كمثل) تحتشد كثير من عناصر الصورة التي تحيل المستمع الى مشاهد ليحقق بذلك غرضا اساسيا من الاستعمال التشبيهي وهو تجسيد المعنى الموهوم وإخراج الخفي الى جلي وإدناء البعيد الى القريب [١].

ويبدو أن كثيرا من صيغ المثل القرآني قد ضمت الى جانب التشبيه كل أصول البيان العربي «ولم يكن ورودها اعتباطيا بل كان مقصودا اليه بذاته لما يثيره ورود ذلك من انفعالات داخلية في النفس الانسانية فالمثل يهدف الى الغوص في أعماق النفس والدخول في شغاف القلب ليحقق غايته في الهداية والاصلاح»[٢].

ويبدو أن أغلب استعمالات التشبيه التمثيلي في نهج البلاغة بهذه الصيغ جاء في معاني التحذير من الركون الى الدنيا ونسيان الهدف الأسمى من خلق الإنسان وهو الخلود في الظفر برضا الله. يقول الإمام عليه السلام:

١- ظ. الزركشي، البرهان: ٣/ ٤١٥.

٢- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٤٩.

«عِبَادَ الله أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ، لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ... فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ، سَلَكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوه»[1] .

فقد شبه الإمام عليه السلام حال أهل الدنيا بحال الذين يقطعون سفرا قاصدا سرعان ما يبلغونه. ووظف عناصر الانتهاء وسرعة الانقضاء فثمة سبيل مسلوكة ابجاه بقصد الهدف وثمة قوم مسافرون ابجاه بسرعة الانتقال وأقام المضاف اليه (سفر) مقام المضاف المحذوف للمبالغة (قوم) .

وأنزل أهل الدنيا في حال كونهم غير قاطعين للسفر منزلة حال البالغين القاطعين له «لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شبهوا وهم في الحال الأولى»[2]، فكان هذا التشبيه تمثيليا، إذ انتزع من صور متعددة، فهم سفر سلكوا سبيلا، من وجه، وهم قد قطعوا السبيل وقصدوا علما قد بلغوه من وجه آخر.

وأكثر صور المشبه به في تشبيهات اهل الدنيا في كلام الإمام عليه السلام هي صورة (السفر) وهذه الصورة نفسها مستوحاة من المشهد القراني المنطوي على التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[3]، فالمزادة والزاد متاع المسافرين القاصدين جهة معلومة وهو ما تريد رسمه الآية الكريمة وهو تحصيل الأعمال الصالحة للمؤمن «التي تكون له كالزاد الى سفر الآخرة»[4] .

لذا فالإمام عليه السلام كثيرا ما يعبر عن ذلك المعنى بقوله:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٢١.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ٨٢.

٣- البقرة: ١٩٧.

٤- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٢/ ٩٩.

«وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّاد »[1].

وهذا كالأول، فهم أبناء سبيل قد غادروا دارا أمروا فيها بالتزود، فهي ليست دارهم، وهم مرتحلون عنها. وهو مقارب لقوله عليه السلام :

«قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا تَدْرُونَ مَتَى تُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ»[2].

ويبلغ التمثيل بهذا المعنى ذروته الفنية حينما ندرس قوله عليه السلام محذرا:

«إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ، وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيب»[3].

فحال من عرف الدنيا وخبر صروفها فعمل للآخرة كحال من يسافر من منزل جدب الى منزل خصيب لا يهمه ما يلقى من مشقة الطريق فعبر بالمنزل الجديب عن الدنيا وبالمنزل الخصيب عن الآخرة مجازا باعتبار الملازمة لأن من شأن الدنيا الجدب والانقضاء ومن شأن الآخرة الخصب والنماء .

وجاء تعبيره عليه السلام (منزل قرارهم) ايحاء بدوام البقاء بعد الانتقال وهو مأخوذ من قوله تعالى في وصف الآخرة بـ(دارالقرار،دار المقام) نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِي

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٨.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣٦٧.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ١٨٧.

أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ [1]، وقوله تعـالى: ﴿وَإِنَّ الْـآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [2].

بينا جاءت أوصاف الدنيا بما يوحي بما يتداعى في ذهن الإمام عليه السلام من معاني الجدب والانتقال كقوله تعالى في صفة نزل العاصين:

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [3].

وقال الإمام عليه السلام في صفة أخرى للدنيا:

«فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سَمُّهَا» [4].

باعتبار الإغرار منها والاغترار فيها، واستعمال المس للجسم مجاز يـراد بـه أن الإنسان اذا مسها أحس بلين ونعومة، والدنيا ظاهرهـا لـين لذيـذ وباطنهـا خـشن موجب لهلاك الانسان اذا تناول من ملذاتها المحرمة [5].

وأخذ الإمام بالصياغة القرآنية نفسها في ايراد المثل، ولم تفـارق الـصنعة الـتي جاءت عفـو الخـاطر كـلامه عليه السلام في التـجنـيس بين (مسها) و (سمها).

وكل تلك الصياغات مما تشكلت منه كثير من أمثـال القـرآن في صـفة قـصر الدنيا وانتهائها نحو قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّـا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَـتْ وَظَـنَّ أَهْلُهَـا أَنَّهُـمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَـارًا فَجَعَلْنَاهَـا حَـصِيدًا كَـأَنْ لَـمْ تَغْـنَ بِالْـأَمْسِ

١- فاطر: ٣٥.

٢- غافر : ٣٩.

٣- ابراهيم: ٢٨ ـ ٢٩. وينظر في تفسيرها: ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٥/ ٤٢٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩٥.

٥- ظ. حسين الشيرازي، توضيح نهج البلاغة: ٤/ ٢٣٦.

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1].

والتزخرف «عبارة عن كمال حسن الشيء، فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون وتزينت بجميع الألوان» [2].

وكذلك من صرف همه الى الدنيا، تعظم حسرته اذا فاتته لذائذها، فقد شبهت «حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض بعد جفافه وذهابه حطاما بعد أن التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه» [3].

وفي مثل آخر، قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [4].

وتريد الآية الكريمة تحقير الدنيا وتعظيم الآخرة، والمقصود بالحياة الدنيا تلك التي صرفها أهلها الى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى لذلك حشدت كل العناصر التي تشير الى التحقير فهي «أولها لعب وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جدا ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة وثانيها لهو وهو فعل الشبان والغالب ان بعد انقضائه لا يبقى الا الحسرة... وثالثها انها زينة وهذا دأب النساء

١- يونس: ٢٤.

٢- الرازي، التفسير الكبير، ١٧/ ٧٢.

٣- النسفي، تفسير النسفي: ٢/ ١٢٨.

٤- الحديد: ٢٠.

لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح ورابعها تفاخر بينكم بالصفات الفانية... وخامسها تكاثر في الأموال والأولاد»[1].

وقال الإمامعليه السلام يصف نفسه بين قومه:

« إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا»[2].
وتقدير الكلام: «ان الطالبين للهداية منه عليه السلام والمتبعين له يستضيئون بنور علومه وهدايته ال الطريق الأرشد كما يهتدي السالكون في الظلمة بالسراج»[3].

وهو تمثيل يصور انغمار قوم الإمامعليه السلام في الظلمة لولا وجود الإمام فيهم، فهو كالسراج الماحي لظلمة الكون والحياة فضلا عن البشر .

وقد يعمد الإمامعليه السلام في بعض تشبيهاته التمثيلية الى اجتزاء المثل القرآني واختزاله بعد توظيف صورته في موقف فني آخر .

قال الإمامعليه السلام في رأي من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل:

«فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوت لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ»[4]، ووجه هذا التمثيل«ان الشبهات التي تقع على ذهن مثل هذا الموصوف اذا قصد حل قضية مبهمة تكثر فيلبس على ذهنه وجه الحق منها فلا يهتدي له لضعف ذهنه»[5].

فكأن تلك الشبهات في الوها نسج العنكبوت وكأن ذهنه الذباب الواقع فيه ومثلما لا يستطيع الذباب استنقاذ نفسه من شباك العنكبوت كذلك ذهن هذا

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢٩/ ٢٣٢.

٢- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٧٥.

٣- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٨٨.

٤- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٥٥.

٥- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٣١٦.

الرجل اذا وقع في الشبهات لا يهتدي الى وجه الحق ليخلص نفسه مما التبس عليه[1].

وهذا المثل مأخوذ من قوله تعالى في عبادة الأصنام:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]، فموئل من يلتجيء الى عبادة غير الله مثل موئل العنكبوت والتجائه الى بيته«لا يجير آويا ولايريح ثاويا»[3].

وفي الخطبة نفسها يذكر الإمام عليه السلام صفة هذا الرجل المتعالم فيقول:

«يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَشِيم»[4].

ووجه التشبيه التمثيلي هو عدم الانتفاع لأن الريح عندما تذري الهشيم وهو النبت المتكسر المتفتت[5]، تخرجه عن حد الانتفاع به كذلك«المتصفح للروايات لما لم يهتد الى وجه العمل بها ولم يقف على الفائدة منها فهو يقف على رواية أخرى و يمشي عليها من غير فائدة»[6].

وحينما ينظر البحث الى المثل القرآني بقوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[7]، وهو

١- ظ . ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٣١٦.

٢- العنكبوت: ٤١.

٣- الرازي، التفسير الكبير: ٢٥/ ٦٧. ظ.محمدحسين الصغير،الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٧٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٥٥.

٥- ظ. ابن منظور، لسان العرب : هشم. ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢١/ ١٢٩.

٦- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٣١٧.

٧- الكهف: ٤٥.

مثل«يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها»[1]، نجد أن الإمام(عليه السلام) قد صاغه مجتزئا بـه في تمثيل قصر الحياة الدنيا.

ولا شك ان الموقف التمثيلي هنا في الآية يختلف عما وظفه الإمام(عليه السلام) فالمثل في تقريب صورة المتكالبين في الحياة الـدنيا وتفـاخرهم بمـا لا يبقـى، فالآيـة تمثيـل مختصر للحياة في الدنيا فبينا هو نبات يعجب الزارعين اذا به هباء يتطـاير مـن هنـا وهناك [2].

وقد ينقل الصورة من القران فيجعلها مثلا يعظ به الناس في السبق الى العمل الصالح، ويحذرهم من التهاون فيه فيقول:

« فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[3].

أي اصبحتم في حال الحياة والصحة والأمن وسائر الأسباب التي يتمنـى مـن كان قبلكم الرجعة اليها ويمكنكم معها العمل[4].

وهذا التشبيه الذي صيره الإمام(عليه السلام) مثلا مأخوذ من قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [5]، وهـو يـدل علـى قـوة حـضور الـنص القرآنـي في ذهـن الإمـام علي(عليه السلام)، إذ لا يجد صعوبة في التعبير الفني عن أي معنى يشاء، لأن ما عنـده مـن خزين الصياغات القرآنيـة يمكنـه مـن تـشكيل المعـاني الـصعبة الجديـدة كمعـاني

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢١/ ١٢٩.

٢- ظ. الطبرسي، مجمع البيـان: ٦/ ٣٥١ . الزمخشري، الكـشاف: ٢/ ٤٨٦ . الـرازي، التفـسير الكبير: ٢١/ ١٣٠.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١١٨.

٤- ظ . ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٥٦.

٥- المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

التوحيد والعالم الآخر في صور تقريبية لأذهان الناس. وتلك ميزة انفرد بها الإمام عليه السلام، لأنه يحيا حياة القرآن في أدق معاني هذه الكلمة .

٢ ـ اللوحات التشبيهية بين القرآن ونهج البلاغة:

بدا مما سبق ان للتشبيه التمثيلي في القران الكريم الحظ الاوفى من الاستعمال في تجسيد المعنى وتصويره بالصورة المرئية المحسة وهو مايكون الشبه فيه محصلا بضرب من التأول [١].

لذا فأبين خصيصة ينماز بها التشبيه القراني عن غيره هي القدرة على رسم اللوحات بأسلوب التمثيل الفني على نمط جديد من العرض والمعالجة حتى قال عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ): «وإنه لياتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة ويشتق من الأصل الواحد أغصانا في كل غصن ثمر على حدة» [٢].

واللوحة تعني«الصورة التي لاتقف عند الجزء، وإنما تستقصي الأطراف وتلتفت الى دقائق التفصيلات» [٣]، أي تحصيل المعنى من مجموع ترابط الصور الجزئية دون الوقوف عند مفرداتها، ولا يتأتى ذلك إلا في الغوص في أعماق دلالة التشبيه التي أرادها القرآن، وذلك أن في القرآن الكريم لوحات رسمها التشبيه بإطار خاص تتراءى عناصرها في صور جزئية تتوزع اجزاء اللوحة وزواياها، وفيها تلحظ إضاءة هنا وظلالا متلونة هناك بحسب ما تريد اللوحة تقريره من التركيز على معنى ما او الإغضاء عنه .

واللوحة في القران تنبعث من معنى محوري تتشكل على أساسه كل الفاظ

١- ظ . عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة: ٩٠ ـ ٩١، الزركشي، البرهان: ٣/ ٤٢٣.

٢- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: ١٠٦، ظ : القاضي الجرجاني، الوساطة: ٤٧٤.

٣- علي جواد الطاهر، مقالات: ٦٤.

المشاهد وترتبط بموجبه كل اجزائه .

ومن هنا قد تبدو لأول وهلة كثير من اللوحات في الاطار العام مكرورة وحين نحقق النظر نكتشف انها لم تتكرر وانما قصدت الى تركيز الضوء على جانب معين من مشاهد أجزائها، وذلك ما يفسر تكرار قصة موسى وعيسى في سور كثيرة، والحق انها لم تكرر وانما اقتضى السياق التعبيري إظهار جانب معين من اللوحة احتاجه المعنى العام للسورة [1].

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

ففي هذه الايات الكريمة تشبيهان تمثيليان كل تشبيه يعد لوحة تتضمن اجزاء لصور مترابطة يجمعها مشهد واحد يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في هذه اللوحة انها من «جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد شيء يقدر شبهه به... بيانه ان العرب تاخذ اشياء فرادى معزولا بعضها من بعض لم تاخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها... وتشبه كيفية حاصلة من مجموع اشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا باخرى مثلها» [3]. والتشبيه في الصورة الأولى محوره (الحيرة والدهشة والتخبط) التي عليها المنافقون كل تلك

١- ظ. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ٨٠ ـ ٨١.

٢- البقرة: ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠.

٣- الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢٠٩.

المعاني شبهت «بما يكابد من طفئت ناره بعد ايقادها في ظلمة الليل»[1].

فماذا كانت عناصر تلك المعاني في اللوحة ؟

كان العنصر الرئيسي في رسم معاني الحيرة والتخبط هو الليل ومحاولة المنافق إضاءته بأسلوب الطالب للشيء (استوقد) وهي توحي بعدم قدرته على امتلاك اسباب الإضاءة لذا هو باق في حيرته يراوح مكانه في اندهاش عبر عنه اسلوب الشرط (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) فهو «حينما يخفق في استغلال هذا اللهب الهادي فانه لابد ان ينكص على عقبيه في ظلمات وشبه»[2].

اما التمثيل الثاني فسيكون التركيز فيه على جوانب معينة من اللوحة وهي الحيرة الممتزجة بالهلع لذلك ستبدو الصورة اشد لان فيها عناصر اكثر قلقا وخوفا، ففيها صيب على جهة التنكير لأنه اريد به نوع من المطر شديد هائل وفيها ذكر للفظة (السماء) برغم ان الصيب لا يكون الا من السماء ايحاء بنفي ان يكون هذا التصوب من أفق واحد بل هو من سائر الآفاق لأن كل افق من آفاقها سماء فهو «غمام مطبق أخذ بآفاق السماء»[3].

وفيها ظلمات من إطباق السحاب مضمومة اليها ظلمة الليل وجاءت منكرات لأنه اريد بها نوع كل منها، فهي ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف، وفيها اجزاء من صور تزيد من وصف حالة الهلع فصورتهم وهم «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق» كأنه جواب من سال عن حالهم على ذلك الرعد وصورتهم وهم «يكاد البرق يخطف أبصارهم» كأنه قيل «كيف حالهم

١- الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٩٨.

٢- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٨٨.

٣- الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢١٦.

مع مثل ذلك البرق»[1].

وفيها تردد بين الإحجام والإقدام صوره قوله تعالى: «كلما أضاء لهم مشوا فيه»، وفيها وقوف قاتل ومخيف عبر عنه بلفظة (قاموا) أي ثبتوا في مكانهم. وفيها مقابلات توحي بحالة القلق وعدم الاهتداء الى سبيل القصد أو قصد السبيل مثل التضاد بين (أضاء) و(أظلم) و(قاموا) و(مشوا) و«كلها حركات خاطفة تنتقل بظواهر الطبيعة ونوازع النفس من عالم التجريد والعقل الى عالم الحس والمادة»[2].

ومن الكيفية المتنزعة من مجموع الكلام في هذه اللوحة يبدو التمثيل اشد لانه يدل على فرط الحيرة التي عليها المنافق وشدة الامر وفظاعته في تدرج من الكلام مقصود اليه من الأهون الى الأغلظ [3].

ومن اللوحات التشبيهية قوله تعالى يصف أعمال أهل الكفر به:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [4].

وتضمن هذا التشبيه صورتين: الاولى: شبه ما يعمله الكافر من الأعمال التي يحسبها نافعة عند الله بسراب يراه من غلبه العطش فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما

١- الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢١٦.

٢- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٨٩.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ١٩٨ ـ ٢١٦.

٤- النور: ٣٩ ـ ٤٠.

يرتجيه[1]، والصورة الثانية تضمنت تشبيها ثانيا لأعمال الكافرين في خلوها عن نور الحق وتخبطها في الظلمات «لأن الكافر حاله ظلمة واعتقاده ظلمة ومصيره الى ظلمة»[2].

وقد يراد بالتشبيه الاول تصوير أعمال الكافرين في الآخرة الدالة على خيبتهم. وفي التشبيه الثاني في ذكر عقائدهم في الدنيا التي تشبه الظلمات [3]، ففي الاية مشهدان محور الاول تحصيل الخيبة ومحور الثاني ظلام الاعتقاد، ويتشكل من مجموع اجزاء الصور المضمومة بعضها لبعض لوحة كلية فكانت عناصر التشبيه: سراب وهو ما يتراءى للعين وقت اشتداد الحر في الفلوات التي عبر عنها بـ(قيعة) وهي ما انبسط من الأرض واتسع[4] وفيه يكون السراب، وظمآن يحسب السراب ماء والمعنى «حتى اذا جاء الظمآن السراب ملتمسا ماء يستغيث به من عطشه لم يجده شيئا فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور يحسبون انها منجيتهم عند الله من عذابه كما حسب الظمآن الذي رأى السراب فظنه ماء يرويه من ظمئه»[5].

ومما زاد من عناصر الخيبة الصورة المفاجئة للكافر فهو «لم يكفه خيبة وكمدا ان لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله الى النار ولا يقتل ظمأه بالماء»[6]. وجاء تكرار التعبير بـ (وجد) ليضفي مشهدا من السخرية بخيبة

١- ظ. الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٦٢٥.

٢- الطوسي، التبيان: ٧/ ٤٤٢.

٣- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٤ / ٦.

٤- ظ. ابن منظور، لسان العرب: قيع.

٥- الطبري، جامع البيان: ١٨/ ١٩٨.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٦٩.

الكافرين يوم القيامة.

اما الثانية: فهي في فساد اعتقاداتهم الباطلة فشبهت أعمالهم بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب. ومبالغة في تشبيه ظلمة هذه الأعمال لكونها باطلة وخالية من نور الحق بالظلمات فقد جعل سوادها مركبا من طبقات متصلة من الظلمات (لج البحر، ظلمة الأمواج، ظلمة السحاب) واللجة معظم ماء البحر[1]، ونسبة البحر الى اللجة وصف له بأنه عميق كثير الماء إمعانا في إظلامه[2].

وقوله تعالى «لم يكد يراها» ،«مبالغة في لم يرها أي لم يقرب ان يراها فضلا عن ان يراها»[3].

وفي كل تلك التشبيهات التي استوعبت مظاهر الكون والحياة كانت الطبيعة مادة صورها لذا فهي «صور دائبة بالحركة والاستثارة والتلوين هذه الصور قد استهدفت بضم بعضها الى البعض الآخر تقريب الأشياء وإبراز الحقائق واستخلاص العظات والبينات فيما تنبته الأرض وما يهبط عليها من السماء وفيما تتقاذفه الرياح»[4].

وهذا الاستيفاء في رسم اللوحة التشبيهية اقتفى أثره الإمام عليه السلام وأكثر منه، بل يمكن القول انه ظاهرة مطردة في الاسلوب التشبيهي بطريقة الاستقصاء والاستيفاء في التمثيل، وهو بلا شك من الأثر القرآني لأنه كثير في القران كما اتضح.

ومثلما كانت الطبيعة مادة التشبيه التمثيلي في رسم اللوحات التشبيهية في

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: لجج.

٢- ظ. الطبري، جامع البيان: ١٨/ ١٩٨.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٧٠.

٤- محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القراني: ١٨٧.

القران الكريم، كانت كذلك مادة في اللوحات التشبيهية في نهج البلاغة بخاصة الابل التي جاءت كثيرا في التشبيه القراني في صفة الكافرين بالانعام كقوله تعالى:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [1].

والإبل مادة الإمام الأثيرة في التشبيهات التمثيلية في موضوع بيعة الإمام بالخلافة ثم نكثها، وفي تفرق أصحابه وتشتت آرائهم.

يقول الإمام عليه السلام في تقاعس اصحابه عن القتال:

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» [2].

فقد تضمن كلام الامام عليه السلام ثلاث صور تشبيهية والكثير من الألفاظ الموحية التي ألقت بظلالها من المعاني الجانبية على هذه اللوحة، إذ «شبه حالهم حينما استنفرهم فتقاعسوا متذرعين بكلام غامض، ومعتذرين بأعذار واهية تكشف عن جبنهم وضعفهم بحال الجمل المصاب بقرحة في زوره، وهو يردد صوتا قبيحا، وبحال البعير المهزول المعقور، وهو ينهض متثاقلا، ثم صور حال القلة التي خرجت للحرب في ضعف وتثاقل وتردد بحال جماعة من الناس يساقون الى الموت سوقا وهم يرونه أمامهم رؤية العين» [3].

فـ(الجرجرة) صوت يردده البعير حين يتعب ويعيى وفيها فضل معنى من ترداد الصوت وغمغمته بتكرير مقطعه الصوتي، و(السرر) داء يأخذ البعير في

١- الفرقان: ٤٤.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ١٠١.

٣- الحوفي، بلاغة الإمام علي: ١٠٨ ـ ١٠٩.

سرته و(النضو) البعير المهزول و(الأدبر) الذي به دبر وهـي القـروح في ظهـره[1]، ولفظة (جنيد) صغرت للتحقير[2]، وجيء بها منكرة على سبيل الإهانة والنكـارة. ولفظة (متذائب) توحي بالتمايل والتطوح من الهزال والضعف.

وفي لفظة (إخوانكم) استدعاء من الامامعليه السلام لهم، لأنـه بدعوتـه اياهم إنما ينصرون اخوانهم، ترغيبا لهم على القتال وبث الحمية في نفوسهم .

وقوله الأخير مقتبس من قوله تعالـى: ﴿كَأَنَّمَـا يُـسَاقُونَ إِلَـى الْمَـوْتِ وَهُـمْ يَنْظُرُونَ﴾[3].

ولقوة تمكن النص القراني المقتبس في كلام الإمامعليه السلام يبدو وكأنه من بعـض جمله لا من التعبير القراني خاصة وانه جيء بالآية الكريمة على سبيل صورة المشبه به ممهدا لها بقوله في صورة المشبه (ثم خرج الي منكم جنيد متذائب) .

ومن فاعلية هذا الإقتباس خفاء النص القرآني، بسبب ايراده مضمنا بدون أن يشير الى اقتباسـه، كـأن يبـدأ بيـسملة لقولـه تعـالى وتلـك سمـة أسـلوبية لكـلام الإمامعليه السلام سندرسها في بحث الشاهد القراني.

وقالعليه السلام يصف بيعته: «فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِـلِ الْهِـيمِ يَـوْمَ وُرُوْدِهَـا، قَـدْ أَرْسَلَهَا رَاعِـيهَا وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا»[4]، فقد شـبه حـالهم وهـم يتراكـضون متلـهفين على بيعته بحال إبل عطشى مطلقة العنان ليس ثمة ما يكدر عليها شربها مبالغة في وصف زحامهم عليه[5].

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: جرر، نضا، سرر، دبر.

٢- ظ. حبيب الخوئي، منهاج البراعة: ٤/ ١٧٥.

٣- الأنفال: ٦.

٤- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٥٥.

٥- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٩٩.

والدك هو الدق [1]، فكأنها لشدة زحامها يدك بعضها بعضا، وإنما خص بالذكر (يوم وردها)، «لأن الإبل ربما بعدت في المرعى عن الماء حتى تجاوز ظمأ العشرة والعشرين ويبعثها حرارة اكبادها وتصلصل احشائها على تذكر الاوطان... حتى اذا أنست مواردها وشارفت مشاربها صرد شرب بعضها وحليء عن الورد بعضها وغادر الزحام صواديها تحوم ولوابيها تلوب ولات حين ورود»[2].

ولاشك ان صورة الإبل الهيم من صور القران الكريم في قوله تعالى يصف أهل النار: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [3]، والهيم هي«الإبل التي بها الهيام وهو داء تشرب منه فلا تروى»[4].

وقيل في الهيم انها الرمال والمعنى: «انه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم الى اكل الزقوم فاذا ملؤوا منها البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم الى شرب الحميم الذي يقطع امعاءهم فيشربونه شرب الهيم»[5].

ويلاحظ ان في تشبيهات الإمام(عليه السلام) هذي قوة من صدق العاطفة من خلال اسلوب التشبيه البليغ بالمصدر «فالأديب لا يكون أديبا الا اذا تفرد بطريقة التعبير ثم لا تكون العبارات ذات أسلوب معبر الا اذا جاءت صورة لصاحبها سالت على الصفحات مدادا في جمل وحركات»[6].

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: دكك.

٢- ابن ناقيا البغدادي، الجمان في تشبهات القرآن: ١٢٥.

٣- الواقعة: ٥٤ ـ ٥٥.

٤- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٥٦.

٥- الطبرسي، جوامع الجامع: ٣/ ٤٩٥.

٦- زكي نجيب محمود، في فلسفة النقد: ٩١.

والإمام عليه السلام في خطبه وأمثاله وتشبيهاته أسمى قدرا من مواصفات الأديب، فهو الذي سن الطريق واضحة بين يدي الأدباء، وهو الذي سلك نهجه البلغاء في تتبع كلامه فكان نهج البلاغة .

والتشبيه البليغ المعتد بالمصدر خاصة يهدف الى تفخيم المشهد عن طريق نقل المشبه الى مستوى المشبه به والفعل والمصدر يدلان على الحدث والزمن وقد أسهما بخلق الحركة الواضحة خلال المشهد، وهو يرد كثيرا في تشبيهات الإمام عليه السلام كثرة ملحوظة كقوله عليه السلام :

«أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ»[1]. وهذا وجه لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[2] .

ومثله قوله عليه السلام : «فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ»[3].

تبكيتا لهم، وتأنيبا على مخالفتهم .

وكذلك قوله عليه السلام : «وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ»[4]، فشبه اضطراب المدينة بمن فيها باضطراب الماء في المرجل .

ونحو قوله عليه السلام يصف بيعته: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ»[5]، والعوذ المطافيل النوق المسنة الحديثة العهد

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٠٤.

٢- المدثر: ٥٠ ـ ٥١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٧.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ١٢٧.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٣١٦.

بالولادة وإنما خصها الإمام بالذكر لأنها أشد شوقا وتحننا وسرعة على فصيلها[1].

وقوله عليه السلام من كتاب مهددا معاوية: «فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ، إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ»[2].

والتشبيه البليغ بالمصدر يطرد في وصف بيعة الإمام عليه السلام وتعبئة أصحابه للقتال ويبدو أن باعثه قوة عاطفة الإمام عليه السلام وحماسته. بينا في التشبيهات الوعظية في التحذير من الركون الى الدنيا وملذاتها تأتي في الغالب مفصولة بين طرفي التشبيه فيها بأداة تشبيهية رابطة قصد فيها إعطاء مزيد من التأمل والتمعن، وفي كل منهما ذائقة فنية خاصة. ففي قوله عليه السلام محذرا من الدنيا: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ »[3]، توكيد على الغفلة التي أصيب بها الراكن الى الدنيا، فهو يسار به كركب سفره نيام.

وتارة يقول عليه السلام: «فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا تَدْرُونَ مَتَى تُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ»[4]، تعبيرا عن عدم امتلاك الأمر في المسير، فهو موكول لغيرهم، في إشارة رقيقة دقيقة الى هجوم الموت فجأة .

وخلاصة القول إن التشبيه التمثيلي أداة الإمام عليه السلام في رسم الصور المركبة التي يمكن أن تكون لوحة من أجزاء مضمومة الى بعض، الغرض منه استيفاء المعنى واستقصائه. وهو أسلوب قرآني في عرض المعاني باللوحات التشبيهية اقتفاه الإمام عليه السلام وآثره في كثير من تشبيهاته .

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: عوذ. ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٦٧.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤٢.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٥.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٣٦٧.

٣ ـ التشبيهات المفردة في ضوء القرآن ونهج البلاغة:

وهي الصورة البسيطة المفهومة من مقارنة طرف لآخر بصفة ما من غير تركيب بين أجزاء طرفي التشبيه[١]. وفي القران الكريم الكثير من التشبيهات المفردة مثل قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [٢].

فهذا تشبيه صورة بصورة، تشبيه السماء بالفضة المذابة في تلونها وتشبيه الجبال بالصوف الملون المتطاير لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها [٣]. وقد أشار الزمخشري الى التشبيه المفرد في مواطن كثيرة من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [٤].

فذكر في هذه الصورة تشبيه الطلع برؤوس الشياطين «دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم انه شر محض لا يخلطه خير»[٥].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾[٦]، فقوله ﷻ: «ترمي بشرر كالقصر» فيه تصوير للهول والفزع لأن الشرر هو المتطاير من النار على الكافرين من كل جهة بضخامة القصر وهو الإبل [٧].

١- ظ . الزركشي، البرهان: ٣/ ٤٢٢. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٧٢.

٢- المعارج: ٨ ـ ٩.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ١٥٧.

٤- الصافات: ٦٥.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٤٧.

٦- المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣.

٧- ظ. الطبرسي، جوامع الجامع: ٣/ ٧٠٥ . الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٥٤٥.

والعرب تشبه الإبل بالقصور قال عنترة في معلقته[1]:

(الكامل)

فوقفـــت فيهـــا نـــاقتي وكأنهـــا فـــدن لأقـــضي حاجـــة المتلـــوم

والفدن هو القصر[2]. والتشبيه بالجمالة وهي القلوص تشبيه من ثلاث جهات من جهة العظم والطول والصفرة [3]. وقيل القصر هي أصول الشجر العظام [4]. وشبهه بالجمالات الصفراء أي كأنها أينق سود لما يعتري سوادها من الصفرة إذ لا اسود من الإبل الا وهو مشرب الصفرة «لذلك سمت العرب سود الإبل صفراء»[5].

وقد أخذ الإمام عليه السلام بعضا من التشبيهات المفردة من القرآن، مثل:

«أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَد »[6].

فالمشبه نفورهم الدال على الجبن والمشبه به نفور المعزى من زئير الأسد فزعا[7].

ومثل قوله عليه السلام: «وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ، الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ»[8].

١- فوزي عطوي، المعلقات العشر: ١٣٧ .

٢- ظ. ابن منظور، لسان العرب: فدن.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٥٤٥.

٤- ظ. الراغب، المفردات: ٤٠٥.

٥- الطبرسي، مجمع البيان: ١٠/ ٢٣٤.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٥٤.

٧- ظ. الحوفي، بلاغة الإمام علي: ١٠٧.

٨- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢١٥.

فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [1]، فشبه شدة إعراض الكافرين عن القرآن بالحمر المحمولة على النفار الهاربة من الأسد.

وأخذ الإمام عليه السلام صورة التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [2]، فكأن الليل المظلم قسم الى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام بحيث يغشى وجه كل من المشركين بقطعة من قطع الليل تلك[3]، فقال من خطبة ملحمية يصف الفتن بأنها: «فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم»[4]، ووجه الشبه ظاهر بين الفتن وظلام الليل فكلاهما مظنةالتخبط وعدم الإهتداء .

وقد تأتي في التشبيه المفرد صورة المشبه به بكثير من المقيدات وهو من قبيل تشبيه المفرد بالمركب كما يقول عنه الزركشي(ت٧٩٤هـ) [5] .

نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [6]، فقد جوز الزمخشري (ت٥٣٨هـ) انطباق التشبيه المركب والمفرق عليه فقال: «فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس بعده نهاية بأن صور حاله لصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء

١- المدثر : ٥٠ ـ ٥١، وينظر في تفسيرها: الطبرسي، جوامع الجامع: ٣/ ٦٧٧.

٢- يونس: ٢٧.

٣- ظ. الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٤٤.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢٧.

٥- ظ. الزركشي، البرهان: ٣/ ٤٢٣.

٦- الحج: ٣١.

والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة»[1] .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول الإمام عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ»[2]، والخطايا من ألفاظ القرآن وهي فيه توصف بالثقل دائما كما توصف المعاصي بالأوزار والوزر هو الثقل[3]، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[4].

وكذلك لفظ التقوى فهي مما اختص بها القران وقد جاءت في آياته الشريفة مرارا.

والإمام عليه السلام شبه المعاصي بالخيل الشمس الصعبة الإمتطاء لأنها مظنة الهلكة بينا شبه التقوى بمطايا ذلل طيعة واستعمل الإقحام للشمس والإيراد للذلل فقرن بكل لفظ ما يناسبه لأن في الأولى معنى الإكراه وفي الثانية معنى القصد الى الخير[5].

وخلاصة القول إن الإمام عليا عليه السلام أخذ من التشبيه القرآني فجسد به المعنى الموهوم وسلك به سبيل القرآن في تركيب الأجزاء واستيفائها طلبا لتكامل المعنى لا النقل الحرفي للصورة، وإنما هو المران على استكناه بلاغة القرآن التشبيهية في مجالات متحركة بالعرض والأسلوب والصورة .

١- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١٢٧.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٢.

٣- ظ. ابن منظور، لسان العرب: وزر.

٤- العنكبوت: ١٢.

٥- ظ. محمد عبدة، نهج البلاغة : ١/ ٥٤. الزيات، دفاع عن البلاغة: ٧٨.

ثالثاً: التركيب الإستعاري:

التعريف بالاستعارة:

تعرف الإستعارة بأنها مجاز لغوي إفرادي قائم على أساس العلاقة التشبيهية بين المعنى الحقيقي للفظة المنقولة والمعنى الجديد المجازي[1]، ويلخصها السيوطي (ت٩١١هـ) بقوله: «زوج المجاز بالتشبيه فتولد بينهما الاستعارة»[2].

والفرق بينها وبين التشبيه هو طي أحد طرفي الصورة التشبيهية وإسقاطه دون الآخر[3]، ولذا يبدو الانتقال بين دلالات الالفاظ المستعارة أكثر تعقيدا من التشبيه، الأمر الذي يجعل صورها أسمى فنيا من صور التشبيهات لأنها حينئذ تكون صادرة عن خيال خصب[4].

كما أن الصورة التشبيهية واضحة الأطراف مفروزة مفصولة عن بعضها في فن التشبيه، أما الصورة في الإستعارة ففي طرفيهاامتزاج كما يقول القاضي الجرجاني(ت٣٦٦هـ): «وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»[5].

والاستعارة في رأي عبد القاهرالجرجاني(ت٤٧١هـ) ادعاء دخول المشبه في

١- ظ. الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ١٥٣. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: ١٠٢. ثعلب، قواعد الشعر: ٤٧.

٢- السيوطي، معترك الأقران: ١/ ١٨٦.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٥٨ ـ ٥٩.

٤- ظ. عاطف جودت، الخيال مفهوماته ووظائفه: ٢٨٢.

٥- الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤١.

جنس المشبه به فهي «ادعاء الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء»[1].

ومن هنا تبدو صعوبة التعامل بفن الاستعارة لانها بهذا الامتزاج والادعاء تعيد صياغة الواقع بشكل جديد بحسب تفاعل الأديب معه فتوفق بين المتباعدات بين الأشياء وتؤلف بين الناطق وغير الناطق بعلاقات لايقع في الحسبان إمكان الإقامة بينها، ولعل سر إبداعها مخبوء في هذه القدرة على التأليف بين المتناقضات وجعلها شيئا واحدا لأنها تدير ظهرها للمعنى الوضعي و«توحد بين شيئين يحتفظ كل منهما بشكله»[2]، وتبعث غير المألوف من المألوف في الظواهر والأشياء.

وفي هذا يتنافس الأدباء ويتفاضل المبدعون من خلال كسر طوق اللغة الاعتيادية المالوفة وإعادة تشكيل جديد للواقع والحياة فهي ليست مجرد «انحراف عن الممارسة اللغوية المألوفة»[3]، بل هي «الأداة الرئيسية التي ترتبط بواسطتها الأشياء المتغايرة وغير المرتبطة والتي بإمكانها إنشاء علاقات بين أشياء لا علاقة بينها»[4].

وبهذا النحو تحقق الاستعارة غرضين رئيسين: الاول: تصوير المعنى الذهني بمشاهد محسة ليبلغ التأثير حده .

والثاني: انصهار هذا الواقع المحسوس في نفسية الأديب من خلال إعادة تشكيله بعلاقات جديدة بينه وبين ما يحيط به من أشياء. وعندها لن تكون الاستعارة حلية طارئة على المعنى بل صورة حقيقية لرهافة الأديب نفسه وتفاعله مع الكون وظواهره.

١- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: ٢٠.

٢- نورثرب فراي، تشريح النقد محاولات اربع: ١٥٥.

٣- رينيه ويليك، نظرية الأدب: ٢٥٣.

٤- أرشيبالد مكلش، الشعر والتجربة: ٨١.

بهذا المفهوم وقعت الإستعارة في التعبير القرآني فهي «لون من ألوان التصوير في القرآن وهي من الأدوات المفضلة لديه»[1]، كشفت عن أسرار جمالية متناهية «تحدت المفهوم الحقيقي للكلمات في أصل اللغة، وبذلك بلغت الاستعارة في القرآن الكريم مرتبة الإعجاز، وفاقت المستوى الحضاري للكلمات في ذروة تطورها وعطائها عند العرب»[2] .

كما إنها إحدى أظهر تشكيلاته اللغوية الجديدة التي لم يألف مثلها العربي الذي اعتاد في لغته الوضوح والثبات في دلالات ألفاظه فقد كانت غاية انزياحاته هي في ميله الى الأساليب التشبيهية وهو الأمر الظاهر في الشعر العربي القديم[3] .

وسنحاول تبيان مزيد مما اختصت به الصورة الاستعارية القرانية من مزايا من خلال أثرها في نهج البلاغة، إذ ثمة تقف لاسلوب التعبير القراني سواء كان ذلك بالإكثار من اللغة الاستعارية بشكل عام أو بتلمس كثير من الصور الاستعارية القرانية في كلام الإمامعليه السلام .

ولكن ينبغي أولا تحديد أسلوب الإمامعليه السلام في تتبع الظاهرة الاستعارية في القران الكريم.

وبشكل عام يبدو أن الإمامعليه السلام في استعاراته المتأثرة بتعبير الكتاب العزيز يضع فيها الاصل القراني نصب عينيه ثم يعمل على توليد فروع كثيرة من الصور عليه .

١- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن: ٢٠٢.

٢- محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٩٦.

٣- ظ. جابر عصفور، الصورة الفنية: ٢٧٠ ـ ٢٧٣.

ظواهر من التأثير القرآني في استعارات نهج البلاغة:

١ـ التوليد:

وهو اشتقاق الصياغات المختلفة على الاصل الماخوذ [1].

إن أظهر أثر للقرآن في كلام الإمام علي عليه السلام هو كثرة اشتقاقات الصور الاستعارية المبنية على الأصل القرآني وتوليد مزيد من الإضافات بحسب موقفه الفني.

ويلحظ أن كل التوليدات الاستعارية يحرص فيها الإمام عليه السلام على إبقاء عنصر الأصل القراني ايحاء بقوة ثباتها في ذهن الإمام عليه السلام وإشراكا للرباط المقدس المتمثل بالنص القرآني بينه وبين ومستمعيه، والامثلة توضح ذلك:

استعارات (الليل والنهار):

يعرض التعبير القراني لـ(الليل والنهار) صورا في غاية الجدة والحياة. قال تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [2].

والليل والنهار ظواهر طبيعية تتحصل من مطالع الشمس ومغاربها ولفظة (نولج) تستعمل للأشياء المادية غير ان التعبير القراني نقل اللفظة الى معنى مجازي فصور الليل والنهار كأنهما أشياء مادية تتلبس ببعضها فيدخل هذا في هذا يقول السيد الرضي «ولفظ الإيلاج ههنا ابلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر

١- ظ . ابن رشيق، العمدة: ١/ ٢٦٣. الحموي، خزانة الأدب: ٢/ ٢٦٠.محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد الأدبي : ٢٧١.

٢- آل عمران: ٢٧.

بلطيف الممازجة وشديد الملابسة»[1].

والايلاج هنا هو «دخول مانقص من ساعات الليل في ساعات النهار فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا ودخول ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل فتزيد في ساعات الليل مانقصت من ساعات النهار»[2] .

والزيادة والنقصان تكون بحسب مطالع الشمس ومغاربها[3]. وفسرها الطبرسي بقوله: «أي تنقص من الليل وتجعل ذلك النقصان زيادة في النهار وتنقص من النهار وتجعل ذلك النقصان زيادة في الليل»[4].

وقيل في معنى آخر لتفسيرها«انه يدخل أحدهما في الآخر بإتيانه بدلا منه في مكانه»[5] .

ونظير هذا المعنى قوله تعالى في استعارة آخرى:

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [6]، والتكوير هو اللف واللي ومعناه في الاية الكريمة«يعلى هذاعلى هذا»[7]، فجعل «النهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا واذا غشى مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس»[8]. أو اراد «ان كل واحد منهما يغيب الآخر اذاطرأ فشبه

١- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٢٣.

٢- الطبري، جامع البيان: ٣/ ٣٠٣. ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٨/ ١٠.

٣- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ٥٣٢.

٤- الطبرسي، جوامع الجامع: ١/ ٢٧٥.

٥- الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٢٧١.

٦- الزمر: ٥.

٧- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٨٣. ظ. ابن منظور، لسان العرب: كور.

٨- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١٨٧ .

في تغييبه اياه بشيء لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار»[1] .

وقد يكون التكوير من كرور هذا على هذا فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على اثر بعض [2]. وقد يقع التكوير اسما للكثرة من الكور فيكون معناه «يكثر أجزاء الليل على أجزاء النهار حتى يخفى ضوء النهار وتغلب ظلمة الليل ويكور النهار على الليل أي يكثر أجزاء النهار حتى تظهر وتنتشر وتتلاشى فيها أجزاء الليل وتضمحل»[3].

والصور الاستعارية في الليل والنهار كلها تنبض بالحركة وتشع بالحياة كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [4] .

وقوله سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [5].

وقد كانت هذه الصورالقرانية وغيرها لليل والنهار معينا استقى منه الإمام عليه السلام استعاراته وكان استمداد الإمام عليه السلام منه اما مباشرا يقتبس منها الصورة الاستعارية ذاتها او غير مباشر من خلال البناء على الاصل القراني وتوليد الفروع منه. فمن الاول قول الإمام عليه السلام من خطبة في التوحيد:

« فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ ـ وَالْـمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَار ..»[6]، واختلاف الليل والنهار يعني تعاقبهما في الذهاب والمجيء

١- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١٨٧.

٢- ظ . المصدر نفسه والصفحة .

٣- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٨٤.

٤- يس: ٣٧.

٥- يس: ٤٠.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٦٥.

«وكل شيء يجيء بعد شيء آخر فهو خلفة»[1]. وهذا يفسر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[2].

ومعنى خلفة: «جعل الليل والنهار يتخالفان فاذا اتى هذا ذهب هذا واذا أدبر هذا أقبل هذا»[3].

ولاشك ان قول الإمام عليه السلام أخذه من قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[4].

وقال الإمام عليه السلام: «وَ جَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا»[5]، ولفظة مبصرة مستعارة، فقد شبهت آية الشمس بكائن مبصر، ثم حذف المستعار منه واشير اليه بشيء مما يخصه وهو البصر بجامع الرؤية في كل. وهذا من الاستعارات بالكناية، أي: «مكشوفة القناع مبينة الإبصار»[6]. وهي من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[7].

١- الرازي، التفسير الكبير: ٤/ ٢١٥.

٢- الفرقان: ٦٢.

٣- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٥٤.

٤- يونس: ٦ . وينظر في تفسير أمثالها: الطبري، جامع البيان: ٢/ ٨٧.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ١٩١.

٦- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٩٩.

٧- الإسراء: ١٢.

ويمكن ان تكون (مبصرة) يراد بها المجاز للنهار على سبيل المبالغة لان فيه يبصر الناس كما قيل في (ليل اعمى) لأن الناس لايبصرون فيه لشدة اظلامه[1]. وحينئذ يخرج هذا اللفظ عن المجاز الاستعاري الى المجاز المرسل بعلاقة السببية. والمحو هو طمس الشيء وإزالة أثره [2]، استعيرت للفظة(آية) وأريد بها القمر[3]. والمعنى «فمحونا اية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق له شعاعا كشعاع الشمس وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء»[4].

ومن الاستعارات التي أخذها الإمام عليه السلام بشكل مباشر من التعبير القراني قوله من رسالة يوصي جيشه: «وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً»[5] .

فاستعار الغشاء لظلمة الليل ثم حذف الظلمة مكتفيا بالاشارة اليها بلفظة الليل على سبيل الاستعارة بالكناية. وقد اعطى لليل بهذه الاستعارة صفة الاحياء العقلاء فالليل يتصرف كما يتصرف الاحياء فيغطي ويغشي. وكفة بمعنى مستديرة أي اجعلوا رماحكم كالدائرة حولكم[6].

وصورة الليل مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [7]، فجعل الليل كأن له لباسا يغطى به النهار[8]، فـ«يلبس ظلمة الليل ضياء النهار فيصير مظلما

١- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٥٦.

٢- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ٤٦٤ . ابن منظور، لسان العرب: محو.

٣- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٩٩.

٤- الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٣٦٣.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤٤.

٦- ظ. ابن منظور، لسان العرب: كفف.

٧- الأعراف: ٥٤ .

٨- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ٣٦١.

بعد ان كان مضيئا»[1].

أما استعارات الامام عليه السلام المبنية على الاصل القراني في هذه المعاني فهي تبدو اكثر فنية بسبب اضافاته وتوليداته من دون الاعتماد كلية على الصورة الاستعارية القرانية التي يبدو فيها مقتبسا، فكثيرا ما يوظف الإمام عليه السلام الحركة التعاقبية لليل والنهار التي ترسمها الاستعارات القرانية في الوعظ والتحذير من الركون الى الدنيا.

يقول الإمام عليه السلام: «وَ إِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ، اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَة»[2]، فذهب بهما بعيدا في الخيال وهما يشبهان حادي الابل الذي يسوقها فتطيعه سالكا بها سبيلا يقصده.

واستعارة (الحدو) للفظ (الجديدان) «لما يستلزمانه من إعداد الإنسان لقرب أجله المشبه لصوت الحادي الذي يحدو الإبل لسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها»[3]، لذلك قال الإمام عليه السلام بثقة «لحري بسرعة الأوبة » أي سرعة العود فقد شبه الانسان في الحياة الدنيا بابل والليل والنهار من ورائه يحدوانه وأطلق عليه صفة الغائب على اساس عودته الى مستقره التي هي داره الحقيقية وهي دار الآخرة.

ويرجح شارح النهج ابن ابي الحديد (ت٦٥٦هـ) ان المقصود بالغائب هو الموت يسوقه الجديدان[4]، وهذا وإن كان محتملا الا انه «لايطابقه لفظ الاوبة لان

١- الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٢٤٩.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٣٨.

٣- ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٦٥.

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٤٦.

الموت لم يكن جائيا أو ذاهبا حتى يرجع»[1].

هذه الصورة الحركية لليل والنهار باعثها الاستعارات القرانية لهذين اللفظين مثل قوله تعالى مضافا لما سبق:

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾[2]، فاستعارة (يطلبه حثيثا) بمعنى الادراك السريع اضافة فنية في غاية الروعة لصورة التلاحق بين الليل والنهار وذلك«بأن يأتي في أثره كما يأتي الشيء في أثر الشيء طالبا له»[3].

والحثيث السير السريع السوق فجعل«ظلمة الليل بمنزلة الغشاوة للنهار»[4]، ولم يقل (يغشي النهار الليل) لدلالة الكلام عليه.

ومما أخذ الإمام عليه السلام من الحركة القرانية التي يرسمها لليل والنهار قوله موصيا ولده الحسن عليه السلام:

«وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً»[5]، فاستعار لليل والنهار(مطية) بجامع الانتقال في كل منهما «باعتبار انهما اجزاء اعتبارية يعقب بعضها بعضا وينقضي بانقضائها الزمان فينتقل الشخص بحسبها في منازل مدته المضروبة المقدرة له منه الى ان تفنى مدته ويتم سفره الى الآخرة»[6].

لذا كان سير الزمان سيرا اعتباريا وان كان واقفا .

١- ظ. ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٦٥.

٢- الأعراف: ٥٤.

٣- الطبرسي، جوامع الجامع: ١/ ٦٦٢. وينظر : الطبري، جامع البيان: ٨/ ٢٦٨.

٤- الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٢٦٩.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ١٩٣.

٦- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٤٤.

أليست هذه الحركة التي يسبغها الإمام عليه السلام على الليل والنهار مجتمعين توليدات للاصل القراني، نحو قوله تعالى مضافا لما سبق:

﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

والمراد بالتقليب «طرد النهار بالليل وطرد الليل بالنهار فكنى عن ذلك سبحانه باسم التقليب»[2]، والمراد بالتكنية التكنية بالاستعارة لانها مستبطنة معنى التشبيه فكأن الليل والنهار مشبه لما هو للتصرف والتغير فالتقليب هو قلب الشيء وتصريفه وصرفه عن وجه الى وجه كقلب الثوب أو تغييره من حال الى حال[3].

وتوسع الامام عليه السلام في استعارات الليل والنهار فخلع عليها صفات الأحياء لترفع وتسرع وتهدم وتبني وتفرق وتجمع في قوله عليه السلام:

«فَمِنْ أَيْنَ تَرْجُو الْبَقَاءَ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا»[4].

فصور الليل والنهار يرفعان ويهدمان ما يبنيان ويفرقان ما يجمعان، وكلها استعارات مكنية للدلالة على الفناء والموت في الحياة، وإنما نسب اليهما كل ذلك لأنهما الظرف الزمني الذي تقع فيه الأحداث كلها.

استعارات (الحق والباطل):

وجاءت استعارات الحق والباطل مجتمعين بكثرة في القرآن الكريم موحية بالكثير من الصور الاستعارية لهذين اللفظين في دلالتهما الإيحائية المتقابلة .ففي

١- النور: ٤٤.

٢- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٤٧.

٣- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ٤١١.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٥٠.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]، استعار القذف للحق والدمغ للباطل فصور الحق كأنه حجر مصكوك لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة[2]، وصور الباطل كأنه كائن حي يدمغ أي يكسر دماغه[3] بحجر الحق فتزهق روحه ويهلك. وفي ذلك دلالة تشخيصية، إذ جسد سبحانه وتعالى من الحق كائنا يقذف به صماخ الباطل. يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في تفسيره لدحض الباطل بالحق: «واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه»[4]، أي أصاب دماغه.

وفي استعارة أخرى يرسمها التعبير القراني في قوله تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[5].

فخلع على الحق والباطل صفة الاحياء حين استعار لهما المجيء والزهوق على التوالي، ومعنى(زهق الباطل) «ذهب وهلك من قولهم زهقت نفسه اذا خرجت»[6]، على التشبيه بمن فاضت نفسه وانتقضت بنيته، كما قال تعالى: «وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ»[7].

ويبدو أن كثرة التعبيرات الاستعارية للفظي الحق والباطل نحو قوله تعالى:

١- الأنبياء: ١٨.

٢- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٢٨.

٣- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ١٧٢.

٤- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٥٦٥. ظ. ابو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٦/ ٢٨٠.

٥- الإسراء: ٨١.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤٦٣. ظ.الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٠٤.

٧- التوبة: ٥٥.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [1] .

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [2]، قد أوحت للإمام عليه السلام بالكثير من الاستعارات في معاني هذين اللفظين الذين أقيم على أساسهما العدل الإلهي، ومبدأ الثواب والعقاب، ومعركة الانسان ونضاله في الحياة ضد الشيطان لذلك جاءت استعارات الإمام عليه السلام في هذين اللفظين بكثرة لافتة للانتباه، وكلها من ايحاءات التعبير القراني الذي جمع في استعاراته بين اللفظين وسار تعبير الإمام عليه السلام على أثره.

يقول الإمام عليه السلام: «وَايْمُ اللهِ لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ، حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِه» [3]، استعار الخاصرة للباطل ورشحها بالبقر على سبيل الاستعارة بالكناية «ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعز قيمة منه وكنى به عن تميز الحق منه» [4]. وذكر الخاصرة يشير الى شدة الاشتمال على الحق.

ومثل هذه الاستعارة قوله عليه السلام عند خروجه لقتال الناكثين:

«فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِه» [5]، والنقب إحداث فجوة تتسع لإخراج شيء ما، والتوكيد عليه بالنون في تعبير الإمام عليه السلام يتحدث عن الجزم والحتمية، فهو يحدث الفجوة الكافية لاستخراج الحق بكل إصرار.

وأخذ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ

١- سبأ: ٤٩. وينظر في بيانها: الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٦٧.

٢- الشورى: ٢٤.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٣٢.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٢.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٠.

تَعْلَمُونَ﴾[1].

وتوسع في صورته فقال(عليه السلام):

«فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ، لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ»[2]، والضغث هو القبضة من الحشيش أو الريحان، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[3]، لذا «شبه به الأحلام المختلطة التي لا تتبين حقائقها»[4]، فقيل على الجمع (أضغاث أحلام)، واستعيرت للحق والباطل«ومقصوده بذلك التصريح بلزوم الآراء الباطلة والأهواء المبتدعة لمزج الحق بالباطل»[5].

ويشرح ابن ابي الحديد(ت٦٥٦هـ) كلام الإمام(عليه السلام) فيقول: «إن المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها أصلها اتباع الأهواء ...ومستند وقوع الشبهات امتزاج الحق بالباطل»[6].

وقال(عليه السلام) من كتاب موصياعامله: «فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ، مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ، أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ، وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ»[7].

فشبه الباطل بنار مضرمة واستعار لها مما يشير اليها وهو الإطفاء بطريق

١- البقرة: ٤٢.

٢- الإمام علي (عليه السلام)، نهج البلاغة : ١/ ١١٤.

٣- ص: ٤٤.

٤- الراغب، مفردات غريب القرآن: ٢٩٧.

٥- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٣٤.

٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٤٥.

٧- الإمام (عليه السلام)، نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٨.

الإستعارة المكنية، واستعار لفظ الإحياء للحق على اساس تشبيهه بشيء مدروس أو مندثر .

والإطفاء والإحياء من الاستعارات الواردة في التعبير القرانـي، قـال تعـالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [2].

وفي استعارة أخرى قال عليه السلام في صفة المؤمن:

«وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ»[3].

فكأن الباطل شيء يدخل فيه والحق قصر يخرج منه .والمعنى إن المؤمن«لايدخل فيما يبعد عن الله تعالى من باطل الدنيا ولا يخرج عما يقرب اليه من مطالبه الحقة»[4].

ونحو هذا قوله لأصحابه: « وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُم»[5].

وفي نهج البلاغة كثير من الاستعارات التي جمعت بين الحق والباطل على طريقة التعبير القرآني مثل: قوله عليه السلام:

«فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ»[6]، وقوله عليه السلام: «حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ

١- التوبة: ٣٢.

٢- الجاثية: ٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٦.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٢٤.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٤.

٦- المصدر نفسه: ١/ ٤٥٨.

لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ»[1] .

وقوله عليه السلام في الفتنة: «فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا»[2].

وقوله عليه السلام في الحفظة الكاتبين: «إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلا»[3] .

وقوله عليه السلام : «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِع»[4].

ولاريب في أن كل تلك المجازات الاستعارية التي جمعت بين الليل والنهار وبين الحق والباطل في صورة واحدة منبعها القرآن الكريم والإمام عليه السلام اقتفى أثرها مقتبسا تارة ومضيفا تارة ثانية، وموضحا سواهما.

آـ ظاهرة التشخيص:

التشخيص هو خلع الصفات الانسانية على المعنويات والجمادات[5]، فهو بتعريف أدق «إسباغ الحياة الإنسانية على ما لا حياة له ، كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحية»[6] .

وهو وإن كان مصطلحا حديثا الا أنه غير منبت الجذور عن التراث النقدي العربي، قال عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) وهو يتحدث عن الاستعارة:

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٥٢.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣٨٨.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٨.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٣٢٣.

٥- ظ. سيد قطب، النقد الأدبي: ٦١. سعيد علوش، معجم المصطلحات الادبية المعاصرة: ١٢٦.

٦- جبور عبد النور، المعجم الأدبي: ٦٧.

«وترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة»[1].

وتبدو قيمة التشخيص في قدرته على الايهام بالخلق[2]، فهو يتجاوز الاستعارة في أنه «يعطي الأنفاس للأشياء المجردة»[3]. ولأنه يعيد صياغة الواقع فيستنطق من لا ينطق ويعقل مالا يعقل فهو «وسيلة الى تنشيط الحواس وإلهابها»[4].

ويبدو أن هذه الملكة التي ترى غير الحي حيا، قوامها رهافة الحس وسعة الشعور التي تتفاعل مع كل موجود وتنصهر ذاته فيه فاذا به يعيد صياغة تشكيله خالعا عليه من صفاته الانسانية من رضا وغضب وحزن وتفاؤل [5].

وتختص الاستعارة المكنية بالتشخيص من بين أنواع الاستعارات لأن في صورة المستعار منه المحذوف ايماءة تعطي هذا العنصر التشخيصي. ويكثر في استعارات التعبير القرآني تشخيص المعاني وتعقيل الجمادات كثرة تتيح لأن تكون ظاهرة فنية في هذا الكتاب المعجز. وهو يشيع روح الحركة في تصوير المعاني التي يراد لها أن تكون في غاية التأثير مثل تصوير الدنيا والموت والنار والعذاب والقسم وتقلب الليل والنهار وصراع الحق والباطل كما مر .

وفي نهج البلاغة ميل الى فن التشخيص الاستعاري يعد من أروع تجليات التأثير القرآني في أدب الإمام علي عليه السلام .

من ذلك قول الإمام عليه السلام في صفة المتقين: «وَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ،

١- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: ٤٠ـ ٤٢.

٢- محمد مندور، في الميزان الجديد: ١٠٠.

٣- دي لويس، الصورة الشعرية: ١٢٣.

٤- عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للادب: ٧٠.

٥- ظ. العقاد، ابن الرومي، حياته من شعره: ٣٠٥.

أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِم»[1] .

فجعل لجهنم زفيرا وشهيقا كناية عن غضبها وهو من قوله تعالى:

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [2]، والشهيق الصوت المنبعث من القلب عند ضيقه وحزنه «فكأنه سبحانه وصف النار بأن لها اصواتا مقطعة تهول من سمعها ويصعق من قرب منها»[3] والزفير جاء في قوله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [4]، وهو كناية عن شدة الغضب لأن من شأن الغاضب أن يشتد نفسه .

وقد أسبغت الآية على النار صفة الرؤية إشارة لقربها منهم. وصفة التغيظ من صفات الانسان وهو أعلى مراتب الغضب «والغضب لا يوصف به الا الناس»[5]، ومراد المعنى الاهتياج والاضطرام، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾[6] .

وفي صورة أخرى لغضب نار جهنم، قال عليه السلام واعظا أصحابه:

«أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ، حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ»[7]، فكأنها كائن حي ينزجر ويجزع .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٣.

٢- الملك: ٧.

٣- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٣٣٩.

٤- الفرقان: ١٢.

٥- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٤٩.

٦- الملك: ٨.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٤٣٨.

وقالعليه السلام من خطبة في التوحيد: «وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَال، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ ..»[1].

ولفظة (تنفس) استعارة نقلت الجامد الى الاحياء وهي من قوله تعالى:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[2]، والتنفس هنا «خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل»[3]. واستعار الضحك للاصداف بوصف انفتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوه باسنان الإنسان حال ضحكه «ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدها كالانسان يضحك»[4].

ولفظة (ضحكت) استعارة وردت في قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[5]، واستعار لفظة(حصيد) لصغار اللؤلؤ لشبهه بما يحصد من الحنطة وغيرها وهذه اللفظة من الاستعارات القرآنية فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾[6]، اي يختلون بالسيف كما تختلى الزروع بالمنجل[7].

وقال الإمامعليه السلام: «إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا»[8]،

١- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٨٥.

٢- التكوير: ١٨.

٣- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٣٦٠.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٢٧.

٥- عبس: ٣٨ ـ ٣٩.

٦- الأنبياء: ١٥.

٧- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٢٨.

٨- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٦٣.

فاستعارة (تبكي) جاءت في التعبير القراني في قوله تعالى:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [1].

والبكاء من صفات الانسان فأنزل جارحة القلب منزلة الانسان اشارة الى دوام حزنهم «لملاحظتهم الخوف من الله وان ضحكوا مع ذلك فمعاملة مع الخلق» [2].

اما استعارات الإمام عليه السلام الكثيرة في تصوير الدنيا والموت والنار فهي امتداد طبيعي لأصل الاستعارة القرانية وتشخيصها، لأن الإمام عليه السلام يدور مع القرآن حيثما دار .

وتكاد تكون كل الاستعارات التي تصور اغراءات الدنيا نابعة من قوله تعالى في أكثر من موضع: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [5].

ولاريب أن نسبة الإغراء الى الدنيا من باب المبالغة في الوصف. والإغراء من صفات الانسان خلعت على معنى ذهني خالص لأن الحياة الدنيا هي أحوال البشر بشكل عام هم الذين يصنعون دنياهم بوجودهم ولا وجود على المعنى الحقيقي للدنيا حتى تغر ولكنهم «لما اغتروا بالحياة الدنيا حسن إن يقال انها غرتهم ولما كان فيها ما تميل اليه شهواتهم جاز إن يقال انها استمالت شهواتهم» [6].

١- الدخان: ٢٩.

٢- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٥.

٣- لقمان: ٣٣.

٤- الأنعام: ٧٠.

٥- الجاثية: ٣٥.

٦- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٤٠.

ولهذا المعنى يشير الإمام عليه السلام بقوله حين سمع رجلا يذم الدنيا:

«أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا أَ تَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا»[1].

ويتوسع الامام عليه السلام في تشخيصاته للدنيا فيخلع عليها صفة من تستميل اليها الرجال فتغريهم بزينتها ودلها فيقول:

«أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ ..وَ الْمَائِنَةُ الْخَئُونُ وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ وَالْحَيُودُ الْمَيُود»[2].

وهي في قول آخر: «فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ مُلْبِسَةٌ نَزُوع »[3].

ويلحظ كثرة استعمال مشتقات صيغ المبالغة في شدة وصف اغترارها.

وأخذ استعارة (الادراك) للموت التي جاءت في قوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[4]، فقال:

«وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُم»[5].

نستخلص مما سبق أن الإمام عليا عليه السلام يضع الاصل القرآني ويعمل على اشتقاق مزيد من الصور عليه في دلالة واضحة على قوة حضور النص القرآني وأثره في كلامه عليه السلام .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٣٦.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٨٤.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٥٦.

٤- النساء: ٧٨.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ١٦٨.

٣ـ الاستعارة التمثيلية:

الاستعارة التمثيلية قائمة على تشبيه التمثيل بمعنى أن الجامع الذي يقابله وجه الشبه كيفية منتزعة من متعدد صفات من الكلام [١]، مثل قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [٢].

فاستعارة (انسلخ) تمثيل لمدى تخلي هؤلاء عن آيات الله تعالى وهي تصور حالة النزع الشديد في مفارقتها المتدرج المشبه لحالة الشاة التي انسلخ إهابها [٣].

وفي بعض الاستعارات التمثيلية نجد الإمام عليه السلام يستمد من القرآن صورا يجمعها ويضيف اليها، بحيث تبدو كل صورة فيه تأخذ بحجزة أختها كما يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) [٤].

يقول عليه السلام في معرض التحذير من الشيطان:

« فَاحْذَرُوا عِبَادَ الله أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» [٥].

ويعرض الإمام عليه السلام تمكن الشيطان من العباد فيأتي بصور هذا المعنى من القرآن الكريم أو ينقلها بتوظيف جديد أو يضيف اليها صورا اخرى من استعاراته هو عليه السلام في أسلوب اختص به «والأسلوب يطلق على ما ندر ودق من

١- ظ. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٧٣.

٢- الأعراف: ١٧٥.

٣- ظ. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ٩٨.

٤- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٦٦.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٩١.

خصائص الخطاب التي تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب ويلفظ»[1].

فقوله: (عدوالله) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [3].

وقوله: (يعديكم بدائه) مأخوذ من وصف الله تعالى لإبليس بالكبر والحمية وشبه تعلم الناس ذلك منه بالعدوى «لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحد الشخصين الى الآخر»[4].

وقولهعليه السلام: (يستفزكم بندائه...) مستقى من قوله تعالى:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[5].

وقولهعليه السلام: (رماكم من مكان قريب) منقول بتوظيف جديد من قوله تعالى:

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [6].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [7].

و(سهم الوعيد) لفظ مستعار يعني به الإمامعليه السلام قوله تعالى حكاية عن ابليس:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [8].

١- المسدي، الأسلوب والأسلوبية: ٦٥.

٢- فاطر: ٦.

٣- الممتحنة: ١.

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/١٣٨ .

٥- الإسراء: ٦٤.

٦- ق: ٤١.

٧- سبأ: ٥١.

٨- ص: ٨٢.

والإمام عليه السلام جمع من هذه الصور القرانية باسلوب نادر مضيفا اليها علاقات جديدة لتغدو مستوفية المعنى الذي يريد توضيحه، فصورة لإبليس وهو يعدي بدائه من التكبر وعلل النفس المختلفة. وصورة أخرى وهويزعج الناس ويستخفهم بدعائه القبيح، وصورة له وهو يجلب بخيله ورجله تشبيها لحاله في تسلطه على بني آدم بمن يغير على قوم بخيله فيستأصلهم، وصورة له وهو يفوق سهمه في وتره، وصورة له وهو يستوفي مد القوس ويبالغ في نزعها ليكون مرماه أبعد ووقع سهامه اشد، وصورة له وهويرمي على تلك الحالة من مكان قريب ضمانا لإصابة الهدف .

هذه الاجزاء وهي مفردة ليست لها قيمة فنية متميزة ولكنها حين تجتمع وتضم الى بعضها البعض يتشكل منها هذا المشهد التمثيلي لإبليس وتمكنه من العباد حملا لهم على الاستعداد لمحاربته لذا صدر الإمام عليه السلام كلامه بالتحذير منه.

ومن الاستعارات التمثيلية قول الإمام عليه السلام قبل وفاته:

«إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَبِّ رِيَاحٍ وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا»[1] .

فاستعار ثبات الوطأة للسلامة والبقاء حيا ولفظة (الدحض) للموت، فمثل سلامته وعودته بعد معافاته من جراحه بثبوت القدم في مكان زلق وكنى عن الموت بانزلاق القدم الذي هو الدحض .

اما قوله (فإنا..) فمراده: «انه كان في حال شأنها الزوال فزالت وما هو

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٣٩.

بعجيب»[1].

ولا أحسب إن دحض القدم له علاقة بأفياء الاغصان او مهب الرياح او ظل الغمام فهي كلها كنايات عن الزوال ولا توصف بشدة الظلمة التي يكون الزلق من آثارها كما فسرها الحوفي بقوله: «وصور موته بانزلاق القدم في مكان مظلم غطته الأشجار وهبت فيه الريح وغطاه السحاب ونزل فيه المطر»[2].

والدحض من الاستعارات التي وردت كثيرا في القران الكريم نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[3].

استعيرت لتشبيه الحجة بعدم الاستقرار «كالواطيء الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يستمر على الوطء»[4].

وداحضة مجاز عقلي اراد به مدحوضة للمبالغة في بطلانها، وذلك من باب إطلاق اسم الفاعل وإرادة المفعول، وعليه قوله تعالى:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾[5].

وجملة الأمر إن الاستعارة القرانية من أبين مظاهر الأثر البياني في نهج البلاغة وهي جزء فاعل في سياق التعبير لا غنى للمعنى عنها لأن فيها اكتماله وتمامه.

١- محمد عبده، نهج البلاغة: ١/ ٢٨٨.

٢- الحوفي، بلاغة الامام علي: ١١٣.

٣- الشورى: ١٦.

٤- الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٩٧.

٥- الصافات: ١٤١.

رابعاً: الملحظ الكنائي:

التعريف بالكناية:

تعرف الكناية بأنها «لفظ أريد بـه لازم معنـاه»[1]، ولازم معنـاه أي النتيجـة المباشرة لهذا المعنى، وهو الذي يوضـحه عبـد القـاهر الجرجـاني (ت٤٧١هـ) في تعريفه للكناية بقوله: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يـذكره بـاللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به اليه، ويجعله دليلا عليه»[2].

إذن الكناية إثبات المعنى الأخـير يتوصـل اليـه مـن المعنـى الحقيقـي. وهـي مأخوذة من كنيت الشيء اذا سترته أو من الكنية التي تقال للرجل بـدلا مـن ذكـر اسمه الحقيقي[3].

وهي على كلا القولين تناسب تعريفها في الدلالة علـى اسـتتار المعنـى المـراد والمستنبط من المعنـى الأصـلي، قـال الزركـشي (ت٧٩٤هـ): «إن العـرب تعـد الكناية من البراعة والبلاغة وهي عندهم أبلغ من التصريح »[4].

ولابد في الكناية من المناسبة التي تجمـع بـين المعنـى الأصـلي والمعنـى المكـني فضلا عن وضوحها وثباتها[5] .

ويبدو أن في خفـاء المعنـى الثـاني الـذي يفيـد الكنايـة فـضلا مـن المبالغـة

١- السيوطي، معترك الأقران: ١٩٢.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٦٦ . ظ. الرازي، نهايـة الإيجـاز: ١٥٣. الزركـشي، البرهان: ٢/ ٣٠١.

٣- ظ. ابن منظور، لسان العرب: كني.

٤- الزركشي، البرهان: ٢/ ٣٠٠.

٥- ظ. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

والتفخيم له لا يستبين في حال التصريح «وكما أن الصفة اذا لم تأتك مصرحا بذكرها مكشوفا عن وجهها ولكن مدلولا عليها بغيرها كان ذلك أفخم لشأنها وألطف لمكانها»[1].

من آثار الكناية القرآنية في نهج البلاغة:

وللكناية القرآنية أثر واضح في تعبيرات الإمام علي عليه السلام، سنحاول تبيانه من خلال المظاهر البيانية الآتية:

١ـ جدة الكناية القرآنية:

في القرآن الكريم كنايات كثيرة تدل على أسلوب مميز اختص به التعبير القرآني، قال الزمخشري(ت ٥٣٨هـ): «ولاترى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه»[2].

فما الجديد في الكنايات القرانية ؟

يلحظ على كنايات القرآن الكريم خلود العلاقة فيها بمعنى إن الكناية التي ترتبط كثيرا بأعراف المجتمع ـ إذ تعد أصدق صورة له ـ كثيرا ما يندثر استعمالها لأنها تشع من الأصل الحقيقي لها وهو العرف الخاص المرتبط بدلالات مكانية وزمانية للمجتمع، فكثير من الكنايات التراثية يكاد يندثر استعمالها لأن علاقتها ليست خالدة مثل قول الشاعر يكني عن الكرم[3]:

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٠٦. ظ.العسكري، الصناعتين: ٣٦٠. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ١٩٢.

٢- الزمخشري، الكشاف : ٣/ ٤٦.

٣- ظ. القزويني، الإيضاح: ٣٣٤. والبيت لابن هرمة ينظر في الأغاني للأصفهاني: ٥/ ٢٥٩ .

(المضارع)

لا أمتـــع العـــوذ بالفـــصال ولا أبتــــاع إلا قريبـــــة الأجـــــل

والعوذ أمهات الإبل والفصال هي الجمال الصغيرة والشاعر يفتخر بكرمه بقوله انه لايدع العوذ الأم تهنأ بصغيرها الذي تلده حتى تفطمه بل هو يسارع الى ذبحه للضيوف [1].

أما قوله: (لا ابتاع الا قريبة الأجل) فهو كناية عن أن ما يشتريه من الماشية عمره قصير لأنه يسارع به الى ذبحه إكراما للضيوف .

فهذه الكنايات وغيرها مثل (كثير الرماد، جبان الكلب، مهزول الفصال)[2]، تكاد تفقد طاقتها التعبيرية اليوم لانحصارها في زمانها ومكانها البعيدين عن ذائقة العصر الحديث .

بينما كنايات القرآن تعبير عن اشتراك انساني عام لأن دلالتها على معانيها باقية لا تختلف باختلاف البيئات ولاتختص بعصر دون آخر .

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [3] .

فتقليب الأيدي كناية عن الندم يتفق عليها العرف الإنساني في كل عصر وليست من قبيل العلاقة الآنية الزائلة .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[4] .

١- ظ. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٤٣١.

٢- الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٦٦-٧٠- ٣٠٧. ظ. العسكري، كتاب الصناعتين: ٣٤١- ٣٤٢.

٣- الكهف: ٤٢.

٤- السجدة: ١٢.

فناكسو الرؤوس أي مطرقوها حزنا وغما عند ربهم أي«عند مجازاته وهو مكان شدة خجلهم»[1] .

وقد تعارف أبناء البشر على أن انكسار الطرف وطأطأة الرأس من أبرز المظاهر الدالة على الذل والهوان .

ومما امتاز به الاستعمال الكنائي في التعبيرات القرآنية هو قوة وضوح الدلالة الكنائية، ولعل قيمة الكناية فنيا فيما تصنع من صورة هو في تفاوتها في مراتب الوضوح وابتعادها عن التعقيد فكلما كان المكنى عنه قريب الفهم لا يحتاج الى كد وجهد كانت الكناية في الدرجات العلى من المستوى الفني وكلما كانت غامضة كانت غثة مشوهة[2] .

والكناية في القران مثلت أعلى مراتب الوضوح للمعنى المكني عنه نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [3] .

ففي الآية الكريمة ثلاث كنايات تنقل السامع مباشرة الى تخيل حجم هذا الفزع الذي نكاد نراه متجسدا في كل كناية منها، فنراه في الأم الذاهلة عن رضاعة وليدها بعد أن أفقدها هول الفزع حنانها الغريزي، ونحسه في هذا الحمل الساقط قبل تمامه من كل ذات حمل، ثم يتجسد هذا الفزع في هيأة الناس الذين اصفرت وجوهم واتسعت أحداقهم وتمايلت أجسادهم وهي تشبه مشاهد السكر وما هو بسكر[4] .

١- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٧/ ١٩٦ .

٢- ظ. قدامة بن جعفر، نقد الشعر: ١٨١ ـ ١٨٢ .

٣- الحج: ٢ .

٤- ظ. البيضاوي، تفسير البيضاوي: ٤/ ١١٣ .

وعلى هذا الوضوح جاءت الكناية في قوله تعالى:

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [1] .

وهي كناية واضحة الدلالة على النساء، لأن النساء وحدهن في كل زمان ومكان تهتم بالحلية وتنشأ فيها وكذلك معلوم أن حياء المرأة يمنعها من الخصام والمجادلة[2] .

والمراد نفي الأنوثة عن الملائكة وكونهم بنات الله تعالى سبحانه عن ذلك فكنى عن النساء بأنهن ينشأن في الحلية والترف والتزين[3] .

والكناية القرآنية ترتبط ارتباطا وثيقا بسياقها في ملاءمة دقيقة بين المعنى المكني عنه في الصورة الجديدة وبين السياق الذي وردت فيه، قال تعالى:

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[4]، فالكناية بالألواح والدسر وهي المسامير[5] عن السفينة «إشارة الى أن أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر وكان انفكاكها في غاية السهولة ولم يقع بفضل الله»[6] .

لذا عدل التعبير القرآني عن لفظ السفينة الى الكناية بـ(الألواح والدسر) حتى لا يظن الناس إن نجاة نوح وسط تلك الأمواج المتلاطمة بسبب متانة السفينة وعظمتها لابسبب عناية الله تعالى وحفظه. إذن هناك مواءمة دقيقة بين الصورة والمعنى بين الكناية وسياقها.

١- الزخرف: ١٨.

٢- ظ. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن : ١٦/ ٧١ ـ ٧٢.

٣- ظ . الزركشي، البرهان: ٢/ ٣٠٨.

٤- القمر: ١٣.

٥- ظ. الراغب، المفردات: ١٦٩.

٦- الرازي، التفسير الكبير: ٢٩/ ٣٨.

وفي نهج البلاغة كثير من كنايات القرآن الكريم يقتبس بعضها وينقل بعضها الآخر الى توظيف جديد كدأب الإمامعليه السلام دائما في تأثره بأسلوب التعبير القرآني فمن كنايات القرآن الجديدة تعبيره عن الأرحام بالقرار المكين، نحو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [1]، ومكين أي مكن لذلك وهيء له ليستقر فيه الجنين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] .

ومعنى الغلف الأوعية[3]، وهوكناية عن الاستعفاء من كلام الرسول صلى الله عليه وآله والاحتجاز عن دعائه، والمعنى ان قلوبهم في اوعية لا تفهم شيئا مما يقال لها[4].

وأخذ الإمام عليه السلام بهذه الكنايات فقال من خطبة يصف خلق الإنسان:

«وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَجَلٍ مَقْسُوم»[5].

وقالعليه السلام من كتاب الى معاوية: «فَإِنَّكَ وَالله مَا عَلِمْتُ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ»[6].

واستعمل الامامعليه السلام الكناية القرانية فعبر بها عما يستقبح به التصريح مثل قوله ناصحا: «.. فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلَامِسْ أَهْلَهُ ،فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ

١- المؤمنون: ١٣. وينظر في تفسيرها: الطبري، جامع البيان: ١٨/ ١٣.

٢- البقرة: ٨٨.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ٣٦٤.

٤- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١١٧. السمعاني، تفسير السمعاني: ١/ ١٠٧.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٨٧.

٦- المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٢.

كَامْرَأَتِه»[1].

ولاريب في أن هذا من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[2]، كناية عن الوطء.

وكثيرا ما يعدل التعبير القرآني عن التصريح بمعاني مباشرة النساء إلى الكناية عنه[3] بكنايات مختلفة يقتضيها السياق كالملامسة والمباشرة وكلها تتسم بالإشارة والتلميح اللائق بسمو القرآن، وعفة اسلوبه عند تعبيره عن التلاقي الجنسي .

وفي مثال آخر، قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً، وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ»[4]، فقوله الأخير كناية عن البرص الذي يستقبح العرب ذكره .

وجاءت هذه الكناية من قبل في قوله تعالى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾[5]، والسوء الرداءة والقبح في كل شيء[6]، كني به عن البرص «والبرص أبغض شيء الى العرب وبهم عنه نفرة عظيمة وأسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بأن يكنى عنه»[7].

ووقعت كنايات اليد في القرآن الكريم كثيرا بمعنى البخل كقوله تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٠١.

٢- النساء: ٤٣. ظ. الراغب، المفردات: ٤٥٤.

٣- ظ. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ١٤٢. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي: ١١٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢١.

٥- طه: ٢٢.

٦- ظ. الراغب، المفردات: ٢٥٣.

٧- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٤٦.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1]، فالغل كناية عن البخل ومبسوطتان كناية عن الكرم وجاء بلفظة اليد مثناة رغم إفرادها في أول الآية ليكون أبلغ في السخاء والجود [2].

وأخذ الإمام عليه السلام بهذه الكناية فقال من خطبة في التوحيد:

«وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَه»[3].

وتوسع الإمام عليه السلام في استعمال هذه الكنايات بمعنى آخر، مثل قوله في بيعته بالخلافة: «وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا»[4].

لأن البيعة تتم بالمصافحة ببسط اليد وكفها يعني إعراض الإمام عليه السلام عنها وزهده فيها.

ومثل قوله في موضع آخر:

« فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ»[5] وبسط الأيدي هنا كناية عن القدرة والسيطرة، وكفها كناية عن القصور والمنع.

٢ ـ تصوير حالات النفس الإنسانية:

من الكنايات التي أخذها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم تلك التي تصور حالات النفس المختلفة من خوف أو أمن ورضا أوغضب وجبن أوإقدام وندم أو

١- المائدة: ٦٤.

٢- ظ. الزركشي، البرهان: ٢/ ٣٠٨. ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ١٣٣ـ ٢٠٠.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢٣.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٥٥.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٣٤.

حسرة.قال الإمام عليه السلام مصورا لحظات من حضره الموت:

«وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا ... فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً، عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا، وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ، حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِم»[1] .

وفي كلام الإمام عليه السلام هذا كنايات كثيرة لأن ايماءات الإيحاء التي توفرها الكناية أبلغ من لغة التصريح[2] .

فقوله: (أغمض) توحي بتساهل هذا الإنسان أيام عافيته في اكتساب الأموال «بتأويلات ضعيفة في استحلالها»[3]، وهي من قوله تعالى:

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [4].

والغمض هو النوم العارض لذا كني به عن التساهل والتغافل [5].

والإغماض يوحي بتجاهل الموضوع الذي يقدم عليه الإنسان، فهو مع عرفانه به، يغمض عنه، كما يغمض الباصر عما لايريد رؤيته، فهو يرتكبه جزافا، ويحاوله غير مبال ولا متورع.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٠.

٢- ظ. جابر عصفور، الصورة الفنية: ٧٨.

٣- محمد عبدة، نهج البلاغة: ٢/ ٢١٢.

٤- البقرة: ٢٦٧.

٥- ظ. الراغب، المفردات: ٣٦٥.

وقوله: (يردد طرفه) كناية عن كثرة النظر وتكراره لوجوه أهله .

ومثل هذا قوله عليه السلام: «وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي»[1]، والترامي هو لحظ بعضهم بعضا .

أما قوله عليه السلام: «يعض يده» فهي من الكنايات التي جاءت في القرآن الكريم وهي تصور حالة الندم عند أبناء البشر فقد وردت في موضعين نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[2] .

ويذكر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ان«عض اليدين بالأنامل، والسقوط في اليد، وأكل البنان، وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف»[3] .

وتكررت هذه الكناية في موضع آخر من قوله تعالى:

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[4] .

وفي كناية أخرى قال الإمام عليه السلام:

« إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ»[5] .

ودوران الأعين وصف حقيقي أراد ما يلزم عنه وهو الحيرة والتردد والخوف[6] .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٢٢٥.

٢- الفرقان: ٢٧ .

٣- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٢١٨ .

٤- آل عمران: ١١٩ .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٢ .

٦- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٧٩ .

وقد وقعت هذه الكناية في التعبير القرآني في قوله تعالى:

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [1] .

فحال من ينزل به الموت الذهول والحيرة وشخوص البصر وعدم اطرافها من الخوف والفزع ،وهذه حالة المنافقين عندما يدعون الى الجهاد كناية عن جبنهم [2] .

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [3] .

والترائي كناية عن التقارب والتداني فهو تقارب الأشخاص [4].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [5] .

فالترائي هو التقارب الى درجة رؤية بعضهم بعضا والنكوص كناية عن رجوع الفار القهقرى على قفاه هاربا[6].

وأخذ الإمام عليه السلام كناية النكوص للدلالة على الهرب فقال عليه السلام من كتاب الى معاوية:

«وَأَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَات فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ»[7].

١- الأحزاب: ١٩.

٢- ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٨/ ١٤٢.

٣- الشعراء: ٦١.

٤- ظ. الشريف الرضي، تلخيص البيان: ٢٥٦.

٥- الأنفال: ٤٨.

٦- ظ. الطبري، جامع البيان: ١٠/ ٢٨.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٣.

والتولي على الادبار كناية عن الفرار وقد جاءت في القران كثيرا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

واستعملها يصف نصرته عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله:

«وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ، الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا»[2].

وتأخر الأقدام كناية عن التردد والنكوص كناية عن الفرار.

من كل ما سبق بدا أن للكناية القرانية أثرا واضحا في الكشف عن خبيئات النفس ورصد حالاتها فكان معينا آخر استقى منه الإمام عليه السلام كلما توخى التعبير بلغة الايحاء .

* * *

١- الفتح: ٢٢.

٢- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٤٥٨.

الفصل الثالث
جرس الألفاظ

توطئة:

الجرس في اللغة هو النغم وجرس الحرف نغمته [1]، «وجرس الكلام: نغم به» [2]، وفي الاصطلاح يرتبط الجرس بفصاحة اللفظة ومدى استحسانها أو استقباحها فـ«الذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح» [3] ذلك لأن المفاضلة بينهما «تكون في جرسهما أو صوتهما لا في دلالتهما على المعنى» [4].

وبالتركيب النغمي لجرس الألفاظ يتشكل الإيقاع بحركات منتظمة تتآلف في مجموعات متساوية ومتشابهة [5]، بمعنى أن هناك بعدين اساسيين يحددان طبيعة الإيقاع ومكوناته هما الحركة والتنظيم، فهو«تردد ظاهرة صوتية على مسافات زمنية محددة النسب» [6] .

١- ظ .ابن سيده، المخصص: ٢/ ١٤٢.

٢- الزمخشري، أساس البلاغة: ١١٨.

٣- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ١١٥.

٤- جميل سعيد، دروس في البلاغة: ١٠٧.

٥- ظ. شكري عياد، موسيقى الشعر العربي: ٥٣.

٦- مصطفى جمال الدين، الايقاع في الشعر العربي: ٤٥. وينظر: كمال أبوديب، البنية الايقاعية للشعر العربي : ٣٠٦ .

وفي الحركة يتحدد الجانب المادي للإيقاع أي حركة الوحدات الصوتية في بعد زماني معين، وفي التنظيم يتحدد الجانب الذهني الذي يحكم العملية الإيقاعيـة مـن حيث التماثل والتوقع [1]، «فهو التناغم الذي يقيمه الفنان بينه وبين المخاطب عن طريق الموضوع، هو الموسيقى المنبعثة من داخل الصياغة، وهو ليس مجـرد نغمـات مكررة فقط، بـل هـي تـصوير لجـو المعنـى طلبـا للتواصـل المـستمر بـين المـتكلم والمخاطب والموضوع»[2] .

ولعل أظهر خصيـصة في شـكل التعـبير القرآنـي هـي في تـوافر التـشكيلات الصوتية فيه على ايقاعـات نغمية تتساوق بطريقة منتظمـة مـع دلالاتهـا[3]، فهـي «وسيلة سخرها القرآن العظيم بغية تأدية الغرض الـديني ... فكـان أن جعـل منـه أداة للتمكين والتأثير قصد الاستجابة والإذعان. وهو بهذا، آل إيقاعاً قرآنيـاً مميـزاً في رصف حروفه، وترتيب كلماته وبديع نظامه، دون كل ترتيب وكل نظام تعاطاه الناس في كلامهم المنظوم أو المنثور. إنها الميزة التي جعلت منه خطابـاً يتعـالى علـى التبديل والتغيير»[4] .

وهذه المسحة النغمية قد حار في توصيفها العرب حين سمعوها أول مرة من النبي محمدﷺ، لذا كانت دائرة الشعر مما حصروا فيه التعبير القرآنـي باعتبـار تـوافر الـشعر على الايقاع وقيامه عليه، ولأنه الشكل الأقرب الى أذهانهم وهم بعد يعنون «بموسـيقية الكلام لأنهم لم يكونوا أهل كتابـة وقراءة بل أهل سمـاع وإنشاد»[5].

١- ظ. فؤاد زكريا، مع الموسيقى: ٦١.

٢- منير سلطان، البديع تأصيل وتجديد: ٢٣.

٣- ظ .محمد حسين الصغير، الصوت اللغوي في القرآن: ١٦٤.

٤- محمد حريز، البنية الإيقاعية وجماليتها في القرآن، مجلة التراث العربي، العـددان: ٩٩و١٠٠، ٢٠٠٥م .

٥- ابراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ١٩٩.

ولكنّ الذي سمعوه ليس من جنس ما عهدوه من نظام الشعر الذي ألفوه، القائم على تنظيم صوتي موحد يلتزم به الشاعر من أول القصيدة الى آخرها، فليس الحال كذلك في القرآن الكريم، فأدبية الشعر مذابة في القرآن الكريم وليس هو بشعر قطعا، والإيقاع من صميم أدبيات الشعر .

ولأستاذنا الدكتور الصغير رأي في هذا الاتجاه فهو يرى: «أن القرآن ليس شعرا، وإن اشتمل على جميع بحور الشعر وأوزانه من الرجز الى المتدارك الذي تداركه الأخفش على الخليل بن أحمد الفراهيدي، فالرجز المتمثل في نماذج كثيرة من القرآن أبرزها قوله تعالى: ﴿اذهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [1] .حتى المتدارك الذي يمثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [2]، وكلاهما بحران من بحور الشعر إلا أننا لانستطيع أن نسميهما شعرا، ولا اتفق أن قال ذلك أحد، كما يقولون في الرجز لمنظومة ابن مالك (ت٦٧٢هـ) التي يبدؤها بقوله:

(الرجز)

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

وكذلك لا يسمون الآية الأولى من سورة الكوثر شعرا كما يسمون بذلك قصيدة السيد رضا الهندي ـ مثلاـ في أمير المؤمنين عليه السلام ومطلعها[3]:

(المتدارك)

أمفلج ثغرك أم جوهر   ورحيق رضابك أم سكر

فهذا شعر وذلك قرآن، وكذلك لا نسمي قصص القرآن وعبره وأمثاله وتواريخه وتشريعاته وحديثه عن الكون والخلق والحساب والثواب والعقاب

١- طه: ٢٤.

٢- الكوثر: ١.

٣- السيد رضا الهندي، ديوانه: ٢٠.

والجنة والنار نثرا، وإن اشتمل على أغلب فنون النثر والأنواع الأدبية، كالقصة الطويلة والقصة القصيرة، والحكمة والأمثال والخطبة والجدل والحوار والمناظرة والحديث، والفن الأدبي والسجع والمقالة وسوى ذلك، وهذا كله يسمى قرآنا، ولا يقال بأنه نثر، ولهذين الملحظين المهمين كان الكلام العربي هو النثر والشعر وتوابعهما، وأما كلامه تعالى فهو القرآن وحده وكفى»[1].

إذن في التعبير القرآني توافقات نغمية ليست مقصودة بحد ذاتها بل اقتضاها السياق الدلالي الذي جاءت فيه هذه الألفاظ .

ومن هنا تتبدى في التعبير القرآني صيغة من التناسق الفريد بين التشكيل الصوتي للفظة وبين المضمون الدلالي لها بحيث يغدو الفصل بينهما ضربا من التعسف والتكلف .

بمعنى أن استبدال اللفظة المنتقاة التي وفرت إيقاعا ما بلفظة أخرى سيخل بأداء المعنى إخلالا واضحا كما سيمر في البحث. ولكن ما الغرض من هذه الإيقاعات ؟

يمكن للإيقاعات الصوتية أن تكون نمطا من أنماط التعبير الفني «فللموسيقى دور هام في بنية الخطاب ولها علاقة مباشرة بالدلالات المتنوعة التي تتولد عنها»[2].

إنّ موسيقى الألفاظ تشكل جانبا كبيرا من التأثير في قضية التلقي، فلها الفضل في تهيئة الأذهان واستقطابها، وتفاعلها بعد ذلك مع ما يطرح إليها من موضوعات، فالنفس الإنسانية بفطرتها تميل إلى الإيقاع الصوتي المنتظم ،وتأنس إليه، وتقبل عليه، وهذا عين ما تريده التعبيرات الفنية من المتلقي: الإقبال ثم

١- مقابلة شخصية مع الدكتور الصغير في ٢٣/ رمضان ١٤٢٨هـ .

٢- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب: ٢/ ١٣٧.

التـــأثير، «ولاشك أن كلا من الشعر والخطابة، كلام قصد به أولا وقبل كل شــيء التأثير في العاطفة، وسر هذا التأثير يمكن أن يكون عن طريق الجمال في المعنــى، أو عن طريق الإيقاع والنغم في اللفظ»[١].

وفي النصوص الإبداعية تبدو موسيقى الألفاظ شيئا لافـتاً للنظر ولـذلك فإنّ «معنى القصيدة إنما يثيره بناء الكلمـات كأصـوات أكثـر ممـا يـثيره بنـاء الكلمـات كمعان، وذلك التكثيف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات»[٢].

كان العربي يـؤمن بقيمـة الأثـر الـصوتي، ومـا اهتمامـه بتكامـل الوحـدات الموسيقية في الشطر الواحد من نظام الوزن العروضي إلا دليـل علـى رهافـة أذنـه إزاء الموسيقى وشدة تأثره فيها .

وفي وسط هذه البيئة المعنية بالتشكيل الصوتي نزل القرآن الكـريم بإيقاعـات استشعرت معها الأذن العربية قيمة البناء الصوتي فيها، وتفاعلت معهـا، وتـأثرت فيها فآمنت به بعد ذلك وأيقنت بإعجازه، وكان إيمانه دليلا على تذوقه لهـذا الفـن المعجز[٣].

وقد أشار الباحـث الأمريكي جب (Gibb) في كتابه (الاتجاهـات الحديثـة في الإسلام) إلى أن الموسيقية الظاهرة في النظم الصوتي للغة القرآن الكريم، قـد أدت دورا لا حد له في تكييف عقل السامع وتهيئته لتلقي الدعوة الإسلامية [٤].

١- ابراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ١٩٧. وينظر: جابر عصفور، مفهوم الشعر: ٣٧٥.

٢- أرشيبالد مكليش، الشعر والتجربة: ٢٣.

٣- ظ. أحمد مطلوب، البلاغة العربية: ١٥.

٤- ظ. Modern trends in islam.H.A.R.Gibb the uni.chicago.١٩٧٥.P.٤، نقلاً عن السجع القرآني، هدى عطية: ١٣٩ .

وتأسيسا على ذلك نقول إن في التعبير القرآني بناء صوتيا دقيقا [1] أريد له أن يكون عاملا مهما في النفاذ إلى القلوب والكشف عن المعاني في ذات الوقت، لأن الترديدات الصوتية فيه ممتزجة أيما امتزاج بدلالاتها بحيث لا يمكن القول إن الإيقاع فيه يخص الشكل وحده وإن بدا خارجا عن الدلالة «فليس للنص وجود خارج صياغته بكل مستوياتها المختلفة»[2] .

هذه النظرة الشمولية للتنغيم الصوتي القرآني يمكن تلمس صداها في نهج البلاغة، فنهج البلاغة يبدو التنغيم فيه مشكلا على أساس من إتباع الطريقة القرآنية في تشكيلات أصوات الألفاظ .

بمعنى إنّ الآليات المعتمدة في البناء الموسيقي في نهج البلاغة هي نفسها في القرآن الكريم دون النظر إلى تلمس عين اللفظة القرآنية المستعملة في هذا البناء. وهنا سيبدو التأثير القرآني في شكله النغمي الكلي .

إنه تمثل أسلوب واقتفاء طريقة .

أي أنّ الشكل العام للبناء الإيقاعي وكثرة توافره في كلام الإمام علي عليه السلام تأثر واضح في إتباع البناء النغمي القرآني واعتماد آلياته في إقامته.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال، أنّ إتباع الطريقة القرآنية في البنية الإيقاعية على هذا النحو الكثيف ليس أمرا سهلا متاحا لكل أحد خاصة إذا تذكرنا أننا بصدد صياغة فكر جديد بعظمة الفكر الإسلامي لم تعهده الذهنية العربية من قبل من قبيل التوحيد وذكر الذات المقدسة وقضايا المعاد والعالم الآخر وغيرها .

إنّ جدة الفكر الإسلامي لابد أنْ تشغل القائل بها عن الأداء الفني الرفيع المقتفي للأسلوب القرآني، فلطالما سجل النقاد العرب القدماء الحصر والعي الذي

١- ظ. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٨٥.

٢- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية: ٣١١.

يلحق بالخطباء وهم يحاولون الإبانة عن فكرة ما في خطب الجمعة أو غيرها [1].

ولا ريب في أن هذه الأفكار الجديدة التي اشتمل عليها الدين الإسلامي ليست بجديدة على علي بن أبي طالب عليه السلام حتى نقول أنها يمكن أن تشغله عن الأداء البياني الرفيع أو يلتمس لها البناء الصوتي القائم على إثارة ذهن المتلقي وتنبيهه بكل أنماط التعبير الإيقاعي .

وذلك بيّن في كل خطب الإمام عليه السلام في التوحيد، وفي ساحات الحرب، فكل كلامه عليه السلام محمول على الارتجال «فقد كان الإمام علي عليه السلام يرتجل كلماته، يلقيها، في مجالس القوم خلاصات تأمل، وفي محافلهم خطبا تجيش في داخل الذات، فينطق بها اللسان عفو الخاطر، فتأتي محكمة (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق) »[2].

ولعل في تسمية خطبته بالشقشقية[3] فضلا عن ارتجالاته الكثيرة في نهج البلاغة مثلا يدل على تمكن الإمام عليه السلام من الإبانة مع توخي الصنعة الفنية في التعبير للوصول بكلامه الى أقصى درجات التأثير في السامعين وهو بعد «أول من عالج فن الخطابة معالجة الأديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب»[4].

ولعل ذلك من أسرار تمايز كلام الإمام عليه السلام المجموع في نهج البلاغة عن غيره من قالة البيان وسادة الخطابة، إذ لم نطلع على كلام آخر غيره ـ مستثنين النبي صلى الله عليه وآله طبعا ـ اعتمد البنية الإيقاعية القرآنية في أداء المضامين على هذا النحو الذي

١- ظ. الجاحظ .البيان والتبيين: ٢/ ٢٥٠.

٢- جورج جرداق، روائع نهج البلاغة: ٥ .

٣- ظ. الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة : ١/ ٣١.

٤- العقاد، عبقرية الإمام علي: ١٨١.

استكثر نسبته بعض الدارسين [1] إلى الإمام عليه السلام بحجة توافره على هذه الصنعة، متناسين كثرتها في القرآن الكريم .

آليات الجرس:

لآليات الجرس ظواهر فنية عدة تتمثل بمفردات فنية تشمل الإيقاع الموسيقي للسجع، والتأكيد على أنماط التكرار في الحروف والكلمات، وتقف وقفة طويلة متراصة عند الجناس في أنواعه المختلفة كلها، وتتمشى مع التوازن في أثره نغما صوتيا يستقطب القرآن أصلا، ونهج البلاغة تطبيقا في شتى مدارك الإمام علي عليه السلام لحقيقة التماس التوازن الفعلي في مسالك القرآن الدقيقة، وفي هذا الضوء سيكون الحديث التفصيلي لهذه الظواهر الكبرى:

الأول: السجع:

تعريفه وقيمته الموسيقية:

يعرف ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) السجع بأنه «توافق الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد»[2]. وينطوي السجع على زخم كبير من الإيقاع لأن فيه ترديدا صوتيا يفجأ ذهن السامع فيلتذ له ويستطيبه خاصة اذا وقع عفوا رهوا. وقد التفت ابن جني(ت٣٩٢هـ) الى ذلك من قبل وهو يتحدث عن الأمثال المسجوعة التي تكون لذة استماعها مدعاة لحفظها وسيرورتها[3].

١- ظ. أحمد محمد الحوفي، بلاغة الإمام علي: ٦٩ ـ ٧١. محمد حسين الجلالي، دراسة حول نهج البلاغة: ٧٣.

٢- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٢٧٥.

٣- ظ. ابن جني، الخصائص: ١/ ٢١٦.

بعبارة أخرى ان السجع يحقق لونا من التواصل بين المبدع والمتلقي فيتمكن من ايصال ما يبتغي من مضامين وإحداث التأثير فيه والتفاعل معه «بمعنى أن المبدع استطاع أن يؤدي دور المرسل الفاعل، ويكون المتلقي المستقبل المتأثر والمنفعل بالرسالة»[1].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان السجع من مميزات البلاغة الفطرية، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحكم والأمثال[2].

ووقع السجع كثيرا في التعبير القرآني فكان أحد أدواته الرئيسة في الايقاع الصوتي الموحي والمؤثر[3]، وهو يسمى أحيانا بالفواصل القرآنية .

ولا أدري الفرق بين السجع والفاصلة فكلاهما يؤدي الغرض الإيقاعي ذاته.

وكل الأمر أن النظرة الى السجع كانت فيها كثير من الريب، تارة بالنظر اليه على أنه منهي عنه مستشهدين بذلك بقول الرسول الكريم ﷺ:

«أسجعا كسجع الكهان»[4]، وتارة أخرى بالنظر اليه حلية عارضة لاشأن لها بالدلالة، فالرماني يراه صناعة لفظية غايتها العناية بالزينة الخارجية التي قد تخضع فيها الدلالة للإيقاع ومن هنا يفرق بين الفاصلة والسجع على أساس تبع المعاني للألفاظ ففي الفاصلة تتبع الألفاظ المعاني وفي السجع تنساق المعاني للألفاظ[5]، وتخلصا من ذلك الإشكال سموا السجع في القرآن فاصلة، ولم يكن العيب في

١- كريم الوائلي، الخطاب النقدي عند المعتزلة: ٢٣٣.

٢- ظ. زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع: ١/ ٧٥.

٣- ظ. هدى عطية ،السجع القرآني: ١٤٧ (رسالة ماجستير،جامعة عين شمس) .

٤- ظ. الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ٢٨٧. وينظر المصدر نفسه: ١/ ٢٤١.

٥- ظ. الرماني، النكت في إعجاز القرآن: ٨٩ ـ ٩٠. منير سلطان،البديع : ٤٢.

السجع بل في الذي لم يفهم هذا الفن .

وكيف ينهى النبي ﷺ عن السجع على إطلاقه وقد التمسه في بعض كلامه ﷺ، كقوله معوذا الحسن والحسين عليهما السلام :

«أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامة»[1] .

فهي ملمة، ولكنه لأجل إتباع الكلمة أخواتها قال (لامة) .كما إن عبارة النبي ﷺ نفسها مفسرة لنفسها فهو ينهى عن سجع بعينه معروف عند الجاهليين فيه أكاذيب ولي للألفاظ يسمى بسجع الكهان .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الترديد الصوتي في القرآن الكريم حقق ايقاعا صوتيا يتفاعل فيه الشكل مع المضمون ويمتزج فيه الصوت بالدلالة .وهو أسلوبه الأثير خاصة في قصار سوره التي يصفها المقدسي «كأنها حملات نارية يجري الكلام فيها بفقرات قصيرة رنانة يكثر فيها التسجيع»[2] .

وذلك بين في سورة مريم والطارق والبلد والمدثر والرحمن وغيرها. قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾[3] .

فقد وقعت الترديدات الصوتية مسجوعة في (الحاء والعين والدال والراء) في دلالة واضحة على أن السياق هو الذي جاء بهذه السجعات وأن المعنى هو الذي اقتضاها فكان ايراد السجع في الآيات الشريفة لم يكن على نحو الإلزام بحيث

١- قدامة بن جعفر، نقد الشعر: ٤٢. وينظر: العسكري: كتاب الصناعتين: ٢٦١.

٢- انيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية: ٤٨. وينظر: البصير، عصر القرآن: ١٠.

٣- العاديات: ٣ ـ ١١. وينظر تعليق العسكري عليها في: كتاب الصناعتين: ٢٦٠.

ينهك المعنى ويربكه .

فآيات القرآن لاتتقيد بالسجع اذا استثقله المعنى وكثيرا ما تنتهي بفواصل متقاربة غير مقيدة بالقوافي .

ولفظة (ضبحا) لا تؤدي معناها لفظة أخرى بهذه الكيفية، لأن الضبح وهو صوت أنفاس خيول الغزاة مرتبط بالعدو فلا يكون الا معه وكذلك القول في (قدحا) المجتلبة معمولا لصيغة الفاعل (الموريات)، و(صبحا) فكلها جاء به المعنى[1] .

وكي يكون السجع عالي النغمة بارزا لابد من إقامته على أساس من التوازن بين الفقرات القصيرة محافظة على تكثيف الصوت المكرور وعدم تشتيته ، لذلك في السور القصار لجد التنغيم الإيقاعي شديدا عالي النغمة بسبب إقامة السجع على أسلوب الفقرات القصيرة المتوازنة «والأصل في السجع إنما هو الإعتدال في مقاطع الكلام»[2] .

ووقع السجع كثيرا في كلام الإمام علي(عليه السلام) إذ «تحفل خطب الإمام بسجع كثير يضيف الى روعة التعبير وجودة الإلقاء وجلال الشخصية وسمو الفكرة نوعا مستطابا من الموسيقى .وفي رسائله وحكمه سجع أيضا»[3] . وهو العلامة الأبرز في كلام الإمام (عليه السلام) ، قال فيه العلوي (ت٧٤٩هـ)«فأما الأمثلة من كلام أمير المؤمنين فهي كثيرة، وله فيه اليد البيضاء والقدم السابقة»[4] .

ولاشك في أن الخطب المسجوعة ـ سجعا غير متنافر ـ لها رنين في قرارة

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٢٧٧.

٢- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٣- الحوفي، بلاغة الإمام علي: ١٥٠ .

٤- العلوي، الطراز: ٣/ ٣٠.

النفس يهزّ الأفئدة و يأخذ بمجامع الألباب، و أنّ لها نصف تأثير الشعر ـ إذ توافر فيها أحد شرطيه ـ وعلي عليه السلام في خطبه يبغي أن يلين القناة الجامدة و يجمع الأهواء الشاردة و يستهوي الافئدة المستعصية [1].

ولامجانبة للصواب اذا قلنا أن سبب علوق كلام الإمام عليه السلام في الأذهان وحفظه من الضياع هو في كثرة اشتماله على موسيقى سجعية كثيفة أخاذة سلك بها سبيل القرآن في سهولته وعدم قهر المعاني عليه، ذكر الجاحظ(ت٢٥٥هـ) انه «قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي، لم تؤثر السجع على المنثور، وتلازم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال: إن كلامي لو كنت آمل فيه إلا إسماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكن أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ اليه أسرع، والأسماع لسماعه أنشط، وهو أحق بالتنبُّه وبقلة التلفت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولاضاع من الموزون عشره» [2].

ودافع ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) عن كثرة السجع في نهج البلاغة فقال:

«واعلم أن قوما من أرباب علم البيان عابوا السجع، وأدخلوا خطب أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ماعابوه، لانه يقصد فيها للسجع» [3]. ويعلل الشارح هذا القصد بأنه «تكلف مستحسن كما أن الشعر متكلف في وزنه وقافيته» [4].

وبذلك فقد ارتفع ابن أبي الحديد بمستوى السجع الى مستوى الكلام الموزون الذي يتكلف عادة بايراده مع العناية بالوزن والقافية كالشعر، ولايعد الشعر في

١- ظ. الجلالي، دراسة حول نهج البلاغة: ٦٥.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ١٥٨. وينظر: زكي مبارك، النثر الفني: ١/ ٩٥.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٣٠.

٤- المصدر نفسه والصفحة.

حقيقته تكلفا، بل هي طبيعته في التركيب وكذلك السجع، وهو حسن لا عيب .

قال الإمام عليه السلام:

«الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَة وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ»[1] .

جاءت السجعات متنوعة الحروف في(التاء والميم والهمزة) ومقامة على فقرات قصيرة وعلى أساس من التوازن تكثيفا للموسيقى وإعلاءً لنغمها. ولأجل هذا التوازن بين الفقرات جاءت الفاظه بزنة واحدة من المفعولية (مقنوط، مخلو، مأيوس، مستنكف). ويبدو السجع في كلام الامام عليه السلام منسابا خاليا من التكلف «وإذا سلم من التكلف وبريء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه»[2].

ولم يكن السجع عصيا في الأداء الفني بتعبيرات الإمام عليه السلام عن مختلف المعاني حتى تلك التي توصف بالجدة والدقيقة مثل ذكر الذات المقدسة وقضايا التوحيد، فكان النبر بالقرائن السجعية عاليا. نحو قوله من خطبة في التوحيد:

«لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ، يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ»[3].

ومثل قوله في التوحيد: «وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ دَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ»[4] .

ويكثر السجع في كلام الإمام عليه السلام في لحظات اشتداد عاطفته وانفعاله

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٠٩.

٢- العسكري، كتاب الصناعتين: ٢٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٧١.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٦٤.

وحماسته فتنتظم بايقاعات سجعية متناسقة، قال الإمام بعد انصرافه من صفين:

«أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ، إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا، فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ »[1].

ولاشك أن هذا الكلام زاخر بالموسيقى تنوعت فيه آلات التنغيم فلم يكن السجع وحده محتكرا لايقاعاته، إذ كان للتوازن بين الفقرات أثر بين في إثراء النص بالموسيقى .

كما كان للترديدات الصوتية داخل الجملة الواحدة دورها في إضافة مزيد من التنغيم مثل لفظة (هداه وعاداه، وزن وخزن) الذي يسمى لزوم مالايلزم وهو: «أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفا واحدا»[2].

وهو يرد كثيرا في نهج البلاغة فكلام الإمام عليه السلام مملوء منه [3].

أما قوله: (استتماما واستسلاما واستعصاما، لا يضل ولا يئل) فيطلق على هذا الضرب البديعي الترصيع وهو: «أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٢٦.

٢- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٦٥.

٣- ينظر أمثلة في : العلوي، الطراز: ٢/ ٢١٠.

مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية»[1].

ويبدو أن الإمام عليه السلام يميل الى أسلوب السجع القصير الذي رصده العلوي (ت٧٤٩هـ) في كلام الإمام عليه السلام فقال عنه «وهو أضيق مسالك السجع .. ولكنه غير ضيق عليه لما خزن من كنوز البلاغة ما إن مغالقه ليصعب على أكثر الخلق فتحها»[2].

ووعورة مذهب السجع القصير«لأن المعنى اذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه لقصر تلك الألفاظ وضيق المجال في استجلابه»[3].

وليس هناك ما يعيب هذه التنغيمات الإيقاعية رغم القصد الى توخيها إذ لم يخف زخرف الكلام عيبا يمكن وضع اليد عليه، يقول الدكتور زكي نجيب محمود عن التكثيف الموسيقي في كلام الإمام عليه السلام : «أما محصول المعنى لا أدري كيف انكمش أحيانا وراء زخرفه الكثيف، كلا، لست أعني بزخرف الكلام هنا طلاء يزين به ليخفى على الناس هزاله، بل أعني طريقة في اختيار اللفظ الصلب العنيد الذي لا يقوى على تشكيله إلا إزميل تحركه يد صناع»[4].

ولهذا الثراء الايقاعي جذوره في القرآن الكريم، فالسجع القصير أمثلته كثيرة في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى:

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾[5].

١- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٦١. وينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: ٤٣١.

٢- العلوي، الطراز: ٣/ ٣١.

٣- ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٣٦.

٤- زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول: ٣١.

٥- المرسلات: ١ ـ ٤.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [1].

إذن السجع القائم على التوازن من آلات التنغيم الرئيسة في التعبيرات القرآنية، وقد يرد لزوم مالايلزم في بعض آيات القرآن ليضيف مزيدا من الرنين الصوتي، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ [3].

وهذا مما أخذه الإمام عليه السلام فقال في صفة الدنيا:

«قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَاللهِ ظِلًّا مَمْدُوداً، إِلَى أَجَلٍ مَعْدُود» [4].

ولاريب في أن الإمام عليه السلام يؤثر السجع والإزدواج ويتوخى إدخاله في كلامه ويتكلفه تكلف الشعراء في القصد الى نظم القصيد، يقول الإمام عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ، كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ» [5].

فقد خفف الهمز في لفظة (وبي) إذ أصلها (وبيء) التماسا للقرينة السجعية لـ(دوي)، وشدد الياء في لفظة (دوي) والأصل فيها التخفيف (دو) للسبب ذاته.

بينما أورد الإمام عليه السلام لفظة (وبيء) مهموزة في موضع آخر ايثارا للإيقاع

١- المدثر: ١ ـ ٧.

٢- العلق: ١ ـ ٢. وينظر: العلوي، الطراز: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠. ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٢٧٢.

٣- الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٣٤.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٤١٤.

السجعي فقال عليه السلام: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ»[1].

وإذا لم يلتمس لها قرينة سجعية يأتي بها على أصلها المهموز مثل قوله ناصحا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئ»[2].

وقوله يذكر حقه المضيع: «وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً»[3].

ومن التماس الإزدواج في الجمل المسجوعة قوله يذكر الله تعالى:

« فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ»[4].

فهو آثر (كفاء) والوجه فيه كفاية والهمز لاوجه له هنا سوى الاتباع لها بـ(شفاء) كما قالوا الغدايا والعشايا .

وقوله في رسالة الى ولده الإمام الحسن عليه السلام:

«مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ الْمُقِرِّ لِلزَّمَان»[5].

فقال: (الفان) بحذف الياء مستغلا الوقف طلبا لسجعها بـ(الزمان) .

ولاعيب في ايثار السجع مادام المعنى غير مقهور عليه، ومتى استشعر الإمام عليه السلام ثقله في الكلام أعرض عنه وآثر الترسل مثل قوله:

«أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَانا»[6].

وكان يمكن للإمام عليه السلام أن يسجع (نهارا) بـ(جهارا) بدل (إعلانا)، ولكنه آثر

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩٢.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٩.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٣٨٢.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ١٨.

٥- المصدر نفسه: ٢/ ١٧٩.

٦- المصدر نفسه: ١/ ٧٦.

أن يجري على طبعه، برغم أنه يتبع (جهرا) بـ(سرا) دائما في كلامه [1].

مما سبق بدا أن السجع أحد أهم أدوات الإمام عليه السلام في التنغيم الإيقاعي، يطلبه ويتوخاه مقتفيا فيه أثر الأسلوب القرآني، وهو عنده قائم على التوازن والازدواج ويعمل على ربط الأداء بالمضمون .

الثاني: التكرار:

أصل التكرار في اللّغة من الكرّ بمعنى الرجوع، ويأتي بمعنى الإعادة والعطف. فـ(كرّر) الشيء وكركره أي: أعاده مرة بعد أخرى [2].

وقد يأتي له تصريف آخر هو التكرير، يقول الجوهري: الكرّ: الرجوع، يقال: كرّرت الشيء تكريرًا وتكرارًا [3].

وأما في الإصطلاح، فالمقصود به: تكرار كلمة أو لفظ أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة ما، وذلك إما للتوكيد، أو لزيادة التنبيه أو للتهويل، أو للتعظيم [4].

والتكرار فنّ قولي من الأساليب المعروفة عند العرب، بل هو من محاسن الفصاحة [5]، قال الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مبيّنًا الفائدة منه: «إن الناس لو استغنوا عن التكرير ـ التكرار ـ وكفوا مؤونة البحث والتنقير لقلّ اعتبارهم. ومن قلّ اعتباره قلّ علمه، ومن قلّ علمه قلّ فضله ...» [6].

١- ظ. الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢١٦، ٢/ ٢٥٨.

٢- ظ. ابن منظور، لسان العرب: كرر.

٣- ظ. الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: كرر. الفيروز آبادي، القاموس المحيط: كرر.

٤- ظ. ابن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديع: ٥/ ٣٤ ـ ٣٥.

٥- ظ. السيوطي، الإتقان: ٣/ ١٧٩.

٦- الجاحظ، رسائل الجاحظ: ٣/ ١٨١.

والتكرار في القرآن كثير قسمه الدارسون الى نوعين موصول ومفصول . فالموصول تتكرّر فيه الكلمات، كما جاء في قوله تعالى:

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ [2].

أو المقاطع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [3] .

أو الآيات، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[4].

وأما التكرار المفصول، فهو ما وقع فيه الفصل بين المكرّرين[5] .

وهو يقع إما في سورة بعينها، كما جاء في قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [6]. والذي تكرّر فيها ثماني مرات.

أو قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ الله﴾[7]، والذي تكرّر فيها خمس مرات. أو قوله تعالى في سورة القمر:

١- المؤمنون: ٣٦.

٢- الإنسان: ١ ـ ١٦.

٣- الفجر: ٢١ ـ ٢٢.

٤- المدثر: ١٩-٢٠. ظ: القيامة: ٣٤-٣٥. النبأ: ٤-٥. الإنفطار: ١٧-١٨.الانشراح: ٥-٦. التكاثر: ٣-٤.

٥- الزركشي، البرهان: ٣/ ١٥ - ١٦. وينظر: السيوطي، الإتقان: ٣/ ١٨٠.

٦- الشعراء: ٩.

٧- النمل: ٦٠.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [1]، والذي تكرّر أربع مرات في السورة.

أو قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [2]، والذي تكرّر فيها إحدى وثلاثين مرة.

أو قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[3]، والذي تكرّر فيها عشر مرات .

ولما كان التكرار ظاهرة بينة في التعبير القرآني فقد بحثت فوائد ايراده وغايات مطالبه، كما ذكر ذلك الزركشي (٧٩٤هـ) والسيوطي (٩١١هـ)[4]. فمن فوائده: التقرير، وفي التكرير التقرير، وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [5].

ومنها: التأكيد، كقوله تعالى، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[6]. فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم .

وقال القرطبي: «قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم في التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم في الاختصار

١- القمر: ١٧.

٢- الرحمن: ١٣.

٣- المرسلات: ١٥.

٤- ظ. الزركشي، البرهان: ٣/ ١٥ ـ ١٦. السيوطي، الإتقان: ٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

٥- طه: ١١٣.

٦- الكافرون: ١.

إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد»[1]، ومثله في القرآن كثير .

ومنها: التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[2]. فإنه كرر فيه النداء زيادة في تنبيههم.

ومن فوائد التكرار ومسوغات الإتيان به الإحتراز من إطالة الكلام، فيعاد الأول تطرية له وتجديداً لعهده، كقوله تعالى:

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

ومنها: التعظيم والتهويل، نحو قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[4]

وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[5] .

إذن التكرار لم يرتبط لدى مفسري القران بالطبيعة الصوتية لآيات القران الكريم ولم يبحث على أساس أثره في إحداث الايقاع الصوتي بل انصب وكد الدارسين القدماء لتفسير القران على البحث عن الفائدة المعنوية للتكرير والدفاع عنه ونفي وجوده على أساس إعادة المعنى ذاته .

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٢٦.

٢- غافر: ٣٨ ـ ٣٩.

٣- آل عمران: ١٨٨. وينظر: النحل: ١١٩. يوسف: ٤.

٤- الحاقة: ١ ـ ٢.

٥- القارعة: ١ ـ ٢.

وليت مفسري القران ربطوا بين التكرار اداة تنغيم وبين أثره الدلالي لكان ذلك أوقع في الدفاع عن فائدته، فللقرآن سحره الخاصّ به، حتّى إنّه يؤثّر في الّذين لا يعرفون معانيه من خلال نغمه وهيئة أدائه، وقد التفت إلى هذه الناحية الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الذي قال: (وقد بكى ما سرجويه من قراءة أبي الخوخ، فقيل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به) ؟قال: «إنما أبكاني الشجا»[١].

ويبدو أنّ القدامى أشاروا إلى بعض آثار التنغيم، ولم يعرفوا كنهه، غير أنّنا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام للدّلالة على المعاني المختلفة[٢].

وقد أدرك الفلاسفة الدور الّذي يؤديه التنغيم في الكلام. وجاء حديثهم عن ذلك في سياقات متعدّدة، فالفارابي (ت ٣٣٩هـ) مثلاً قسّم الألحان الإنسانية على ثلاثة أصناف صنف يكسب النّفس لذاذة، وصنف يفيد النّفس في التخيّل والتصوّر للأشياء، وصنف يكون عن انفعالات، وعن أحوال ملذّة مؤذية[٣].

ويعدّ ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) نغم الجملة ذا وظيفة تميزية من حيث الدّلالة الإبداعية، فيتحدّد بما نسميّه (النبرة) نوع الجملة إن كان نداء وتعجبّاً، أو سؤالاً، فقد وضع تصوّرا شبه كامل للتنغيم، تنظيراً وتطبيقاً، ودرس هذه الظاهرة دراسة جدّية علمية، فوصف الأصوات، وكيفية حدوثها، وأسباب اختلافها، وكيفية إدراكها في وصف العوالم النّفسية التي تقتضي الإبانة عمّا في النّفس والانفعالات

١- الجاحظ، الحيوان: ٤/ ١٩١.

٢- ظ. العلوي، الطراز: ٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨ .ابن الأثير، المثل السائر: ٣/ ١٩ .الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٣٤٩. وينظر: رمضان عبد التواب، المداخل إلى علم اللغة: ١٠٦. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة: ١٦٤.

٣- ظ. الفارابي، الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس خشبة: ٦٢ ـ ٦٣.

وأثرها في التنغيم، والأغراض التي يصدر الكلام عنها[1].

ولاشك ان لاستعادة الوحدات الصوتية دورا لايخفى من التنغيم يضفي على النص مزيدا من التنبه من خلال الاثراء الايقاعي .

وفي القـران الكـريم كـان التكـرار واحـدا مـن اكثـر الوسـائل وضـوحا في التنغيمات الايقاعية، إذ الحروف والألفاظ والجمل المكرورة تشيع بشكل لافـت في التعبيرات القرآنية.

وقد جاء التكرار في سـورة الرحمن والقمر والمرسلات وغيـرها كمـا مـر آنفا.

أنماط التكـرار:

يمكن دراسة أنواع التأثير القراني بنهج البلاغة في التكرار من خلال ما ياتي:

ا ـ تكـرار الحـرف:

لاشك أن استعادة صوت الحـرف يثـري العبـارة بمزيـد مـن التنغـيم[2]. وفي التعبير القراني نجد الحرف المكرور أسهم بشكل واضح في إضفاء الايقاع الـصوتي مثل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَـهِ النَّـاسِ * مِـنْ شَـرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [3].

فقد تكرر حرف السين كثيرا في السورة المباركة ولتكراره معنى ما، فلاشـــك

١- ظ. ابن سينا، الشفاء، الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم: ١٩٨.

٢- عبد الله الطيب، المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها: ١/ ١٢٦.

٣- الناس: ١ ـ ٦.

«أن في القرآن ايقاعا موسيقيا متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان»[1]، وهو هنا أضفى على السورة مناخا من الهمس الخفي المناسب لصورة الوسوسة ومس الجن .

وأمثلة تكرار الحرف في القرآن كثيرة منها مثلا قوله تعالى:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾[2].

فقد وفر تكرار حرف القاف مزيدا من التنبه لما له من وضوح وقوة كونه حرف طبقي جهوري[3].

وقد يمهد لتكرار الحرف في الفاصلة القرانية بشكل يضفي على النص ايقاعا خفيا لايبين الا بعد نظر، قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾[4].

ففي كل سجعة من أسجاع الفواصل القرآنية نرى ثمة صوتا فيها يمهد له بصوت يسبقه فإذا استعيد تحصل معه إيقاع لذيذ يكاد لا يستبين، في لفظة (صدري) مهد لصوت الراء بحرفين ولـ(أمري) بحرف ولصوت النون بحرف في

١- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ٨٦.

٢- الانشقاق: ١٦ ـ ١٩. وينظر قوله تعالى: ﴿فاذا فرغت فانصب﴾ الانشراح : ٧، مريم : ٦.

٣- ظ. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٣٠.

٤- طه: ٢٥ ـ ٣٨.

(لساني). وهكذا في كل الألفاظ التي انتهت بها الفواصل القرآنية.

وقد يفصل بين هذه الضربات الصوتية المكرورة بفاصل يخفف وطأة ثقله على الأسماع فتلتذ له وتستسيغه وتقبل عليه النفس، مثل قوله تعالى:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [1].

فلاشك أن توسط لفظة (في، خيفة) بين هذه السينات المكرورة قد خفف من حدة صفيرها فأكسبها رنة لذيذة تأنس اليها النفس فتستشعر معها همسات هذا التوجس الذي حدث به نبي الله موسى عليه السلام نفسه.

ومثل هذه التنغيمات الصوتية نجد لها أثرا في نهج البلاغة، نحو قول الإمام علي عليه السلام: «حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَل»[2].

تكرر حرف اللام بشكل لافت وبرغم أن اللام من الحروف السهلة النطق التي لايسبب تكرارها ثقلا نجد في بعض سير نطقها تخفيفا لضرباتها كي لاتمل.

ومثل سهولة نطق اللام الميم، إذ كثيرا ما تتكرر في الفاظ متتالية في العبارة، مثل قوله عليه السلام: «بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ وَعِلْمٌ مُحكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، الْمَرْجُوُّ مَعَ النِّعَمِ»[3].

وفي القران تأتي الميم مكرورة كثيرا نحو قوله تعالى:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [4].

١- طه: ٦٧.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٢.

٣- المصدر نفسه: ١/ ١٣٥.

٤- الشعراء: ٣٨ ـ ٣٩.

ومن اللام المكرورة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وقد يجري تكرار الحرف بالتشديد على نبره وتضعيفه، وهو كثيرا ما يأتي في مضامين الهول والشدة مثل قوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾[2].

فقد جاءت الألفاظ شديدة الصوت عالية النبر مثل حرف الطاء والضاد والجيم والياء المشددة فضلا عن تضعيف حرف النون، وهي في كل ذلك معبرة خير تعبير عن مضمون الشدة والهول الذي ترسمه الآية الكريمة فجاء التشديد على الحرف مناسبا تماما للمضمون .

كما أن لتكرار النون قيمة تنغيمية لا تخفى فهو«حرف رنين يلائم رنين الألم اذا ردد في جمل متألمة»[3].

وجاء التشديد على النبر في الحرف أصدق تصوير لانفعال الإمام عليه السلام كقوله لأصحابه ساعة الحرب:

«فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ»[4].

فما بين تكرار حروف قوية ومفخمة كالدال والضاد والخاء فضلا عن تشديدها وبين ما يكتنف الحرب من جلبة وضجيج علاقة خفية يطلقها انفعال يلح على العاطفة التي تنتظم في أصوات متسقة.

١- النور: ٦١.

٢- مريم: ٦٨.

٣- محمد النويهي، الشعر الجاهلي: ١/ ١٠٠.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٨٧.

وعلى هذا قول الإمام عليه السلام: «وَ ايمُ الله لَتَحتَلِبُنَّهَا دَماً وَلَتَتبِعُنَّهَا نَدَماً»[1].

فلتكرار النون المضعفة أثر واضح في التشديد على جرس اللفظة تشديدا على الفكرة ذاتها .

أ- تكرار اللفظة:

ذكر في المقدمة انه لم يأت تكرار اللفظ في القران الكريم لغاية صوتية بقدر الاقتضاء الدلالي، فالتكرار اللفظي كما عرفه ابن أبي الإصبع(ت٦٥٤هـ) هو: «أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يرددها بعينها، ويعلقها بمعنى آخر»[2]، لذا وقع التكرار اللفظي عفويا بحيث لايؤدي لفظ آخر مكان اللفظ المكرور نحو قوله تعالى:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[3].

تكررت لفظة (ألقوا) أربع مرات وجاء تكرار الرابعة اتباعا لأخواتها وتشديدا على الفكرة من خلال مفاجأة السامع بهذه اللفظة إذ كان فعل الإلقاء محور التحدي بين سحرة فرعون والنبي موسى عليه السلام فكان تكرار لفظ (ألقي) مما يهز السامع ويفجؤه لما فيها من الاستعارة التي زادت حسنها المشاكلة كما يسميها الزمخشري (ت٥٣٨هـ) بقوله: «إنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات فسلك به طريق المشاكلة»[4].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٣٠.

٢- ابن أبي الاصبع، تحرير التحبير: ٢/ ٢٥٣.

٣- الشعراء: ٤٣ ـ ٤٦.

٤- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١١٣ . وينظر: الآلوسي، روح المعاني: ١٩/ ٧٨.

ولاشك أن المشاكلة في مثل هذا الموضع يستلذ لها المتلقي لأن «مما يميز المتلقي امتلاكه حاسة التوقع والانتظار، وكلما قدم له المبدع ما يخالف هذا التوقع وذاك الانتظار فإنه يمتلك قمة البيان الأسلوبي»[١].

ومثل هذا التكرار قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

فتكرار الفعل (وجد) من الفعل (لم يجده) وفر عنصر المفاجأة والسخرية معا فضلا عن إعادة الجرس ما بين المضارع المجزوم لـ(يجده) والماضي لـ(وجد) وهذا الأسلوب أبلغ لأن خيبة الكافر أدخل وحصوله على خلاف ما يؤمله أعرق»[٣].

ومن تكرار المفعول المطلق جاء قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾[٤].

ونسبة الكيد الى الله تعالى على سبيل مقابلة كيدهم بنصرة نبيه ﷺ وإعلاء دينه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٥].

أما التكرار والمخالفة بين لفظي الفعلين (مهل) و(أمهل) فهو«لزيادة التسكين منه والتصبير»[٦].

١- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية: ٢٤٠.

٢- النور: ٣٩.

٣- الآلوسي، روح المعاني: ١٨/ ١٨١.

٤- الطارق: ١٥ ـ ١٧.

٥- الشورى: ٤٠. وينظر في تفسيرها: الرازي، التفسير الكبير: ٣١/ ١٢١.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٧٣٨.

ومن مظاهر تكرار اللفظ التي تأسى بها الإمام عليه السلام سبيل التعبير القراني تكرار لفظ الجلالة، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]، فقد جاء ترديد لفظ الجلالة متساوقا مع النمو الدلالي فكان الاستئناف بالجملة الأخيرة«الله أعلم حيث يجعل رسالته» بمثابة تدرج في الرد والردع. [3]

والإمام عليه السلام يتعمد إعادة اللفظ نفسه من دون استعمال الضمائر التي يمكن ان تنوب عنه، كقوله:

«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ الله وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله، وَاقْبَلُوا بنَصِيحَةِ الله، فَإِنَّ الله قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ»[4].

ولاشك أن الاستعمال الصريح للفظ الجلالة أوقع في مواطن الايصاء من الضمائر الغائبة، فضلا عن التلذذ بذكر الله سبحانه .

ومثله قوله عليه السلام: «فَاتَّقُوا الله عِبَادَ الله وَفِرُّوا إِلَى الله مِنَ الله»[5].

فإدراك الفرق واضح بين هذا التصريح وبين القول بالمضمر مثلا: (عباد الله اتقوه وفروا منه اليه)، فضلا عن الأثر التنغيمي الذي جاء تبعا للمعنى في تكرار لفظ الجلالة.

١- المائدة: ٧.

٢- الأنعام: ١٢٤.

٣- ظ. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية: ٣٠٨.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٤١٦.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٦٨.

ونحوه قوله عليه السلام: «مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَه»[1].

ومن تكرار صيغ الجمع الذي لامفرد له، قوله عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ، أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ»[2]، فقد تكررت لفظة (القوم) وكان الأصل ان يقول بالإضمار بدل التصريح ولكنه تعمد ذلك قاصدا بـ(القوم) في الثانية والثالثة (الناس)، بينا قصد بـ(القوم) الأولى أصحاب معاوية .

وعنى بقوله: (اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون) أبا موسى الأشعري وعنى بالثاني الذي يكرهون عمرو بن العاص[3].

ويوفر الفعل المكرور في نص الإمام عليه السلام ايقاعا نغميا وتكثيفا دلاليا، وبذلك تتحد الدلالة الصوتية مع الدلالة الفنية في إبراز النص معمقا في كلتا الدلالتين، وبهذا يتلقى السامع نصا نابضا بالحركة والحيوية، ويتأصل الهدف المراد من ذلك في أجلى صوره كما في قوله عليه السلام من خطبة في أهل القبور: «فَإِنَّكُمْ لَوْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا»[4]، فهذا الحرص على تكرار الفعل (عاين) له مايبرره إذ هو محور الفكرة التي بصددها الإمام عليه السلام.

ولاشك أن هذا التكرار يذكر بتكرار الفعل (ألقي) في قوله تعالى الذي مر بنا: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[5].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٦٥.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ١٣٠.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠٩.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٦١.

٥- الشعراء: ٤٦.

وكثيرا ما يجري في داخل الجملة في نهج البلاغة تبادل في صيغ الأفعال مسبغا بذلك عليها مزيدا من الثراء الموسيقي، مثل إعادة القوالب الصرفية لصيغ البناء للمفعول وفعله المبني للمعلوم، كقول الإمام عليه السلام في خطبة الجهاد:

« يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُون»[1].

وفي وصف الزاهدين قوله عليه السلام : «يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا، وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيم»[2]،

وبرغم ثقل تكرار حرف الظاء والضاد إلا انها حافظت على سهولة نطقها في ألفاظها بفضل الفصل فيما بينها بألفاظ خففت من جرسهما وهي (اليهم، يحسبهم، مابالقوم). ومحل الشاهد في صيغة البناء للمفعول (خولطوا) وإعادة جرسها بفعلها (خالطهم).

وفي القرآن جاءت صيغ التكرار بهذا النحو من تبادل الصيغ، فأسبغت على النص جرسا نغميا، كقوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾[4].

فهذه التكريرات للمقاطع الصوتية للألفاظ كثفت من زخم الإيقاع ولفتت الانتباه الى دلالاتها.

ومن تكرار الأفعال تبادل الصيغ بين الأمر وفعله الحاضر، مثل قول الإمام عليه السلام لأصحابه: «وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُم»[5].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧٨.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٣.

٣- التوبة: ١١١.

٤- البقرة: ٢٧٩.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧٦.

أو بين الأمر والفعل المبني للمفعول كقوله عليه السلام: «اللهمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاء»[1]. وماثه يميثه ويموثه بمعنى أذابه[2].

أو بين صيغة الفعل المبني للمفعول وبين الفعل الماضي، كقوله:

«وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ»[3].

وبين الفعل الماضي نفسه مع تغيير جهة الإسناد، كقوله: «اللهمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي»[4].

ومن كل ذلك لاشك أن استرداد جرس اللفظ ذاته يضفي على العبارة ايقاعا، يشد السامع اليه ويهيئه لتقبل ما يلقى اليه من مضمون.

وتبع الإمام عليه السلام أسلوب القرآن في تكرار صيغ الأفعال داخل جمل الشرط التي تقع في جوابها، وهو نمط شائع في نهج البلاغة يبدو فيه القصد واضحا الى تكثيف الدلالة بتكثيف الجرس ذاته، كقول الإمام عليه السلام:

«وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَالله بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ»[5]، والسهم الأخيب هو القدح الذي لا نصيب له.

ومثل قوله: «كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَالله مِنَ السَّيْفِ أَفَر»[6].

إذن ثمة تعمد في إعادة هذه الألفاظ لأنها محور ما يدير عليه الإمام عليه السلام

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٧١.

٢- ظ. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث: ٣/ ٢٦٨.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٤٦.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٧١.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٨٣. ظ. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث: ٣/ ٢٦٨.

٦- المصدر نفسه: ١/ ٧٨.

معانيه، فضلا عن توافرها على النغم الصوتي.

وفي القرآن يكثر هذا النمط من التكرار .

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [١] ،وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [٢] .

ومن أنماط تكرار الألفاظ تكرار صيغ المصادر المشتقة من أفعالها وهو يسبغ على العبارة ثراء موسيقيا عاليا بسبب الإعادة المباشرة للمقاطع الصوتية للفظة فبذلك تجمع التنغيم في بؤرة محددة وتمنع تشتته فيبدو للسامع حاد النغمة عاليها، ولذا غالبا ما يأتي هذا الضرب من التكرار في حالات الإنفعال العاطفي كما في صيغ التشبيهات البليغة التي مرت في فصل سابق وصيغ الأفعال المطلقة.

ومما لاشك فيه أن لصدق عاطفة الإمام عليه السلام أثرا في انفعاله وتحمسه لما انطوت عليه نفسه من يقين ثابت وعزم لايلين، فعاطفته ثائرة جياشة تستمد دوافعها من نفسه الغنية بالانفعالات وعقيدته الثابتة فما تكلم الا وبه حاجة الى الكلام وما خطب الا ولديه باعث على الخطابة، وما حرصه على الإكثار من العبارات الإنشائية والتجانس بين الأسجاع وتوليد الايقاع الا صورة ظاهرة لهذا الانفعال العاطفي المشبوب [٣]، الذي يضغط على حركة المعنى في النص فيعيد ترتيب مقاطعه على نحو ايقاعي منتظم .

نحو قول الإمام عليه السلام يحذر من الفتنة: «وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ »[٤]، والبلبلة الهم ووسواس الصدر،

١- المطففين: ٣١.

٢- النحل: ١٢٦.

٣- ظ. صبحي الصالح، نهج البلاغة: ١٧.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٢.

والغربلة أراد بها الإمام عليه السلام التفرق الواسع لذا جاء جرسها ليقوي المراد من هذه المعاني «ولـم يـؤت بها للحـفاظ علـى السجع»[1].

واضاف الفعل (تساطن) مزيدا من الحركة والاضطراب بفعل جرس الحـرف (السين) الذي يدل صفيره على علو النبرة، فضلا عن شدة حرف (الطاء)[2].

إذن قد عمل تكرار مقطع (بلبلة) ولفظ (غربلة) و(سوط) على تأكيـد ذلـك التشتت والتفرق، في قدرة واضحة على ربط الجرس بالمضمون واللفظ بالمحتوى.

ويقول عليه السلام يصف الزاهدين: «قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ»[3].

فقد أعاد التشكيل الصوتي نفسه للفظة (برى) مؤكدا في ذات الوقـت دلالـة الفعل في شدة هزال أجساد المؤمنين من خشية الله .

وكل ذلك إتباع لأسلوب التعبير القرآني في مثل هذا التكـرار، كقولـه تعـالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُـمْ رُوَيْـداً﴾ [4]،وقولـه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [5]، وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [6].

ومثله كثير في التعبير القراني مضفيا على العبارة جرسا عاليا [7].

ولا أدعي أن هذا الأسلوب لم يرد على لـسان العـرب بـل هـو كـثير ولكـن

١- ابراهيم السامرائي، مع نهج البلاغة: ٨٦. وينظر: لسان العرب: بلل.

٢- ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ٦٢.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٤٤٣.

٤- الأحزاب: ٥٦.

٥- السورة نفسها والآية .

٦- طه: ٤٠.

٧- ظ. مثلا: المرسلات: ٤. الإسراء: ١٢ ـ ٧٠.

التعبير القرآني أصله وعمقه وجاء نتيجة طبيعية للمعنى ومن هنا تأثر الإمام علي عليه السلام أسلوب القرآن بسبب لا يمكن تغافله هو أن الشكل التعبيري محدد بالوظيفة التي يضعها له المعنى.

ومن تكرار الألفاظ تكرار صيغ الاستفهام تقريرا للفكرة وتأكيدا للجرس مما يثير في ذهن السامع إشارات تزيد من تنبهه وانشداده الى المتكلم، لذا نجد كثرته في الفن الخطابي كثرة لافتة لاعتماد الخطبة على الجرس النغمي للألفاظ أكثر من الفن المقروء وأعني به الرسائل .

يقول الإمام عليه السلام في احدى خطبه الوعظية: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً، أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ، أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ، أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِين..»[١]، وفي إعادة هذا الجرس وعظ يستبطن التهديد، وكثيرا مايقع تكرار اسم الاستفهام على جهة الوعيد والتهديد[٢]، نحو قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[٤].

وفي نص الإمام عليه السلام، أتاح تكرار (أين) تكرار ما بعدها من ألفاظ بأسلوب جديد يبدو فيه المعنى بحاجة الى التكرار بشكل طبيعي دون تكلف.

وقال الإمام عليه السلام: «أيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُون؟»[٥].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٤٣٣.

٢- ظ. ابن رشيق، العمدة: ٢/ ٧٣.

٣- القارعة: ١ ـ ٣.

٤- الحاقة: ١ ـ ٣.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٨٣.

وفي ترديد هذا الاستفهام ما لا يخفى من التقريع والتوبيخ.

بدا مما سبق أن التكرار بكل أنواعه من أكثر آليات الجرس استعمالا إذ توخاها الإمام عليه السلام في إسباغ التنغيم الصوتي على العبارة بأسلوب عمل فيه على ربط الأداء بالمضمون، متأثرا بمجمل ذلك بالأسلوب القرآني في الميل الى تنغيم العبارة وإيثار الجرس من دون الميل على المعنى.

الثالث: الجناس:

توطئة:

لم يختلف البلاغيون في أن المراد بالتجنيس اتفاق لفظين أو أكثر في الحروف، أو في بعضها [1]، فقد ذكر ابن المعتز(ت٢٩٦هـ) أن المجانسة هي «ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها وما يشتق منها»[2]، ويعرفه السكاكي(ت٦٢٦هـ) بقوله: «تشابه الكلمتين في اللفظ»[3] .

إذن هو صورة من صور التكرار وله«ما للتكرار من تأكيد النغم وتقويته»[4]، لأن هذا «الإشتراك اللفظي»[5]، يعني استعادة ترديدات صوتية بنسب زمانية منتظمة فيقوى جرس اللفظ ويسبغ على العبارة نغما يثير في الذهن منبهات تشده اليه«لأن اللفظ المشترك اذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر كان للنفس

١- ظ. العسكري، كتاب الصناعتين: ٢٤٩. ابن رشيق، العمدة: ١/ ٣٣١. علي الجندي، فن الجناس: ٣ ـ ١٢.

٢- ابن المعتز، البديع: ٢٥. وينظر: ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٢٤١.

٣- السكاكي، مفتاح العلوم: ٤٢٩.

٤- عبد الله الطيب، المرشد الى فهم أشعار العرب: ٢/ ٢٣٣.

٥- ماهر مهدي، جرس الألفاظ ودلالتها: ٢٧٠.

تشوق اليه»[1] .

لذلك فالجناس «صنف بلاغي يرجع الى جرس الكلمة وتأليف حروفها وانسجام هذا التأليف في النطق»[2]، ويبدو جماله فيما يلجأ اليه الجنس لاختلاب الأذهان «فبينما هو يريك أنه سيعرض عليك معنى مكررا ولفظا مرددا لا تجني منه غير التطويل والانقباض والسآمة، إذا هو يروغ منك فيجلو عليك معنى مستحدثا يغاير ما سبقه كل المغايرة وإن حكاه في نفس الصورة وذات المعرض، فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السارة اللذيذة التي أجدت عليك جديدا لم يقع في حسابك، ولا ريبة في أن كل طريف يفجأ النفس ويباين ما كانت تنتظره تتنزى له وتستقبله بالبشر وبالفرح»[3].

بيد أن روعة التجنيس في إفادته المعنى، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) «إن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحق»[4] .

وهذا يعني أن توخيه في الكلام يجعل قائله على خطر حدين لا وسط بينهما: إما الوقوع في حبالة التكلف وإما الإرتقاء بفن التعبير القولي وتلمس عناصر التأثير.

لذا يتطلب استعماله مهارة وبراعة في استدعاء اللفظ الفني في أداء المعاني، الأمر الذي«قد لا يقدر عليه إلا الاديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية»[5] .

١- السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٤٤. وينظر: ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز: ١١١.

٢- ابراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ١١٦.

٣- علي الجندي، فن الجناس: ٢٩ ـ ٣٠.

٤- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة: ١٢.

٥- ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر: ٤٥ .

ووقع الجناس في القرآن كثيرا فكان من أدواته الرئيسة في إغناء النص بالايقاع الصوتي وتقوية جرس ألفاظه [1].

وهو في القرآن العظيم عامل ثراء موسيقي باعثه المعنى وعائديته على اللفظ والمعنى معا، لذلك نجد وقعه على الأسماع لذيذا بسبب هذا الترابط الدلالي وما يبعث في الذهن من إثارة في ترديداته الصوتية، فهو كما يذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) «وإن كان أقرب ألوان البديع الى الحسن اللفظي لكنه في القرآن من محاسن الألفاظ والمعاني» [2].

فالجناس في التعبير القرآني معنى مؤدى بجرس منتظم وليس مجرد صيغ ألفاظ مكرورة، وهنا تبدو روعة التجنيس اللفظي فكلما كان منبثقا من المعنى كان وقع جرسه أشد تأثيرا في الأسماع وألذ.

وقد يترك عند قوة المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [3].

ولم يقل: (بمصدق) الذي يؤدي معناه مع رعاية التجنيس، لأن في (مؤمن لنا) من المعنى ماليس في (مصدق لنا) فمعنى «(فلان مصدق لي)، قال لي صدقت، واما (مؤمن) فمعناه مع التصديق إعطاء الأمن ومقصودهم التصديق وزيادة وهو طلب الأمن فلهذا عدل اليه» [4].

وقد ترك التجنيس في قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [5].

١- ظ .الزركشي ،البرهان: ٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥٥. السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٤٤.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٢٨٤.

٣- يوسف: ١٧.

٤- الزركشي، البرهان: ٣/ ٤٥٤.

٥- الصافات: ١٢٧.

فلم يقل: (وتدعون) لأن الفعل(تدع) أخص من(تذر) فهو بمعنى ترك الشيء مع اعتنائه نحو الإيداع فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ومن ذلك الدعة بمعنى الراحة [1].

وبعل هو علم لصنم كان لقوم الياس عليه السلام كمناة وهبل [2].

وأما (تذر) فمعناه الترك مطلقا أو الترك مع الإعراض والرفض الكلي وقذفه لقلة الإعتداد به [3].

ولاشك ان السياق يناسب هذا المعنى «فأريد هنا تبشيع حالهم في الإعراض عن ربهم وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض» [4].

وصيغ التجنيس كثيرة وكلها جاءت في القرآن كما زخر بها نهج البلاغة، إذ كانت من جملة ما توسل به الإمام عليه السلام في توخي الايقاع الصوتي وتقوية جرس الألفاظ.

لذا سيبدو التأثر النغمي لنهج البلاغة بالقرآن في طبيعة التأتي الى الوسائل التي من شانها إثراء النص بالجرس الصوتي، والى الكيفية التي انتهجها الإمام عليه السلام في توخي هذه التشكيلات الصوتية، فهي تشكل بمجملها صدى للموسيقى التعبيرية للألفاظ والعبارات القرآنية، وليس من استعمال المفردة القرآنية بذاتها .

فالتجنيس في نهج البلاغة اقتفاء طريقة وتمثل أسلوب، ولاغرابة فالإمام عليه السلام متأثر في كليات التعبير القرآني وجزئياته على حد سواء. فهو قد يتتبع البناء العام لأسلوب الصياغة القرآنية وقد يأخذ من أجزاء العبارة القرآنية ما يبني به جمله.

١- ظ. السيوطي، معترك الأقران: ١/ ٢٥٧.

٢- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٦٢.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ٥١٨.

٤- السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٤٤.

أنواع الجناس القرآني في نهج البلاغة:

كل ضروب الجناس القراني جاءت في نهج البلاغة فكان مما أثريت به عباراته بالجرس والايقاع، وهي كثيرة مثل:

١ـ الجناس التام:

وهو من أركان جرس الألفاظ في التجنيس، و«أعلى أنواع الجناس»[١].
يسميه القاضي الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) المستوفي بينا أطلق عليه ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) التجنيس الحقيقي[٢]، وصورته أن يتفق اللفظان المتجانسان «في أنواع الحروف وأعدادها وهيآتها وترتيبها»[٣]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[٤].

فقد وقعت استعادة الترديدات الصوتية نفسها في لفظة (الساعة) إذ تعني الأولى يوم القيامة وتعني الثانية مدة محدودة من الزمن، وقد كان «استعمال لفظة واحدة في هذين المعنيين المختلفين، فيه مفاجأة تثير الذهن وتنبهه، فيزداد وضوح إدراكه للمعنى»[٥].

بيد أن لقوة التلازم بين الأداء والمضمون أثره البين في عفوية التجنيس في الآية الكريمة وجماله، فلفظة ساعة الثانية مرتبطة بقوة بالفعل (لبثوا) حتى لا يمكن

١- الصفدي، جنان الجناس: ٢٠.

٢- ظ. القاضي الجرجاني، الوساطة: ٤٢. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة : ٢٢ ـ ٢٣. ابن الاثير، المثل السائر: ١/ ٣٤٣.

٣- الخطيب القزويني، التلخيص: ٣٨٨.

٤- الروم: ٥٥.

٥- عبد الواحد حسن الشيخ، البديع والتوازي: ٣٤.

أن تؤدي لفظة غيرها مؤداها فهم«قدروا وقت لبثهم ساعة على وجه الاستقصار له»[1]، لأن «الموعود بوعيد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها»[2]، بعكس المؤمن الذي يستكثر مدة لبثه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[3]، ومن هنا اشترط البلاغيون في استعمال الجناس التام وجوب إيراده في معنيين مختلفين بصيغة واحدة، فابن الأثير(ت ٦٣٧هـ) مثلا اشترط في حد التجنيس «اتفاق اللفظ واختلاف المعنى»[4].

وعلى تفسيره يدخل في الجناس التام قوله تعالى:

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5].

إذ (الأبصار) الأولى تعني الجارحة وفيه بيان لشدة تأثير البرق كأنه يكاد يذهب به ولو عند الإغماض أما الثانية فتعني البصيرة[6].

وليس في القرآن الكريم سوى هذين المثالين للتجنيس التام، وترجع ندرته بسبب قلة الألفاظ المتجانسة التي تحمل معنيين مختلفين، أو لأن من أدبيات كلام القدماء العرب أنهم «لم يطلبوها لحرصهم على غيرها [أي من غير التجنيس التام] وإنما كانت تقع عندهم اتفاقا»[7].

١- الطبرسي، جوامع الجامع: ٣/ ٢٠.

٢- الرازي، التفسير الكبير: ٢٥/ ٩٥.

٣- الروم : ٥٦ .

٤- المثل السائر، ابن الأثير: ١/ ٣٤٩ .

٥- النور: ٤٣ ـ ٤٤.

٦- ظ. الآلوسي، روح المعاني: ١٨/ ١٩٢.

٧- ماهر مهدي، جرس الألفاظ: ٢٨٢.

وفي نهج البلاغة القلة ذاتها، فلم يـر في كـلام الإمـام عليه السلام إلا في موضـعين، لأن الأصل المعنى ثم الصنعة لا توخي الصنعة على حساب المعنى .

نحو قوله عليه السلام من خطبة واعظا:

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ»[1] .

فقصد بلفظة (الشاخص) الأولى الراحـل الـذي يـشخص للـسفر، كقـولهم: «نحن على سفر قد أشخصنا أي حان شخوصنا»[2] .

وتعني الشاخص الثانية المرتقب المتلهف الى أمر أدهشـه فـ«الشاخص اذا فـتح عينيه وجعل لايطرف»[3] .

وكذلك وقع التجنيس التام في لفظة (متزود) فالأولى تعني الراحل المسافر عن الدنيا والثانية تعني الراحل اليها والقاصد لها [4] .

وقد أعانه في إخراج هذه اللفظة الى التجنيس التام تمكنه عليه السلام مـن اسـتعمال حروف الجر (الى) و(اللام) في هذه اللفظة .

ووقـع التجنـيس التـام في قولـه في أوليـاء الله: «وَ اسْـتَقْرَبُوا الْأَجَـلَ فَبَـادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَاحَظُوا الْأَجَـلَ»[5] . فقـد وقـع التجنيـس التـام في لفظـة (الأجل) إذ تعني الأولى المدة من الوقت وتعني الثانية (الموت) [6] .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٠٩.

٢- ظ. الزمخشري، أساس البلاغة: شخص .

٣- ابن منظور، لسان العرب: شخص.

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٧٦.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٦٥.

٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٥٥.

أ- الجناس الناقص:

يسميه ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) المشبه بالتجنيس، وهو «أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد»[١].

وذكر الخطيب القزويني(ت٧٣٩هـ) أن حروف اللفظين المتجانسين «إن اختلفا في أعدادها سمي ناقصا»[٢].

وهو في القران واحد من آلات الجرس الواضحة في ألفاظه، كقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[٣]، فقد وقع الجناس في لفظة (الساق) وتكرر تشكيلها الصوتي في لفظة(المساق) بزيادة حرف الميم .

ولاشك أن لتقوية الجرس في هذا التجنيس أثره في التلفت الى المعنى، وقد وفر تقديم شبه الجملة (الى ربك) المحافظة على هذا الجرس وهو تقديم يدل على معنى الإختصاص، في كون حصر مساقهم الى الله وحده[٤]. ونحو هذا قوله تعالى: ﴿كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٥]، فبين الفعل (كلي) ولفظ الجمع (كل) تماثل صوتي بين.

وذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾[٦]، فقال: «وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا، أو يضعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائدا على

١- ظ .ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٢٤٩.

٢- القزويني، التلخيص: ٣٩٠ .

٣- القيامة: ٢٩ ـ ٣٠ .

٤- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٦٦٣.

٥- النحل: ٦٩.

٦- النمل: ٢٢ .

الصحة فحسن، وبدع، لفظا ومعنى، ألا ترى انه لو وضع مكان (بنبأ) (بخبر) لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح لما في (النبأ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال»[1].

ويعني الزمخشري(ت٥٣٨هـ) بالزيادة المعنى الدقيق للفظة (النبأ) وهي تعني الخبر العظيم الذي جاء به الهدهد لنبي الله سليمان من عبادة غير الله[2].

واتخذ الإمام عليه السلام من هذا التجنيس وسيلة لتقوية جرس ألفاظه سالكا في إيراده بعفوية التعبير القرآني كقوله موصيا: «وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ»[3]، فبين (الى) و(الهك) جناس ناقص بزيادة أكثر من حرف ويسميه السيوطي (ت٩١١هـ) (المذيل)[4]، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾[5].

وأخذ من التجنيس القرآني قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾[6]، فقال من خطبة في المنافقين: « قَاتَلَكُمُ الله فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أ عَلَى الله فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَه»[7]، فالتجنيس الناقص وقع بين لفظي (من) و(آمن).

ومما جاء من اختلاف في الجرس في أول الكلمة قوله عليه السلام في وصف آل محمد صلى الله عليه وآله: «إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي»[8] .

١- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٣٦٥.

٢- ظ. ابن منظور، لسان العرب: نبأ. الطبرسي، مجمع البيان: ٧/ ٣٧٦.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٨١.

٤- ظ. السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٤٤.

٥- طه: ٩٧ .

٦- النساء: ٥٥.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٣٨.

٨- المصدر نفسه: ١/ ٢٨.

فقد تغاير الحرفان الأوليان في اللفظين المتجانسين (الغالي) و(التالي). وفي ذلك فضل من التنغيم بين في العبارة.

ومن اختلاف وسط اللفظين المتجانسين قوله عليه السلام مستغفرا: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظ»[1] .

وفي آخرهما قوله: «فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا»[2] .

ففي كل هذه التقلبات الصوتية المشتركة إغناءات نغمية للعبارة وتقوية لجرسها، ويبدو أن استعمالات هذا النوع من التجنيس كثيرة في نهج البلاغة، مثل قول الإمام عليه السلام: «وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْه»[3] ، ومثل قوله في وصف القرآن: «وَ مُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِه»[4]، وهو يشبه قوله تعالى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [5].

ويقول في وصف الدنيا: «أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ»[6] .

وفي موضع آخر: «لَا حَانَ حِينُكِ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي»[7].

فكلها تجنيسات أسبغت على العبارة ثراء نغميا امتزج امتزاجا مع دلالات ألفاظه.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١٤٦/١ .

٢- المصدر نفسه: ١٥١/١.

٣- المصدر نفسه: ٤٢/٢.

٤- المصدر نفسه: ٢٣/١.

٥- طه: ٩٤ .

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢٣٧/٢.

٧- المصدر نفسه: ٣٢١/٢.

٣ـ جناس التصحيف:

ويسمى جناس الخط وهو أن يتفق اللفظان المتجانسان في شكل الحروف ويختلفان في تنقيطها [١]، كقوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [٢].

فقد تماثل اللفظان (يسقين) و (يشفين) في رسم الحرف ولكن اختلفا في وضع النقط، لذا بقي الجرس ماثلا للأسماع .

وجاءت الكلمات (يهدين، يسقين، يشفين) محذوفة الياء للتخفيف ورعاية الفواصل، وتلك زادتها مزيدا من التنغيم اللفظي. وقد كان العدول إلى (مرضت) بدلا من (أمرضني) «لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه»[٣].

فنسب الهداية والخلق والإطعام والسقي إلى الله تعالى حتى إذا أورد ذكر المرض نسبه إلى نفسه فقال: (مرضت)، ولم يقل: (أمرضني)[٤]، بينما أسند الشفاء إلى الله فقال: (فهو يشفيني)، وهذا من أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه. قال ابن كثير: «اسند المرض إلى نفسه وان كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن اضافته إلى نفسه ادبا»[٥].

١- ظ. السيوطي، معترك الأقران: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

٢- الشعراء : ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠.

٣- الرازي، النفسير الكبير: ٢٤/ ١٦٣.

٤- ظ. ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: ٢/ ١٨ ـ ١٩. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز : ١١/ ١٢٣.

٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٣٩.

وفي نهج البلاغة تأثر واضح في اتباع مثل هذه التنغيمات الصوتية، إذ استعملت بكثرة دون أن نجد خللا دلاليا قهر فيه المعنى على اللفظ لأجل تقوية الجرس، وذلك كما يبدو أوضح تجليات التأثير الايقاعي القرآني في كلام الإمام علي عليه السلام فقد وضع الإمام عليه السلام كلامه في ميزان دقيق بين المضمون والتأدية الفنية القائمة على أساليب التأثير النغمي، وذلك أمر ليس متاحا لكل أحد، خاصة ونحن بصدد أداء فكر عظيم وجديد بعظمة وجدة الفكر الإسلامي، إذ لابد أن يشغل ذهن مؤديه عن استدعاء الألفاظ المناسبة من مخزونه الذهني ليبدأ بعملية أشد تعقيدا وهي صناعة التراكيب الجملية منها، وإضافة عناصر التأثير الفني عليها. وباختصار صعوبة اتباع أسلوب التعبير الفني القرآني لأنه الأسلوب الأمثل والمعجز في تاريخ لغات البشر، وعلى قدر تمثل هذا الأسلوب يتفاوت الإبداع والمبدعون .

ومن مفردات عناصر التأثير هذا النوع من التجنيسات فقد وقع في كلام الإمام عليه السلام كثيرا، نحو قوله في المتقاعسين عن استجابة أمره:

«أَضْرَعَ الله خُدُودَكُمْ وَأَتْعَسَ جُدُودَكُم»[1].

فما بين (خدود) و (جدود) تماثل في رسم الحرف وتباين في وضع النقط.

وجدير ذكره أن الإمام عليه السلام لم يقل مكررا: (أتعس الله جدودكم) على عادته في تكراره للفظ الجلالة لأن مقام التوبيخ لا يسمح بتكراره، إذ يطنب الإمام عليه السلام في إعادة لفظ الجلالة غالبا في مقامات النصح والايصاء لا في مجالات الغضب والتأنيب، نحو قوله موصيا: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله، فَإِنَّهَا حَقُّ الله عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى الله حَقَّكُمْ وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِالله، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى الله»[2].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ١٣٦.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٨٢.

ومثل هذا الجناس وقع قوله عليه السلام في دعواته لمحاربة الشيطان: «فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُم»[1].

ومن اختلاف حرفي النون والباء في اللفظين المتجانسين جاء قوله يصف الدنيا: «فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا»[2].

وفي الخاء والجيم قوله في ذكر الله تعالى: «لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاء»[3]، فقد رسم الحرف بشكل واحد بينهما في كلمتي(الخفاء) و(الجفاء) لولا نقطه .

ومن اختلاف حرفي النون والياء وقع التجنيس في قوله في موصيا بالتقوى: «أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُم»[4].

ويبدو الجرس عاليا في أمثال هذه التركيبات الجملية في كلام الإمام عليه السلام بسبب توافر عناصره فيها فقد أقيمت على أسلوب التوازن، والتوازن - كما سيأتي - من أهم مظاهر الايقاع الصوتي وجيء بالتجنيس الناقص بين لفظتي (نومكم) و (يومكم) على أساس التشابه في رسم الخط لحروف اللفظتين .

ولاشك أن لكل تلك العناصر أثرها الواضح في إغناء العبارة بالجرس وتقويته إمعانا في شد المتلقي للتأثير فيه وبلوغ المراد من الهدف الأهم من الخطابة وهو الإقناع[5]، لأن أكثر مظاهر الجناس في كلام الإمام عليه السلام جاءت في فنه المسموع وهو الخطابة، وقلت في فنه المقروء وهي الرسائل.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٣.

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٥١.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٤٢٥ .

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٨٤.

٥- ظ. أرسطو، الخطابة: ٩.

ومثل ما ذكرنا قوله واعظا:

«لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي وَسُكُونُ أَطْرَافِي»[1].

فقد وقع التجنيس المصحف بين لفظتي (إطراقي) و (أطرافي) وتعني ما ينـزل بالميت من غمض العينين وبرودة الأطراف، وخفوت الإطـراق إرخـاء العيـنين في النظر الى الأرض بسبب ضعفه عن رفع أجفانه، وسـكون الأطـراف يريـد مـوت اليدين والرجلين والرأس. يقول ابن ابي الحديد(ت٦٥٦هـ) متأثرا «وصدق ! فإن خطبا أخرس ذلك اللسان، وهد تلك القوى لخطـب جليـل. ويجـب أن يـتعظ بـه العقلاء»[2].

٤ـ جناس التحريف:

وهو تشابه اللفظين المتجانسين في رسم الحروف واختلافهمـا في تـشكيلها[3]، وهو سبيل آخر في تقوية الجرس وإثراء العبارة بالإيقاعات الصوتية .

ووقع في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّـةَ يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ الله فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـداً عَلَيْـهِ حَقّاً﴾[4].

فبين (يقتلون) و(يقتلون) تطابق تـام في رسـم الحـرف والاخـتلاف وقـع في شكل الحركات فيها .

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٣٩.

٢- ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ١٢٣.

٣- ظ. السيوطي، معترك الأقران: ١/ ٢٥٦.

٤- التوبة: ١١١.

الْمُنْذَرِينَ﴾[1]

فالأولى (منذرين) مشتق لاسم الفاعل والثاني (منذرين) مشتق لاسم المفعول.

وقد اجتمع التصحيف والتحريف في قوله تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[2]، فبين يحسبون ويحسنون «تجنيس التصحيف وهو أن يكون النقط فرقا بين الكلمتين»[3].

ومما جاء من هذا الضرب من التجنيس في نهج البلاغة قول الإمام عليه السلام: «فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ»[4] فالجنة وهي مايتقى به من درع ونحوه[5] تماثل الجنة في الحروف ولكن تختلفان في تشكيل حرف الجيم فيهما .

ونحو هذا قول الإمام عليه السلام في خلقة الطاووس:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ، قُلْتَ جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيع»[6]، فالجني هو الثمر الذي حان قطافه[7] و(جني) فعل مبني للمفعول .

ومن البين أن هذه التجنيسات كانت من آليات التنغيم في كلام الإمام عليه السلام وأسباب تقوية جرس الفاظه .

١- الصافات: ٧٣.

٢- الكهف: ١٠٤.

٣- الشنقيطي، أضواء البيان: ٣/ ٣٥٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٨٤.

٥- ظ . ابن منظور، لسان العرب: جنن.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٣٩١.

٧- ظ. ابن منظور، لسان العرب: جني.

٥ـ الجناس المضارع:

وهو أن يختلف اللفظان المتجانسان بحرف مقارب في المخرج سواء كان في الأول أم الوسط أم الآخر [١].

ولاشك أن في تقارب مخارج الحروف بين الألفاظ المتجانسة يعني إضفاء مزيد من النغم الصوتي لأن فيه تشابها للتجنيس التام الذي يتكرر فيه جرس اللفظ ذاته. نحو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [٢].

فما بين لفظي(ناضرة) و(ناظرة) وقع تشابه في مخرج صوتي الضاد والظاء وهذا الجناس أفاد بأن نضارة هذه الوجوه وجمالها كان بسبب النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى ، فهي نضرة وفرحة في النظر إليه، وهذا من اثر النعمة والفرح الذي يعمهم حينها ، لأنَّ ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره على الوجه، إذن هو وسيلة من وسائل تقوية الجرس ولا أعني بتقوية الجرس التي تكررت انزواء المعنى خلف هذا التشكيل الصوتي بل ناتج ثانوي للمعنى أريد به انشداد الأسماع للمضمون بصورة أكبر، لذلك فهو في التعبير القرآني وقع على أروع ما يكون من العفوية، فمما وقع في أول الكلمة قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [٣].

وتمرحون بمعنى تبطرون وتأشرون، وبين الفرح والمرح تجنيس حسن [٤]. فكلا الحرفين (الفاء) و(الميم) يشتركان في المخرج الصوتي لأنهما من حروف الشفة [٥]،

١- ظ. ابن رشيق، العمدة: ١/ ٣٢٦. السكاكي، مفتاح العلوم: ٤٢٩.

٢- القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

٣- غافر: ٧٥.

٤- ظ. الآلوسي، روح المعاني: ٢٤/ ٨٧.

٥- ظ. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٣٠. مناف الموسوي، علم الأصوات : ٥٣ ـ ٥٥ .

ولتقاربهما في النطق في لفظتي (تفرحون) و (تمّرحون) أثره الواضح في لذة استرداد التشكيلات الصوتية لها .

ومما وقع في وسط الكلمة جاء قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[1]، فقد وقع التضارع في النطق بين (الهاء) و(الهمزة) في لفظتي (ينهون) و(ينأون) على التوالي، إذ كلاهما من حروف أقصى الحلق[2] .

ومما جاء في آخر الكلمة المتجانسة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾[3]، فالتجنيس بين (الأمر) و(الأمن) قوي الجرس بسبب التقارب بين موضعي نطق حرفي (النون) و(الراء) فـ«من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون، ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان مخرج الراء»[4]، وهما بعد مع قرب مخارجها تشترك في نسبة وضوحها الصوتي ،«وأنهما من أوضح الأصوات الساكنة في السمع»[5].

وتتبع الإمام عليه السلام اقتفاء الجرس القرآني فاتخذ من هذا الضرب من التجنيس وسيلة له في إسباغ النغم وتقويته في عباراته وألفاظه سالكا به السبيل القراني في الإتيان به عفوا رهوا برغم تقصده .

وهو في نهج البلاغة كثير، قال الإمام عليه السلام من خطبة محذرا وواعظا:
«وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ، قِيدُ قَدِّهِ مُتَعَفِّراً عَلَى

١- الأنعام: ٢٦.

٢- ظ. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٢٩. مناف الموسوي، علم الأصوات : ٨٦.

٣- النساء: ٨٣ .

٤- ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ٥٣ .

٥- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٢٣ .

خَدِّهِ»[1]، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [2].

فكأننا أمام تجنيس تام بين لفظتي (الأرض) و(العرض) بسبب قوة تشابه نطق حرفي الهمزة والعين فهما من حروف الحلق [3].

ولا نستطيع الجزم بأن قوة الجرس في ألفاظ هذه العبارة جاءت من هذا التجنيس وحده بل اشترك التوازن بين الفقرتين والجناس الناقص الآخر بين (قده) و(قيده) في إثراء العبارة بهذا الجرس العالي النغمة .

ويبدو واضحا قوة انشداد هذا الجرس الى مضمونه لأن الكلمات وقعت بانسياب في حياض معانيها ولم يلهث وراءها المعنى . فهذا الإطناب في عبارة (ذات الطول والعرض) لم يؤت به لأجل تجنيسه بما قبله بل لبيان عاقبة الإنسان ومآله في هذه الأرض العريضة ولعل من الوضوح بمكان فساد المعنى وإخلاله لو حذفت هذه العبارة من نص الإمام عليه السلام .

وكذا الحال في قوله (قيد قده) إذ يريد حصر ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان من الدنيا بهذه القلة فلم تكن أبلغ في أداء هذا المعنى من لفظة (قيد) التي تعني المكان الضيق المجبر عليه [4].

ومثله قوله عليه السلام في ذكر الله تعالى:

«الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ»[5].

وفي مثال آخر، قال الإمام عليه السلام متنصفا لنفسه:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ١٦٣. وينظر المصدر نفسه: ٢/ ٦٩ .

٢- الحديد: ٢١.

٣- ظ. ابن جني، سر صناعة الإعراب: ١/ ٦٩. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٢٩.

٤- ظ. ابن منظور، لسان العرب: قيد.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٦.

«وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ»[1] .

فقد جاء التضارع في الحروف بين (القاف) و(العين) في لفظي (القواصف) و(العواصف) لأنهما من حروف الحلق وبين (الهاء) و(الغين) في لفظي (مهمز) و(مغمز) للسبب ذاته [2].

ومثل هذا التجنيس وقع في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [3]، غير أنه في القرآن من الجناس اللاحق كما يسميه السيوطي (ت٩١١هـ) لأن اللام والميم حرفان غير مقاربين في المخرج [4].

ومن الجناس المضارعة بين الراء والغين قوله عليه السلام يصف الدنيا:

«وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً وَسَمِينُهَا غَثّاً»[5] .

وقوله: «فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ وَعَذَابُهَا جَدِيد» .

وهو يشبه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [6] .

ومثله قول الإمام عليه السلام في الدنيا: «وَ اعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا»[7].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٨.

٢- ظ. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ٢٩.

٣- الهمزة: ١.

٤- ظ. السيوطي، معترك الأقران: ١/ ٢٥٦.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٨٢.

٦- القيامة: ٢٢ ـ ٢٣. وينظر في تفسيرها: الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٦٦٣.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٨٤.

ويبدو مما سبق أن الإمام علياً عليه السلام قد تمثل طريقة القران الكريم في استعمالات هذه الجناسات فاتخذها وسيلة في إثراء عباراته بالجرس وإعلاء نغمه.

٦ـ جناس الاشتقاق:

هو اجتماع اللفظين المتجانسين في أصل الاشتقاق، ويسمى المقتضب [١] وللاشتقاق دور بارز في تقوية رنين الألفاظ.

ويعد هذا الضرب من التجنيس من أكثر الجناسات ورودا في القرآن الكريم، فقد وفرت التقليبات الصرفية للألفاظ إعادة تلفظ أصوات الحروف على نحو منتظم تستطيبه الأسماع .

ويمكن ملاحظة جرسه في الآيات الآتية من قوله تعالى:

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [٢] .

وقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [٣] .

وقوله عز وجل: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [٤] .

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [٥] .

وقوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ [٦].

١- ظ. السكاكي، مفتاح العلوم: ٤٣٠. السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٤٥.

٢- الواقعة: ٨٩.

٣- الروم: ٤٣.

٤- الأنعام: ٧٩.

٥- النمل: ٤٤.

٦- وينظر قوله تعالى: ﴿قال اني لعملكم من القالين﴾ و﴿ليريه كيف يواري﴾ و﴿وإن يردك بخير فلا راد﴾ و﴿اثاقلتم الى الأرض أرضيتم﴾ و﴿واذا أنعمنا على الإنسان أعرض .فذو دعاء عريض﴾.

ففي كل تلك الآيات الكريمة ثمة جرس مكرور تحصل من أثر التقليب الصرفي في بنية اللفظة، فأسبغ على العبارة مزيدا من النغم لا يملك معه المتلقي الا أن ينشد له بإصاخة أسماعه وتدبر مضامينه.

وكان هذا الأسلوب مما توافر عليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه كله. وهو بعد في نهج البلاغة من أكثر أنواع الجناس ورودا، ولعل خير أمثلته ميل الإمام عليه السلام الى التشبيهات البليغة المشتقة مصادرها من أفعالها وقد مر الكلام في ذلك في بحث التكرار، والجناس جزء من التكرار .

ومن أمثلة هذا التجنيس خطبة الإمام عليه السلام في وصف المنافقين، إذ حفلت كثيرا بالجناس الاشتقاقي، كقوله:

« أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ»[1] .

فقد جاءت الاشتقاقات بشكل مباشر، مشتق إثر مشتق فكثف من الجرس ومنعه من التشتت، إذ وقع مشتقان من أصل واحد في كل فقرة فالضلال أصل (الضالون المضلون). والزلل أصل (الزالون المزلون). واللون أصل (يتلونون ألوانا). والفتنة أصل (يفتنون افتنانا).

وكذلك القول في: (يعمدونكم بكل عماد) فأصلهما العمد. و(يرصدونكم بكل مرصاد) وأصلهما من الرصد .

وقال في صفة المتقين:

«بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ»[2]، فقد

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٤٤٩.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٤٩.

اشتق من البعد الفعل (تباعد) ومن لفظة الدنو الفعل (دنا) وهو في كل ذلك أقام فقراته على التوازن، أسلوبه الأثير.

ومن كتاب الى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة الى البصرة قال عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هَذَا، إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ، وَإِنِّي أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي»[1] .

فقد جاءت الاشتقاقات (ظالما، مظلوما) و (باغيا، مبغيا)، وفي ذلك تكرير لمقاطع الصوت وتقوية لجرسها، والإمام عليه السلام بدأ بلفظ الظالم والباغي إبطالا لحجة خصمه في الادعاء على الإمام عليه السلام بالظلم والبغي.

ويقع جناس الاشتقاق كثيرا في حكم الإمام عليه السلام وقصار كلمه نحو قوله: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[2] .

وقوله: «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَه»[3].

وهو قاصد في كل ذلك إلى إدخال هذه الموسيقى اللفظية لما لها من أثر في علوقها في الأذهان الأمر الذي يفسر بقاء حكمه عليه السلام إلى اليوم لخفتها على الأسماع.

وهو بعد لاريب قصد حتمته الوظيفة الدلالية ومدى ارتباطها بها وإلا لبان خلل توخيه واضحا لو كان في استقصاده قهر للمعنى ولي.

وهكذا بدا أن لاسترجاع الصوت في التجنيس الاشتقاقي أثرا كبيرا في إسباغ الموسيقى على الكلام لذا كثر في استعماله استعمالا ربط الشكل بالمضمون من خلال الجرس .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٧١.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٣٤٧.

٣- المصدر نفسه : ٢/ ٣٩٨.

٧ـ الجناس المعكوس:

هو تأخير اللفظ المقدم من الكلام وتقديم اللفظ المؤخر [١].

إذن هو تكرار منتظم للألفاظ، وهو يقع فى الألفاظ و الحروف جميعا. ولذا يسمى العكس، فهو: «أن تعكس الكلام فتجعل الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول» [٢]، ووصف أثره العلوي(ت٧٤٩هـ) في الكلام بقوله: «وله فى التجنيس حلاوة و يفيد الكلام رونقا و طلاوة» [٣].

ويبدو أن ابن الأثير(ت ٦٣٧هـ) أول من عد العكس جناسا أو مشبها بالتجنيس [٤]، وهو في القرآن كثير نحو قوله تعالى:

﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [٥].

ففي هذا التقليب في الألفاظ بتقديمه وتأخيرها ايحاء إلى أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه. واستعير الفتح للإرسال والإطلاق «ألا ترى قوله فلامرسل له من بعده مكان فلا فاتح له» [٦].

ونكرت (رحمة) للإبهام والإشاعة كأنه قال: «من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه» [٧].

١- ظ .القزويني، الايضاح: ١/ ٣٢٩ـ ٣٣٠.

٢- ابوهلال العسكري، كتاب الصناعتين: ٢٩٣. وينظر: القزويني، التلخيص: ٣٥٨.

٣- العلوي، الطراز: ٢/ ١٩١.

٤- ظ. ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٥٦.

٥- فاطر: ٢.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٦٠٦. وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير: ٦/ ٤٧٣.

٧- المصدر نفسه والصفحة.

وقد يقع التجنيس المعكوس بين متعلقي فعلين في جملتين، نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ﴾ [1]، فقد تأخر ما كان متقدما (الحي) وتقدم ماكان متأخرا (الميت) من متعلقي الفعل (يخرج) المتكرر في الفقرتين. أو قد يقع بين لفظين في طرفي جملتين كقوله تعالى:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [2]، وقوله:

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [3].

وكذا كان جناس العكس أحد وسائل الإمام عليه السلام في إحداث التنغيم، وأمثلته في نهج البلاغة كثيرة، فمما تتمثل له كتب البلاغة القديمة قول الإمام عليه السلام من كتاب الى عامله عبد الله بن عباس:

«أَمَّا بَعْد، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَه...» [4].

ففي صدر كلامه أخر ما قدم في لفظة (درك) وقدم ما أخر في لفظة (فوت) مما يعني تكرارا منتظما أحدث معه ايقاعا تستلذه الأسماع فتنشد اليه النفوس .

وفي الحق لم يكن الإمام عليه السلام يقصد الى هذا الجرس في الألفاظ بقدر توخيه المعنى، فهو ناتج ثانوي عما يريد الإمام عليه السلام إظهاره من دلالات هذا التقليب. ففي النص السابق أراد بيان حال تقلب النفس الإنسانية بين المسرة والرضا. ويبدو أن ابن عباس (ت٦٧هـ) أدرك هذا المعنى حين قال: «ما انتفعت بكلام بعد كلام

١- الروم: ١٩. وينظر في أمثلة الجناس المعكوس : القزويني، الايضاح: ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

٢- الروم: ١٥.

٣- البقرة: ١٨٧.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ١٥٨.

الله تعالى مثل هذا الكلام»[1].

وقال العلوي (ت ٧٤٩هـ) معلقا: «وأنا أقول أيضا ما قرع مسامعي مرة بعد مرة إلا و أحدث لي موعظة، و أنشأ لي عن الغفلة يقظة»[2].

ومثل هذا قول الإمام عليه السلام:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا»[3].

فهذا التنغيم اريد به تصوير حالة القلب والخلط التي ينذر بها من أحداث الفتنة، فكان لتكرار الأصوات على هذا النحو المعكوس أثره في انشداد الايقاع الى مضمونه. فقدم وأخر ما بين ألفاظ الجمل للإشارة إلى هذا التقليب .

ومثله في بيان حال تقلب الدنيا:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرا»[4]، وتبدو قوة الجرس في هذا التجنيس ممتزجة من اللفظة المعكوسة ومن الإشتقاق ايضا. فلفظة (أدبر) أعيدت أصواتها مشتقة بلفظة (مدبر) ولفظة (مقبل) أعيدت بلفظة (أقبل). فكأنه مكتنف على جناسين العكس والاشتقاق .

ولاشك أن في هذا الأسلوب الذي يستبطن التجنيسين مزيدا من التنغيم يسبغ على العبارة، نحو قوله عليه السلام :

١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٤٠.

٢- العلوي، الطراز: ٢/ ١٩٢ .

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٥٢.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٥.

«اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلا»[١] .

وقوله: «وَ يَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعا»[٢].

نخلص من ذلك أن الجناس المعكوس تصوير بالجرس للمعنى قد اتخذ منه الإمام عليه السلام ليس وسيلة ايقاع فحسب بل أداة كشف للنفس الإنسانية، قال من كتاب يصف مالك الأشتر:

«فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ، وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَل»[٣] .

فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه الكلمات المعكوسة تعقيدات النفس الإنسانية من رضا وإعراض يترتب عليه البطء والإسراع في الإقبال على السلوك .

وقد يجري الإمام عليه السلام على طبعه فيمضي الألفاظ بجرس أخف، نحو قوله: «اتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً وَجَدَّ تَشْمِيرا»[٤].

فقد كان يمكن أن يقول (وجرد تشميرا) ولكنه آثر إجراء الكلام على مقتضى طبعه .

الرابع: التوازن:

١ـ تعريفه وأثره في إحداث النغم القرآني:

هو أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في أوزانها[٥]. وقد

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٥٢.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣٤٢.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ١٤٧.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٣٥٤.

٥- ظ. أبوهلال العسكري، كتاب الصناعتين: ٢٢. العلوي، الطراز: ٣/ ٢٢. ابن الأثير، المثل السائر: ١/ ٣٧٧.

أشير في بحث السجع الى التوازن في الكلام وبيان قيمته من التنغيم في العبارة، ولكن التماسه الكثير في نهج البلاغة حملنا على استقصائه وتبيان أثره في إحداث الايقاع الصوتي، فكان استحقاقه من البحث إفراده عن السجع، لأنه أعم منه فكل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا، فهو خاص فى اتفاق الوزن من غير اعتبار شريطة.

ويسميه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) المزدوج[١] وتابعه عليه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) فقال: » لا يحسن منثور الكلام و لا يحلو حتى يكون مزدوجا، و لا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، و لو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق، و قد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزاوج فى الفواصل منه»[٢].

ولأثرها البين في إحداث النغم فقد أقيم الشعر على أساسها بل الوزن هو «أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية»[٣]، وهو بعد «وجه من أوجه التكرار»[٤]، فالتكثيف الموسيقي الذي اشتمل عليه منبعه التماثل في زنة الألفاظ إذ كل مفردة في الصدر متطابقة في التوازن مع أختها في العجز الأمر الذي يكثف الايقاع ويقوي الجرس خاصة مع تكراره.

إذن الموازنة انتظام واعتدال والنفس بطبعها تميل الى الأصوات المنتظمة المتسقة و«المسجع والموزون أقرب الى أن يثبت في الذكر من غيره من الكلام»[٥].

١- ظ. الجاحظ، البيان والتبيين: ٢/ ١١٦.

٢- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: ٢٦٠.

٣- ابن رشيق، العمدة: ١/ ١٣٤.

٤- نورثرب فراي، تشريح النقد: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

٥- ابن سينا، الشفاء، الخطابة: ٢٢٧.

وفي القرآن الكريم اعتدال في الفقرات واتساق في النظام الأمر الذي ينتج عنهما جرسا واضحا وايقاعا لافتا بسبب الأوزان المتماثلة التي جاءت عليها الألفاظ في الفقرات .

فكان لذلك وسيلة بارزة من وسائل الجرس القرآني، وهو كثير، قال تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [1] .

فقوله (عزّا و ضدّا) متماثلان فى وزنهما، لذا نلمس به نغما .

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً * خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذ زُرْقاً﴾ [2].

ويبلغ التوازن في الكلام ذروته من الجرس حين تتماثل ألفاظ كل فقرة في الوزن، نحو قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [3].

فألفاظ الفقرة الأولى على زنة واحدة مما يقابلها من ألفاظ الفقرة الأخرى. وذلك الإنتظام في الأوزان هو منبعث الجرس وايقاعه، برغم عدم تماثل الحروف ولكن التماثل هذه المرة في أوزان الكلمات، لذا عد من بعض أنواع السجع ويسمى المتماثل [4].

وغير ذلك كثير في سورة الشورى وسورة مريم وسورة طه والمرسلات بل

١- مريم: ٨١ ـ ٨٢.

٢- طه: ١٠٠ ـ ١٠١.

٣- الصافات: ١١٧ ـ ١١٨ .

٤- ظ. الزركشي، البرهان: ١/ ٧٦.

كثيرا ما تقام السور القصار بأسلوب الموازنة لذلك نجد فيها الجرس عاليا لأنه«يحدث في الصورة الصوتية للكلمات»[1].

أ- وسائل الإمام عليه السلام في طلب التوازن:

وفي نهج البلاغة تتلمس حرصا في اتباع طريقة القرآن الكريم في ايثار التوازن وتوخيه طلبا للجرس لشد المسامع الى ما يطرح اليها من معان. فهو فيه «ضرب آخر من موسيقى التعبير يحببه الى السمع ويقربه الى الذوق»[2]. نحو قول الإمام عليه السلام: «وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»[3].

فقد جاءت الفقرتان على زنة واحدة، فهو حين جاء بالفعل (أستغفل) مبنيا للمفعول أتبعه بمثله فقال (أستغمز)، كما وازن بين (المكيدة) و (الشديدة).

ويتوسل الإمام عليه السلام لإدخال التوازن في كلامه بوسائل عدة حرصا منه لإسباغ النغم على عباراته، مثل قوله عليه السلام في خطبته الشقشقية يصف المستأثرين بالخلافة دونه:

«فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّم»[4]، فقوله (أشنق) ازدواجا لها بـ(أسلس)، إذ كان يمكن له أن يقول: (شنق)[5]، لولا الشاعرية التي عرف بها الإمام عليه السلام في كلامه «فطبيعة علي بن أبي طالب الشعرية

١- عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٢٣.

٢- الحوفي، بلاغة الإمام علي: ١٥٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤٧.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٣٤.

٥- ظ. ابن السكيت، إصلاح المنطق: ٤٢٧.

كثيرا ما تحلق به في جو الخيال والشعر»[1].

وقال الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) معلقا: «إنما قال عليه السلام أشنق ولم يقل أشنقها لأنه جعل ذلك في مقابلة قوله (أسلس) فكأنه قال: إن رفع لها رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب على ناقته وقد شنق لها فهي تقصع بجرتها. ومن الشاهد على أن (أشنق) بمعنى شنق قول عدي بن زيد العبادي:

ساءها ما لها تبين في الأيدي وإشناقها الى الأعناق[2]»[3].

وفي مثل آخر على توخيه التوازن في الكلام، قوله في تخويف أهل النهروان: «فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ »[4].

فقد كرر (أثناء هذا النهر) بـ(أهضام هذا الغائط) ايثارا للموازنة فهو «تكرار لغاية ايقاعية فضلا عن الغاية المعنوية»[5].

ويبدو أن التوازن اسلوب الإمام عليه السلام الأثير في حالات التعبير عن انفعاله وحماسته «فالوزن ظاهرة طبيعية ما دامت تؤدي معنى انفعاليا»[6]، فمن التماس الموازنة قوله عليه السلام لأخيه عقيل:

«أَ تَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا

١- البصير، عصر القرآن: ٣٤.

٢- ظ. ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ١١٦.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٩٧.

٥- ايليا الحاوي، فن الخطابة: ١٥٨.

٦- أحمد الشايب، الأسلوب: ٦٦.

لِغَضَبِه»[1]. فقال (إنسانها) بمعنى (صاحبها) ولم يقل (إنسان) لأنه أراد مقابلتها بلفظة (جبارها).

وربما يغير في البنية الصرفية للفظة التماسا للازدواج كما مر في بحث السجع كقوله في ذكر رسول الله ﷺ:

«مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ»[2]. فهو لما قال: (في معادن) وهي جمع معدن قال بحكم القرينة والازدواج: (ومماهد) وإن لم يكن الواحد منها (ممهد) وهو كما قالوا الغدايا والعشايا. وأراد بالسلامة البراءة من العيوب في طهارة النسب.

وقد يلتمس صيغا من المصادر نادرة طلبا للجرس نحو قوله من كتاب إلى أخيه عقيل بن أبي طالب:

«فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ»[3].

فأعاد المعنى في الفقرة الثانية وطابق في الوزن بين (تركاضهم) و(تجوالهم) فهذه الألفاظ مختلفة في التلفظ متفقة في الوزن.

وكثيرا ما يبني الإمام عليه السلام من الأفعال (مفعلا) و(مفعلة) ويجمعه توخيا لإحداث التوازن الايقاعي نحو قوله من خطبة له:

«وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِه»[4]. ومداحر الشيطان الأمور التي يدحر بها ويطرد[5]، قال تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾[6]. والمزاجر

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٤٨.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٢١٥.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٢٠٩.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٣٤٥.

٥- ظ. الراغب، مفردات غريب القرآن: ١٦٥.

٦- الأعراف: ١٨.

جمع مزجر ومزجرة هي الأمور التي يزجر بها [1].

وقد يؤثر صيغة على صيغة ابتغاء الازدواج، نحو قوله: «مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ وَخَبَطَ فِي التِّيه»[2]. فخبط وجار على زنة واحدة وإن بدتا مختلفتين في النطق.

على حين آثر الفعل المزيد للفعل ذاته في قوله: «وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا إِيهَانٍ»[3].

فجاء بـ(خابط) التماسا لموازنتها بـ(خالف). والخبط للبعير اذا ضرب بيديه الى الارض ومشى لايتوقى شيئا [4].

وفي موضع آخر استعملها بصيغة المبالغة فقال يصف المتصدي للعلم وليس بأهله: «جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ»[5].

ولاشك أنه أراد المبالغة في وصف جهل من يتصدى للفتيا بغير علم، إلا أن القصد الى التوزان في الكلام واضح.

ولشيوع الموازنة في كلام الإمام عليه السلام فقد أورد العلوي(ت٧٤٩هـ) في الطراز[6] أمثلة كثيرة من كلامه كقوله عليه السلام:

«رَعِيلًا صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفا»[7]، وقوله: «وَ أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَرَغِبَ فِي

١- ظ. ابن منظور، لسان العرب: زجر.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ١٧٨.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٦٨.

٤- ظ. ابن منظور، لسان العرب: خبط .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ١/ ٥٥ .

٦- العلوي، الطراز: ٣/ ٤٠.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٥١ .

طَلَبٍ، وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً، وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيما»[1].

فهذه الكلمات متماثلة فى الأوزان مختلفة فى الألفاظ.

والتوازن كما بدا لايقتصر وروده في نهايات الجمل بل كثيرا ما يجيء في داخلها «ليؤلف انسجاما في نطق الكلمات وفي سماعها»[2].

نحو قوله من كتاب الى أحد عماله:

«وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ»[3].

فقد وقعت الألفاظ (يسد، ينفذ، يعلى، يشرك، يؤمن ،» على زنة المفعولية، فضلا عن تطابق الأفعال الأخيرة في الوزن.

ومثل هذا قوله عليه السلام لأصحابه لائما: «فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَام..»[4]، فوازن بين (يدرك و يبلغ) .

وقوله من كتاب الى عامله على البصرة:

«لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الْأَمْرِ»[5].

١- وهي في نهج البلاغة: «وَ أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ، فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالًا وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالًا، وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً، وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيما». ظ.الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٥٨.

٢- الحوفي، بلاغة الإمام علي: ١٦١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة : ٢/ ٢٩٥.

٤- المصدر نفسه: ١/ ١٠١.

٥- المصدر نفسه: ٢/ ١٥٦.

والتوازن واضح نغمه في داخل الجمل بين (صغير و كبير) و(الوفر، الظهر، الأمر) و(قليل، ثقيل، ضئيل).

ومن البين أن تأثير القرآن في كلام الإمام عليه السلام بأسلوب توخي الموازنة بدا بصورة يشد الأداء الى مضمونه ليغدو الجرس شكلا من أشكال المعنى وليس حلية عارضة ، فثمة أثر لجرس ألفاظ القرآن خفي في كلام الإمام عليه السلام يأتي به منصوبا كله مثل القرآن. نحو قول الإمام عليه السلام من كتاب له الى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ الله قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ الله نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً وَعَامِلًا كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً وَرُكْناً دَافِعاً، وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الْآتِي كَارِهاً وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا، أَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا، فَوَالله لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدا»[1].

أليس هذا الايقاع من هذه المدات المنصوبة الحزينة اتباعا لطريقة القرآن في ايراد الفواصل المنصوبة المدات في سورة النساء وسورة المائدة ؟!.

ولازيادة على القول فوق ما قال ابن ابي الحديد(ت٦٥٦هـ) معلقا عليها: «انظر الى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضا كيف تواتيه وتطاوعه، سلسة سهلة، تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى الى آخر الفصل فقال (يوما واحدا، ولا ألتقي بهم أبدا) وأنت وغيرك من الفصحاء اذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٨.

القرائن والفواصل تارة مرفوعة وتارة مجرورة وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثر بين، وعلامة واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن»[1].

نحو قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[2]. فهذه الفواصل المنصوبة لها وقع خاص على الأذن خاصة وأن هذه السورة المباركة تحفل بمعاني التضرع والدعاء لله تعالى وهو ما يتناسب مع مد الصوت على هذا النحو .

من كل ما سبق، بدا جليا أن الإمام عليا عليه السلام اقتفى أسلوب التعبير القرآني في طلب الجرس وتقويته في ألفاظه على نحو ربط فيه المضمون بالأداء، فكان نهج البلاغة صدى حقيقيا لايقاع التعبير القرآني بسبب قدرته على تمثل المعنى القرآني الجديد وطريقة تأديته بلغة فنية جديدة، وكانت تلك السمة خصيصة تميز بها عن أهل زمانه .

* * *

١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٤٥.

٢- مريم: ٢ ـ ١٢.

الباب الثاني

الأثر القرآني في نهج البلاغة
(المضمون)

الفصل الأول: مجالات الأثر القرآني في نهج البلاغة.
الفصل الثاني: الشاهد القرآني في نهج البلاغة.

الفصل الأول
مجالات الأثر القرآني في نهج البلاغة

توطئة:

بدا مما سبق أن الإمام عليا عليه السلام متابع دقيق لاقتفاء الصياغات الفنية في التعبير القرآني، وهي متابعة صدر عنها الإمام عليه السلام من ثقافة فطرية نشأ عليها، ولم يجد عنتا في توخيها واستعمالها في موارد بعيدة أحيانا عن التوظيف القرآني ولكنها امتداد له، واغتراف من منبعه الثر .

ولا ريب أن الإمام عليه السلام قد أشربت روحه حب القرآن صياغة ومضمونا، حتى جرى ذلك على لسانه متمثلا ومعيدا ما اختزن في ذاكرته، فهو «يتتلمذ للقرآن الكريم، ويستوحيه في عرفان إسلامه، وتقرير إيمانه، فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام»[1] .

إن المحتوى الذي حملته ألفاظ الإمام عليه السلام في نهج البلاغة يستند إلى مرتكزات رئيسة مرتبطة ببنية التكوين الفكري لذهنية الإمام عليه السلام، والتي لا يمكن فصلها عن المضمون القرآني، وكان فيها الإمام عليه السلام «يصدر عن رؤية كونية شاملة محاورها

١- عباس محمود العقاد، عبقرية الإمام علي: ٤٢ .

ثلاثة موضوعات لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان»[1].

وحتى التجارب الشخصية التي مر بها الإمام عليه السلام انصهرت في عوالم هذه المحاور بحيث استطاع أن ينقلها من الموقف الشخصي في الأداء الى أفق عام أرحب في الشمولية وتقديمها زادا للإنسانية يمكن أن تستقي منه عبر مختلف عصورها، ولعل هذا بعض ما يفسر سر الحياة في نهج البلاغة وسيرورته في الآفاق .

فليس لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام موقف ضيق منطو على تجربة محدودة تموت بموت صاحبها، بل كل تجاربه الشخصية منطلقة من المفهوم القرآني للحياة والإنسان وارتباطه بخالقه، ومن هنا نجد تجاربه مما تتواكب معه مفاهيم الإنسانية بمختلف توجهاتها وانتماءاتها لأنها ببساطة مستقاة من المعين القرآني الذي يكتنف الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولا مغالاة في القول أن كل كلامه عليه السلام صدى للمضمون القرآني، ولكن البحث عن الأثر القرآني الذي يتوخاه المنهج العلمي سينصب على أكثر المعاني وأبلغها إيرادا على لسان الإمام عليه السلام ومنها:

١ـ تعظيم الله وتنزيه الباري:

وهو في القرآن الكريم محور رئيس، بل على أساس وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الشرك فتن البشر وقامت المعركة الأزلية بين الإنسان والشيطان، فمن الطبيعي أن يكون هذا المحور الخطير من أكثر المضامين القرآنية تداولا ومعالجة.

وهو كذلك في نهج البلاغة، إذ يندر أن يخلو كلام الإمام عليه السلام من معاني تعظيم الله تعالى وإثبات وحدانيته وبيان صفاته سبحانه، وكلها مستقاة من القرآن العظيم، فللإمام عليه السلام خطب كثيرة في موضوعة وحدانية الله تعالى، فضلا عن دأبه

١- زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول: ٣٠.

على افتتاح كلامه بذكر الله تعالى والثناء عليه وتعظيمه. ونهج البلاغة كله مثال لذلك. وكلام الإمام علي عليه السلام في هذا الشأن يأخذ أشكالا عدة، منها:

أـ التوحيد:

وقد حفل كلام الإمام عليه السلام بالتوحيد فالمسائل المتعلقة بالخالق وما وراء الطبيعة من أساسيات موضوعات نهج البلاغة، وهي متنوعة الاتجاهات منها في الحديث المباشر عن ذات الله المقدسة ومنها في النظر في أحوال الكون والمخلوقات «و لعلنا نستطيع أن نعد البحوث التوحيدية في نهج البلاغة من أعجب بحوث هذا الكتاب، فإنها ـ بدون مبالغة، ومع الالتفات إلى الشرائط الزمانية و المكانية للصدور ـ تقرب من حدود الإعجاز»[1] .

غير أنا سنركز البحث في باب التوحيد عن حديث الإمام عليه السلام المباشر في ذكر الذات المقدسة، فللإمام عليه السلام خطب اختصت بهذا المعنى بشكل لافت، إذ توسع فيها على أصل المعنى القرآني مفصلا غاية التفصيل ومقيما الأدلة العملية والنظرية من أجل إثبات وحدانية الله تعالى.

قال عليه السلام في إحدى خطب التوحيد:

«مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ،

١- مرتضى المطهري، في رحاب نهج البلاغة: ٣٥ .

وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا ،...»[1].

ولا يمتلك أحد الجرأة – مستثنين رسول الله ﷺ طبعا – على ذكر الذات المقدسة وصفاتها بهذه الدقة غير علي بن أبي طالب عليه السلام، بل ليست لأحد هذه المعرفة بالله تعالى سواه، وكل ذلك للتنشئة الخاصة التي وهبها عليه السلام في حضن النبوة والقرآن، وهو القائل: «وَ اللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً، إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ»[2].

ولاشك في أن مرجع هذه المعاني هو الأصل القرآني في نفي الإلوهية عن غير الله تعالى، ولكن ليس ثمة محددات في القرآن الكريم يمكن بها إرجاع ما جاء من معاني الإمام عليه السلام في خطبته سوى تأكيدنا على ما أعطي الإمام عليه السلام من علم وقدرة على التفصيل والاتساع وإمكانية الإضافة إبانة وشرحا لما جاء في الأصل القرآني من الآيات المتكررة في إحاطة الله تعالى بكل شيء وقدرته على كل شيء وأنه لا يجري عليه الزمان أو المكان، نحو قوله تعالى:

﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿وَالله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[5].

١- لإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٦٩ .

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٨٠.

٣- المائدة: ١٢٠.

٤- الأنعام: ١٠١.

٥- الأنفال: ٤٧.

وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

إن معرفة الإمام عليه السلام بهذه الكليات المطلقة للخالق التي ترد كثيرا في آيات القرآن العظيم (كل شيء) هي التي مكنته من التفصيل في حديثه عن الذات المقدسة وإبانته عن قدرة الله تعالى في المواءمة بين المتضادات مابين الموجودات التي هي داخلة طبعا في قدرة الله تعالى الكلية .

هناك رؤية شاملة للكون لدى الإمام عليه السلام استطاع بها أن يوالف بين أجزاء الموجودات ليقينه بأن صانعها واحد، لذلك فهو عليه السلام يدأب على إيجاد علاقات خفية بين أجزاء هذا الكون وإن بدت بعيدة فيما بينها كل البعد، فهو بهذه الروية الشاملة يستنتج من مجموع الحيثيات قاعدة عامة بأن من يجمع بينها خالق لا يمكن أن يكون له ضد، لأن الجمع بين الأضداد مستحيل على غير الله تعالى.

وكذلك أخذ الإمامعليه السلام كثيرا من قضية (الإدراك الحسي) التي ذكرها القرآن الكريم وعمل على إقامة أكثر من دليل ينفي به إمكان رؤية الله تعالى أو إدراكه إدراكا بصريا. قال تعالى:

﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2] .

بمعنى «أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصرا في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا كالأجسام والهيئات»[3].

على أن الإمامعليه السلام ـ من وجه آخر ـ لم يفته القول بأن الله سبحانه يدرك بالسبيل الذي به استخلف مخلوقه المميز الإنسان وهو العقل. يذكر أن أحد

١- الشورى : ١١.

٢- الأنعام: ١٠٣.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤١.

أصحاب الإمام عليه السلام يقال له ذعلب اليماني قال له: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام:

«أ فأعبد ما لا أرى ؟ فقال و كيف تراه ؟ فقال: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَامِسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ ...»[1].

فالإمام عليه السلام ـ كما القرآن ـ يبث في النفس حقائق أخرى للإدراك، تسمو عن مرامي الأبصار الحسية.

ولطالما أكد الإمام عليه السلام هذه الفكرة، كقوله:

«الْحَمْدُ لله الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، ...، تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ، لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً وَعَظُمَ سُلْطَاناً»[2].

والشواهد معناها الحواس بدلالة قوله مفسرا لها (ولا تراه النواظر)، والمشاهد عنى بها المجالس والنوادي وفسرها بقوله (ولا تحجبه السواتر). وأكد إدراك الله تعالى بالعقل بقوله (تتلقاه الأذهان ..) أي تلقيا عقليا كما يقول ابن أبي الحديد، و«ليس كما يتلقى الجسم الجسم، بمشاعره وحواسه وجوارحه، وذلك لأن تعقل الأشياء هو حصول صورها»[3].

وهكذا بدا، أن الإمام عليا عليه السلام انطلق من القواعد العامة التي جاءت في

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٥.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٦٤.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٤٨.

القرآن الكريم وأخذ يفصل فيها الكلام ويقيم عليها البراهين .

ب ـ الولادة، واتخاذ الأبناء:

وهي لا ريب مما يتصل بمبدأ التوحيد، وقد روج لها المشركون بالله على مر تاريخ الإنسانية، مسقطين ما عند البشر من نقص البقاء على الخالق، لذلك ذكرها القرآن كثيرا، وأبطل حججهم فيها، نحو قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] .

وفي الآية الكريمة إبطال الولد من ثلاثة أوجه: «أحدها: انه مبدع السموات والأرض، وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا. والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة. والثالث: انه ما من شيء إلا وهو خالقه، والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج»[2] .

وقد تقدم اسم الله في قوله تعالى (لله) على (شركاء) استعظاما من أن يتخذ الله شريكا من الملائكة أو الجن أو الإنس.

وفي موضع آخر أبطل الله تعالى هذه الشبهات كقوله سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ

١- الأنعام: ١٠٠.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤١.

٣- المؤمنون: ٩١.

الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه المعاني التي وردت كثيرا في القرآن الكريم قد استقاها الإمام عليه السلام وفصل الكلام فيها على عادته، قال عليه السلام من خطبة في التوحيد:

«لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً»[2]

وجاء نفي الإمام عليه السلام في أن يكون الباري سبحانه مولودا «جريا على عادة ملوك البشر، فإن الأكثر أن الملك يكون ابن ملك قبله، ونفى أن يكون له ولد، جريا أيضا على عادة البشر، في أن كل والد في الأكثر يهلك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد»[3].

وقال عليه السلام في موضع آخر:

«وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ»[4].

وذلك لأن من يلد في الأغلب يكون مولودا، وبذلك يفتقر إلى الكمال لأنه سيحتاج غيره فضلا عن كونه سيحد بحدود المكان والزمان، وكل تلك الصفات تتناقض والإلوهية، وتتقاطع مع الوحدانية .

وهذه المعاني مأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[5].

١- يونس: ٦٨.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٩.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٨٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٧١.

٥- الإخلاص: ٣ ـ ٤.

وتقدمت جملة (لم يلد) على جملة (لم يولد)، مع أن الأولى أن يكون مولودا ثـم يكون والدا، لأنه «إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد، لأنهم ادعوا أن لـه ولـدا، وذلـك لأن مشركي العرب قالوا (الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالـت النصارى المسيح ابن الله)، ولم يدع أحد بأن لـه والـدا فلـذا بـدأ بـالأهم فقـال (لم يلد)، ثم أشار الى الحجة فقال (ولم يولد)، كأنه قيل: الـدليل علـى امتنـاع الولديـة اتفاقنا على أنه ما كان ولدا لغيره »[1].

والإمام عليه السلام اتبع في الثانية القرآن الكريم فقدم للسبب نفسه قولـه: (لم يلـد) على قوله: (لم يولد) .

ج ـ التحميد:

الحمد والحمدلة تعني «الشكر خالصا لله جل ثناؤه، دون سـائر مـا يعبـد مـن دونه، ودون كل ما يرى من خلقه، بما أنعم على عباده مـن الـنعم الـتي لا يحـصيها العدد، و لا يحيط بعددها غيره أحد»[2] .

ولاشك في أن استهلال الخطب بتحميد الله تعالى والثناء عليه إضافة إسـلامية جديدة على أسلوب الخطابة العربية، وهي من مبتكرات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله فهـو الذي أدخلـها في خطبـه واسـتنها النـاس مـن بعـده، ولـست اشـك في أن الإمـام عليا عليه السلام الناشئ في حجر النبوة قد تأثر خطى ابن عمه صلى الله عليه وآله ومربيه في كـل شـاردة وواردة. غير أن أصل التحميد القرآن الكريم ،ففـي آياتـه احتفـال كبيـر بهـذا الأسلوب والمحتوى[3] .

١- الرازي، التفسير الكبير: ٣٢/ ١٨٣.

٢- الطبري، جامع البيان: ١/ ٥٩ .

٣- ظ.ابتسام المدني، بنية النص القرآني: ١٢٧ ـ ١٢٨ (اطروحة دكتوراه) .

وفيما يأتي طائفة من حمد الله تعالى في القرآن من قوله تعالى:

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [3].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا﴾ [4].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [5].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [6].

وبهذه المعاني أخذ الإمام عليه السلام في حمده لله تعالى في استهلالاته لخطبه، وجعل ينطلق من الحمد مقتبسا ومضمنا مزيدا من المعاني القرآنية التي تعنى بتعظيم الخالق وتنزيهه وتوحيده، نحو قوله: «الْحَمْدُ لله الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ

١- يونس: ١٠.

٢- المؤمنون: ٢٨.

٣- الأنعام: ١.

٤- الأعراف: ٤٣.

٥- الإسراء: ١١١.

٦- النمل: ١٥.

الْأَمْر»[1]، فقد ضمن الإمام عليه السلام مع أسلوب (الحمد لله) معاني قرآنية استنتجها من مجموع آيات كثيرة تكررت بالمعنى نفسه .

فقوله عليه السلام (إليه مصائر الخلق) استفاده من الآيات الكثيرة التي اختتمت بعبارة (إليه المصير، إليك المصير، إلينا المصير، إلى الله المصير، إلي المصير) والتي تكررت بهذا المعنى اثني عشر مرة، نحو قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [3]. وكذا قوله (عواقب الأمر) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[5] .

وجدير بالذكر إن لفظة (مصائر وعواقب) لم تأت في القرآن إلا بصيغة المفرد، وإنما جمعهما الإمام عليه السلام لأنه أراد الحكاية والتعبير عنهما ولتكرار ورودهما في آيات عدة .

وفي مثال آخر، قال الإمام علي عليه السلام من خطبة له:

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ»[6].

فاختصاص العزة والكبرياء بالله تعالى من معاني القرآن الكريم التي ترد مؤكدة بأساليب مختلفة، قال سبحانه:

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٤٢٩.

٢- النور: ٤٢.

٣- فاطر: ١٨.

٤- الحج: ٤١.

٥- لقمان: ٢٢.

٦- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٨٩.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

والتكبير لابد أن يكون بعد التحميد إشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أن أنعامه أجل وأكبر من حمدهم، وأن الكبرياء مختص به وحده سبحانه[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

والخطاب للرسول ﷺ على سبيل التعزية والتسلية[4].

ويبدو أن التحميد القرآني أسلوب مبتكر لمرحلة جديدة لبث المعاني التي جاء بها الفكر الإسلامي الجديد وكان الإمام عليه السلام خير المستغلين لاقتباسها وتركيب ما تناثر منها في القرآن وإعادته بأسلوب التحميد، بل كان أسلوب الإمام عليه السلام في انطواء التحميد على كثرة ملحوظة من المعاني القرآنية من امتيازاته في خطاباته، بسبب قوة حضور النص القرآني في ذهن الإمام عليه السلام وقدرته على الاستنتاج والاختصار واعتصار المعاني في جمل مقتضبة دون الإخلال بتأديتها كاملة . نحو قوله عليه السلام : «الْحَمْدُ لله الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ»[5]. فهذا إعادة تمثيل لمعنى قوله تعالى في هذا الشأن:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[6]، وقوله سبحانه: ﴿نِعْمَةً مِنْ

١- الجاثية: ٣٧.

٢- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٧ / ٢٧٥.

٣- يونس: ٦٥.

٤- ظ. الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٩٣.

٥- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٢٦٤.

٦- إبراهيم: ٧.

عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [1]، وقدرة على استبطان المعاني القرآنية واستظهارها .

د ـ أسماء الله الحسنى وصفات أفعاله سبحانه:

أفاد الإمام عليه السلام من صفات أفعال الله تعالى وأسمائه سبحانه التي جاءت في القرآن الكريم فأوردها في كلامه كثيرا ذاكر ومبينا وشارحا لما استخفى منها وأشكل

ولا ريب في أن عرض هذه الأسماء والصفات التي جاءت في القرآن الكريم تستدعي مزيدا من الإبانة لما تركز في الذهنية العربية حين نزول القرآن من مفاهيم الماديات الصنمية وترسخ فيها من محدودية معبودهم من خلالها .

كان الإنتقال بهذه المفاهيم من عالم الحس إلى عالم الغيب أسمى وأرحب بكثير، وليس سهلا قبوله، خاصة وان هذه الأسماء والصفات ارتبطت في الأذهان بمعاني الحس والمشاهدة ولم يؤلف الابتعاد عن واقعها وعالمها الحسي.

لكل ذلك نجد في كلام الإمام عليه السلام تعمدا في الوقوف على هذه الأسماء الكريمة والصفات الشريفة وتبيانها بعيدا عن العالم الذي ألفه الناس واعتادوه، بل سيستغل الإمام عليه السلام الارتباطات الذهنية القديمة للناس لهذه المفاهيم الجديدة أفضل استغلال في الكشف عن عالم الغيب وتقديمه تقديما يستساغ قبوله.

فقد وقف الإمام عليه السلام على أكثر أسماء الله الحسنى وصفات أفعاله التي جاءت في القرآن الكريم مثل (العليم، المنان، المنتقم، القاهر، الرحمن، المتجلي، السميع ، البصير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الحق، المبين، البديع، اللطيف، الخبير، البادي، الكافي، القريب، ...)، واجتنابا للإطالة، سننتقي أمثلة عن سعة

١- القمر: ٣.

علم الإمام عليه السلام في الأخذ عن القرآن الكريم والكشف عن هذه الأسماء الشريفة.

أخذ لفظ (السميع البصير) التي وردت كثيرا في القرآن الكريم في وصف الذات المقدسة، نحو قوله تعالى:

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [1]. وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]، فقال عليه السلام مبينا لها:

«وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ»[3] .

لأن السمع في الأجسام المادية الحية آلة يفسر ارتجاج الهواء بين أجزائها إدراكات دماغية، لذا يصعب عليه تفسير ما لا ينقله الهواء إليها، ويؤذيه ويصيبه بالصمم ما ينقل إليه من ارتجاج قريب لقوته وهو ما عبر عنه الإمام عليه السلام بقوله: (ويصمه كبيرها) .

ولاشك أن السمع بهذا النحو لا تنطبق صفته على الله تعالى «فهو سميع بمعنى لا يعزب عن إدراكه مسموع، وإن خفي فيسمع السر والنجوى بل ما يسمع هو أدق وأخفى، حمد الحامدين ودعاء الداعين، وهو السميع الذي لا يتطرق اليه الحدثان، إذ لم يكن بآلة وآذان»[4] .

ويقول في موضع آخر:

١- غافر: ٢٠. وينظر في تفسيرها: الرازي، التفسير الكبير: ٢٧/ ٥٢ .

٢- الشورى: ١١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٣٠.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٧٢.

«يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ»[1] .

فقد نفى كون الله تعالى يسمع بهذه الخروق التي تتكون منها الأذن وأجزاؤها كما يسمع الإنسان لتنزهه عن الآلات الجسمانية .

إذن إطلاق السميع على الله تعالى مجاز حقيقته العلم، لأن السمع أحد أسباب العلم «وكون الله سبحانه سميعا يعود الى علمه بالمسموعات»[2] .

أما لفظ (البصير) فهي بمعنى الفاعل من البصر، والبصر حقيقة في حاسة العين ولكنها تطلق على الله تعالى مجازا في القوة التي بها العلم، وقد نقلها الإمامعليه السلام من الفهم المألوف لآلة البصر إلى معنى ابعد وأشمل يليق بالصفة الربوبية، لأن آلة البصر محدودة تتبين الأشياء بواسطة ما يلقى عليها من إضاءة، وتعمى بذهاب النور عنها وهو ما عبر عنه الإمام عليه السلام بخفي الألوان ولطيف الأجسام كاللون مثلا في الظلم، واللطيف قد يكون الإحساس بوجوده وعدم إمكان رؤيته لعدم لونه مثلا كما في الهواء، ولا يعني عدم إبصارها ذهابها، بل للنقصان في العين الباصرة، لذا أطلق الإمام عليه السلام لفظ (يعمى) مجازا باعتبار عدم الرؤية لأن العمى أحد أسبابها إطلاقا لاسم السبب على المسبب [3] .

ويؤكد الإمامعليه السلام هذا المعنى في خطبة أخرى في التوحيد فيقول عليه السلام :

«بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ»[4] .

وفي موضع آخر قال: «بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ»[5] .

١- الإمام عليعليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٧١.

٢- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٧٠.

٣- الإمام عليعليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٣.

٤- المصدر نفسه: ١/ ٤٢٥.

٥- المصدر نفسه: ١/ ١٥.

وفي مثال آخر أخذ قوله تعالى:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1) .

فعمل على تفصيل مضامينها واحدا واحدا في أكثر من موضع ومناسبة من كلامه عليه السلام، نحو قوله:

«الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ وَالْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ»(2) .

لأن وجود الباري أولا مما يشير إليه العقل ويفرضه أول الموجودات، وكذلك هو موجود بعد كل شيء، يشير إليه العقل ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات، وعلى هذا فالله تعالى «بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كل ما يفرض أولا، وبالاعتبار الثاني يكون آخرا بعد كل ما يفرض آخرا»(3) .

أما قوله: (باوليته وجب أن لا أول له) لأن أوليته سبحانه مبدأ كل شيء، كما أن آخريته غاية ينتهي إليها كل شيء (4) .

وفي خطبة أخرى أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى فقال:

«الْحَمْدُ لله الْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونه»(5) .

فقد جمع الإمام عليه السلام أربعة اعتبارات اتخذ منها وسائل ثناء على الله تعالى وهي (الأولية والآخرية و الظاهرية والباطنية) وعمل على تأكيد كل واحد منها

1- الحديد: 3. وينظر في تفسيرها: الطبرسي، مجمع البيان: 9/ 383.

2- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: 1/ 224.

3- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: 7/ 96.

4- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: 3/ 11.

5- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: 1/ 215.

بكماله «فكمال الأولية بسلب قبلية كل شيء عنه، وكمال الاخرية بسلب بعدية كل شيء له، والظاهرية بسلب فوقية كل شيء له، والباطنية بسلب كل شيء دونه»[1].

وأراد بالظاهر العالي لذلك أكده بقوله (فلا شيء فوقه) وأراد بالباطن شدة قربه من الأشياء لأنه تعالى يبطن خفياتها علما، لذلك أكد هذا المعنى بقوله (فلا شيء دونه).

وغير ذلك كثير من أسماء الله تعالى التي وقف عليها الإمام عليه السلام وبينها، نحو قوله عليه السلام:

«الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ، وَلَا مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ»[2].

وهو بيان لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [3].

وكقوله عليه السلام: «.. فَلَا شَيْءَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ»[4].

وقوله من خطبة له: «قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ، وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ »[5].

وفي قوله (ناواه) صنعة فرضها توخيه الموسيقى بتسجيعها بـ(عاداه)، فأصل (ناواه) ناوأه، ولكن الهمزة لينت لأجل اتباعها بأختها .

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ١١.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٨٧.

٣- آل عمران: ١٢٠.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٧٤.

٥- المصدر نفسه: ١/ ١٨٢.

وقول الإمام عليه السلام من معاني قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [1].

آ- عالم الحياة والموت:

ينطلق الإمام عليه السلام في نظرته إلى الحياة بالنسبة للإنسان من الحقيقة القرآنية فيها القائمة على مفهوم الاستخلاف والتخويل، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [2] ،وقال تعالى:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [3] .

وفي التخويل قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [4] .

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [5] .

على هذا الأساس ينبني اتجاهان في النظر الى حقيقة الحياة الدنيا، أحدهما: ايجابي محمود، والآخر: سلبي مذموم .

أما المحمود في الدنيا ففي كونها تمثل الواقع التطبيقي لقضية الاستخلاف

١- الأنعام: ١٨.

٢- البقرة: ٣٠.

٣- ص: ٢٦.

٤- الأنعام: ٩٤.

٥- الزمر: ٨.

والتخويل التي امتحن الله تعالى بها عباده، فهي بعبارة أخرى تعد شهادة الفوز في هذا الاختبار الشديد[1] .

وليس كل ما في الدنيا مذموما ولكن العبرة فيها في القدرة على استحضار روح خلافة الله تعالى في أرضه وتخويله لنا فيما يملك سبحانه وسط حلاوة الدنيا وملذاتها. لذلك يطلق القرآن ـ من جهة ـ البشارة للمؤمنين القادرين على استشفاف هذه المفاهيم العميقة، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [2].

ومن جهة أخرى ينفي القرآن أن تكون الحياة الدنيا وزينتها مزوية عن المؤمنين ومقصورة على العاصين، قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3].

ولا ريب في أن القرآن ما نزل ليحارب الحياة الدنيا، ولا أمر أتباعه بمعاداتها، وكيف يدعو الله تعالى عباده الى التخلي عن الحياة الدنيا وقد استخلفهم في أرضه وأمرهم بعمارتها ؟ .

بل الله تعالى دعا الى التنظيم والاعتدال فيها، وفق قوانين تسمو بالإنسان عن أن تكون حياته الدنيا غايته الأولى والأخيرة .

هذه المضامين القرآنية العظيمة في التبصر في حقيقة الدنيا كان وعاؤها صدر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد كان بحق لسان القرآن الناطق، جاء في نهج البلاغة أن أحد أصحاب الإمام عليه السلام شكا اليه أخاه لتخليه من الدنيا،

١- ظ. محمد حسين الصغير، رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ: ٧٣ ـ ٧٥.

٢- يونس: ٦٣ ـ ٦٤.

٣- الأعراف: ٣٢.

فاستدعاه الإمام عليه السلام فلما جاء قال له:

«يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ ، أ مَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، أ تَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا، أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ ؟ قَالَ: وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْحَقِّ، أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُه»[1].

لأن الإمام عليه السلام يثمن قيمة الحياة بالنسبة الى الإنسان ويعدها فرصة ينبغي اغتنامها للاستزادة من الخير والبر والإحسان والعبادة الخالصة لله تعالى، فهو القائل: :

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ، وَيَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ»[2]، باعتبارها السبيل الى الأعمال الصالحة ولجبلة الإنسان بحبها، ولأن ذلك منهج فكري يدعو الى العمل لا الى الخمول بحجة الزهادة والتخلي عن الدنيا.

ولطالما أكد الإمام عليه السلام هذا المبدأ في أذهان الناس، فقد قال لرجل قد سمعه يذم الدنيا:

«أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا أ تَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا، أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ، مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ، أَمْ بِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ، ....، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ١٠.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٣١٠.

وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ»[1].

وجاء مدح الإمام عليه السلام للدنيا رغم أن أكثر كلامه في ذمها «لأن كل ما في هذا العالم فهو صورة ومثال لما في عالم الغيب، ونسخة منه يعتبر به ويقاس اليه ولو لا ذلك لانسد طريق الترقي الى الحضرة الإلهية وتعذر الوقوف على شيء من أسرارها»[2].

أما الجانب المذموم من الحياة الدنيا فهو حين يحيلها الإنسان الى ما يناقض حقيقتها في مفاهيم الاستخلاف والتخويل من فوضى وطغيان واستبداد وقهر وقمع و...، لذلك دأب الإمام عليه السلام على التحذير من الركون الى الحياة الدنيا ـ كما مر في فصل سابق ـ، آخذا بالمعاني القرآنية نفسها في وصف الدنيا بالاغترار تارة وبالسفر والمتاع الزائل تارة ثانية وبالاختبار تارة ثالثة، ومستغلا إمكاناته في القدرة على استحضار المضامين القرآنية و الاتساع فيها.

وإضافة لما ذكر، فقد جاء كل كلام الإمام عليه السلام في الحياة الدنيا مستلا من المعاني القرآنية ومتفرعا من أصلها. وفيما يأتي بعض الأمثلة لأكثر المعاني القرآنية التي جاءت في نهج البلاغة في هذا الشأن:

أ ـ الدنيا وزينتها:

وقعت هذه اللفظة في القرآن الكريم بمشتقاتها المختلفة في صفة الحياة الدنيا كثيرا كقوله تعالى: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [3].

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [4].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٣٦.

٢- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٣١٦.

٣- الكهف: ٢٨.

٤- الكهف: ٤٦.

وقوله سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [1] .

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [2]. والتزيين بالنسبة للدنيا إظهار الحسن الخارجي [3]، لذا حسن وقعها صفة لها.

وأخذ الإمام علي عليه السلام بهذا المعنى في مواعظه وخطبه كلما أراد النصح والتحذير، نحو قوله من كتاب له الى معاوية ناصحا:

«وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ، إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ، مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا...»[4].

وقوله (تبهجت) إضافة جديدة بمعنى تحسنت وتزينت أي صارت ذات بهجة وزينة وحسن .

وقال من خطبة محذرا أصحابه من الدنيا:

«وَ أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا ...»[5]، وجعل الإمام عليه السلام الزينة سببا للغرور والغرور سببا للزينة لأن «زينتها سبب لاستغفالها الخلق، والاغترار بها سبب لاستحسانها»[6]، والمنزل القلعة، المنزل الذي لا يستقر فيه [7].

١- البقرة: ٢١٢.

٢- هود: ١٥.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ٢١٨. محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٠٠.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤٠.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٢٦٢.

٦- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٤.

٧- ظ. ابن منظور، لسان العرب: قلع.

وأكد الإمام عليه السلام هذا المعنى بأسلوب آخر في موضع آخر، فقال:

«وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ ..»[1].

وهكذا نجد الإمام عليه السلام متابعا لشؤون الحياة سلبا وإيجابا، لأنها المضمار الذي تتسابق فيه الأعمال .

ب ـ بيع الآخرة بالحياة الدنيا وبالعكس:

من المعاني القرآنية التي ترد كثيرا في الكتاب العزيز تشبيه الحياة الدنيا والحياة الأخرى بأشياء من الواقع الإنساني الذي يتعاملون به كالسلع التجارية التي يبيعونها ويشترونها تحقيقا للتأثير وتقريبا للمعنى المراد، نحو قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[2] .

وقوله تعالى: ﴿لْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[3].

ووجد هذا المعنى له صدى في كلام الإمام علي عليه السلام عن الدنيا و التحذير منها، نحو قوله من وصية الى ولده الحسن عليهما السلام :

«... فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاك ..»[4] .

وكرره في موضع آخر قائلا:

«يَا جَابِرُ قِوَامُ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ، عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢١.

٢- البقرة: ٨٦.

٣- النساء: ٧٤.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩٢.

يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاه»[1].

وجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام قلب التشبيه القرآني في تصرفه بهذا المعنى، حين جعل الدنيا تباع بالآخرة، ولم ترد في القرآن الكريم لفظة (بيع) الآخرة بالدنيا، وإنما استفادها الإمام عليه السلام من لفظة (يشرون، شروا، يشري) التي ترد كثيرا في هذا المعنى كما في الآية السابقة وأكثر منه الإمام عليه السلام، ومن هنا جاء توسع الإمام عليه السلام على أصل هذا المعنى، نحو قوله ناصحا أصحابه:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ الله الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى»[2].

فأصل فكرة البيع والشراء باقية مستقاة من المعنى القرآني، ولكن للإمام عليه السلام إضافات على المعنى المستقى حتمه الموقف الفني الذي عرض فيه، فهو حين شرع في التزهيد في الدنيا وظف فكرة (البيع والشراء) القرآنية في عرض قلة ما بقي من الدنيا ثم وصف هذه القلة المتبقية بالفناء ثم قابله بصفقة رابحة وهي الكثرة الباقية لذلك كانت تجارة (الأخيار) رابحة حقا .

ويشير ابن أبي الحديد (ت٦٨٨هـ) إلى أن الهدى والرشاد كناية عما أدبر من الدنيا زمن الرسول الكريم وخلفائه والى أن الفساد والضلال كناية عما أقبل زمن استيلاء معاوية وأتباعه[3]، وفي هذا تضييق لمعنى أعم أراد به أن مقدم الرسول الأعظم وظهور الإسلام كان فيه إدبار الشرور بعد ما كان مقبلا، وأن إقبال الخير بدا فيها بعد أن كان مدبرا.

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩٢.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٥.

٣- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠١.

وإدبار الدنيا بمعنى انقضاء أحوال أهلها فقد تردد كثيرا في نهج البلاغة نحو قوله: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ ...»[١] .

وهو لاشك غير المعنى المراد الذي ذكر.

وكنى بقوله(عباد الله الأخيار) عن نفسه مشيرا الى شدة ثباته على الرحيل لغاية أسمى تأسيا بمن سبقه من أصحابه، لذلك ذكر بعد هذا الكلام أصحابه المستشهدين فقال: «أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ، وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ..»[٢].

وفي موضع آخر أكد الإمام عليه السلام هذه الفكرة بقوله آمرا وناصحا:

«فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى بِمَا يَزُولُ عَنْكُم»[٣].

فقوله (ما يبقى) إشارة الى الآخرة و(ما يزول) إشارة الى الحياة الدنيا، ومن غير العقل ابتياع ما يزول بما يبقى، وخلاصة ذلك التنفير من الدنيا والترغيب في الآخرة.

أما عالم الموت وأحوال الآخرة فقد صوره القرآن الكريم بمشاهد محسة نابضة بالحياة والحركة والخوف معا إمعانا في التذكير والنصح[٤] .

مثل ذلك وصف الموت بالفارس المدرك الفاتك، نحو قوله تعالى:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[٥].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٨٠.

٢- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٥.

٣- المصدر نفسه: ١/ ١٢٨.

٤- ظ. محمد حسين الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

٥- النساء: ٧٨.

وكثيرا ما يستعمل التعبير القرآني الفعل (حضر) الحسي مع الموت ذي المعنى الذهني، نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [1]، وقيل الحضور لأسباب الموت [2].

وتبلغ معاني الآخرة أشد رهبتها في مشاهد النار وأهلها فهي تتغيظ وتسمع وتشهق وتزفر غضبا في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [3].

ونسب الرؤية الى النار مع أنهم هم الذين يرونها «لأن ذلك أبلغ كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيضا، فهم يرونها على تلك الصفة»[4]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ﴾ [5] ، أي: «تغلي بهم غليان المرجل»[6].

وفي معنى أكثر شدة قال تعالى:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [7] .

١- البقرة: ١٨٠.

٢- ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ١/ ٤٩٣.

٣- الفرقان: ١٢.

٤- الطوسي، التبيان: ٧/ ٤٧٥.

٥- الملك: ٧.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ١٣٦.

٧- الحج: ١٩ ـ ٢٢.

وسلك الإمام عليه السلام سبيل القرآن الكريم في الأخذ بهذه المعاني فأكثر المعاني التي حرص على تقديمها تقديما حسيا هي معاني الموت والعالم الآخر، نحو قوله: «فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا، وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ، الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ، فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ، دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ»[1].

فقرب الموت ودنو قيام الساعة من العباد معنى طالما ردده الكتاب العزيز، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ومن معنى (الإدراك) التي رسمها الكتاب العزيز للموت توسع الإمام عليه السلام في قوله: «وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ»[3].

والفرار من الموت معنى ورد كثيرا في القرآن، قال تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾[4].

أما الصفات التي أطلقها الإمام عليه السلام على نار جهنم فهي مستقاة من الفهم الواعي لآيات القرآن الكريم ذات الشأن، فـ(القعر البعيد) استنتاج لقوله تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٦٨.

٢- النحل: ٧٧.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٦٨ .

٤- الأحزاب: ١٦، وينظر في تفسيرها: الطباطبائي، الميزان: ١٦/ ٢٨٧.

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [1] ، لأن «النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا» [2] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [3]، لأن للنار دركات وطبقات كما أن للجنة درجات [4] .

أما قوله (والحر الشديد) فمأخوذ من قوله تعالى:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [5]، و(العذاب الجديد) جاء من قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [6]، وقوله: (ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة) فهو من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ﴾ [7].

والمقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع لأن جهنم اسم لموضع أبعد النار قعرا، من قولهم بئر جهنام أي بعيدة القعر [8].

ومن المعاني الأخرى التي استقاها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم في التحذير

١- الحج: ٢١.

٢- الرازي، التفسير الكبير: ٢٣/ ٢٢ .

٣- النساء: ١٤٥.

٤- ظ .الطبرسي، مجمع البيان: ٣ / ٢٢٣.

٥- التوبة: ٨١.

٦- النساء: ٥٦.

٧- غافر: ٤٩.

٨- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٧ / ٧٤. البيضاوي، تفسير البيضاوي: ٥/ ٩٦.

من منازل الموت قوله عليه السلام :

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ، أَ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ، حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ، أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ»[1].

فقوله في صدر كلامه أخذه من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [2] .

لأنه تعجب متضمن معنى النفي، وقوله: (ضجيع حجر وقرين شيطان) من معاني الكتاب العزيز أومأ به الى قوله تعالى:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [3] .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [4] .

ومالك هو «خازن جهنم خلقه لغضبه إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا»[5]، وذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٠.

٢- البقرة: ١٧٥ .

٣- البقرة: ٢٤ .

٤- ق: ٢٧.

٥- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ١١٦ .

مَاكِثُونَ﴾[1].

وهم إنما خاطبوا مالكا لأنهم مبلسون ومحجوبون عن الله تعالى كما ذكر سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[2].

وللإمام علي عليه السلام خطب كاملة تتحدث عن منازل الموت وتصور أحوال الآخرة مثل خطبته معلقا على قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[3]:

«يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ، لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، أ فَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ،...، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ، ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالًا وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ... سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ،... ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا ،...، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ، جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً، أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا ،...، فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا، لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا، وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ

١- الزخرف: ٧٧.

٢- المطففين: ١٥.

٣- التكاثر: ١ ـ ٢.

أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ،...، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ»[1] .

ولا شك في أن الآيات الكريمة كانت الباعث الذي ألهم الإمام عليه السلام كل تلك المعاني في مشاهد الموت التي قال عنها ابن أبي الحديد: «وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن، أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفا وعظة، وأثرت في قلبي وجيبا و في أعضائي رعدة، ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي و أقاربي، وأرباب ودي، و خيلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصف حاله»[2].

ومن موضوعات العالم الآخر حديث الإمام عليه السلام عن الجنة وأوصافها وهو حديث قرآني محض، كقول الإمام عليه السلام :

«دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا»[3] .

فتفاضل المؤمنين في مساكن الجنان من حديث القرآن الكريم إذ قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [5].

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١/ ١٥٣.

٣- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ١٦٨.

٤- الأنفال: ٤ .

٥- الإسراء: ٢١ .

وقوله: (لا ينقطع نعيمها) أخذه من قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [1] .

وقوله: (ولا يظعن مقيمها) أخذه من قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [2]. وقوله: (لا يهرم خالدها) من قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [3] .

وقوله: (لايبأس ساكنها) مأخوذ من قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [4] .

وفي صفة أخرى للجنة، قال الإمام عليه السلام مشوقا:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا، لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا، مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ، غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا، بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَة»[5] .

١- هود: ١٠٨.

٢- الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨.

٣- لقمان: ٨ ـ ٩.

٤- فاطر: ٣٤.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٩٥ .

أليس هذا الكلام من نفس القرآن، وصوته من صداه ؟[1] .

أليس هذا تفسير لقوله تعالى:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [2] ؟.

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [3]، وقوله سبحانه في ثمارها: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [4] ؟.

وقال عليه السلام : «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَةَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ »[5] .

وصدر كلامه عليه السلام من قوله تعالى: ﴿وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [6].

وإنزال المؤمنين فيما اشتهت أنفسهم في جنان الله تعالى معنى حكاه الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [7] .

ومنزل الكرامة الموعود به المؤمنون من معاني القرآن في قوله تعالى:

١- .ظ.ابتسام المدني،الجنة في القرآن الكريم : ٣٧ ـ ٤٠.

٢- محمد: ١٥.

٣- الزخرف: ٧١.

٤- الحاقة: ٢٣.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٨.

٦- الطلاق: ٢.

٧- الأنبياء: ١٠٢.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [1]، والرسل الرفقاء ورد في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [2].

وجملة الأمر إن الإمام علياعليه السلام استند الى الأصل القرآني في حديثه عن الحياة الدنيا والعالم الآخر وجعل يعيد تركيب المعاني المختزنة في ضوء مواقف فنية جديدة استوجبت منه الإضافة والتعليق .

٣ـ خلق الإنسان والكون:

حفل نهج البلاغة بمعان غاية في الجدة على الثقافة العربية خاصة في مجال مراحل خلق الإنسان وأحوال إنشاء الكون من دحو الأرض ورفع السماء وإنشاء السحاب وتثبيت الجبال وغيرها .

وكل تلك المعاني صدى القرآن العظيم، تلقاها الإمام علي عليه السلام بأذن واعية وقلب حافظ وعقل متبصر، واستطاع أن يوظفها من خلال الدرس القرآني في التفكر في أحوال ما يحيط به من طبيعة ليقدمها أدلة واضحة على عظمة وتوحيد الباري جل وعلا تارة، ويحملها براهين دامغة يسند بها رأيه في النصح والتحذير تارة أخرى.

فمن خطبة له في خلق الإنسان قال عليه السلام :

«أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً وَوَلِيداً وَيَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لَافِظاً وَبَصَراً

١- المؤمنون: ٢٩.

٢- النساء: ٦٩.

لَاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً، حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَخَبَطَ سَادِراً مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ وَبَدَوَاتِ أَرَبِه»[1].

وقد تضمن هذا النص أطوارا متتابعة لخلق الإنسان بدءا من الحاضنة التي حرص الإمام على اقتباسها من التعبير القرآني وهي (الأرحام) فطور النطفة ثم العلقة ثم تكوين الجنين، وكلها من دقائق المعاني القرآنية، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [2].

والدهاق ـ في كلام الإمام عليه السلام ـ من دهق الماء إذا أفرغ إفراغا شديدا، والمحاق هو الليالي الثلاث من آخر كل شهر حين يختفي فيها القمر ويمتحق أي تبطل صورته، وسمى الإمام عليه السلام العلقة محاقا ناظرا الى هذه الدقة من مرحلة العلوق إذ لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد، فكانت ممحوة ممحوقة[3] .

والعلقة هي قطعة الدم الجامدة، والمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، وفيها تستطيل وتأخذ شكل اللحمة التي عضتها الأسنان أثناء المضغ [4]، «والمخلقة المسواة الملساء من النقص والعيب، يقال خلق السواك والعود، إذا سواه

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٦٠.

٢- الحج: ٥، وينظر في إعجازها العلمي: محمد إبراهيم ،القرآن وإعجازه العلمي: ١٠٣، الشيخ متولي شعراوي، معجزة القرآن : ٣٣ ـ ٣٤ .

٣- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٧٥.ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦١.

٤- ظ.الراغب، المفردات: ٤٦٩. محمد علي البار،خلق الإنسان بين الطب والقرآن : ٣٦٩.

وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم»[١] .

وجدير بالذكر أن كل تلك الألفاظ في القرآن الكريم التي تتابع مراحل تخلق الإنسان مثل (أطوار الخلق، النطفة، العلقة، المضغة، مرحلة تخلق الأجهزة، مرحلة الخلق الآخر) «لم يستطع العلم الحديث إلا أن يستخدمها»[٢].

وقوله عليه السلام (ظلمات الأرحام) تركيب استفاده من مجموع آيتين في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٣] .

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٤].

والظلمات الثلاث يعني بها «ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة»[٥]، وهو عين ما أكده علم الطب الحديث[٦] .

١- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٥. وينظر: الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٥٤٨.

٢- عبد الحميد دياب، أحمد قرقوز، مع الطب في القرآن الكريم: ٨٠. ظ.محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن: ٣٧٧. محمد حسين الصغير، رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ: ٣٨ ـ ٣٩.

٣- الزمر: ٦.

٤- آل عمران: ٦.

٥- الطبري، جامع البيان: ٢٣/ ٢٣٣. ظ.الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٣٨٨.

٦- ظ. سليمان عمرقوش، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم: ٢٧ .

وذكر الإمام عليه السلام في خطبة أخرى عظمة الله تعالى في خلق الإنسان مخاطبا إياه:

«بُدِئْتَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَوُضِعْتَ فِي قَرارٍ مَكِينٍ، إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لَا تُحِيرُ دُعَاءً وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا، فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ، هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ، فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ»[1].

وهذه المعاني العظيمة بإجمالها وتفصيلها أخذها من آيات القرآن الكريم في هذا الشأن، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[2].

غير أن الإمام عليه السلام سير هذه المعاني الشريفة في الاستدلال على عجز الإنسان عن إدراك صفة الله تعالى بعد عجزه عن إدراك صفة مخلوق مثله، بينا في الآيات الكريمة إثبات قدرة الله تعالى على إعادة الخلق بعد موتهم.

والسلالة المبنية بوزن القلة[3] هي «صفوة الشيء الذي يخرج منه كأنها تستل

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٨٧.

٢- المؤمنون: ١٢ ـ ١٦.

٣- ظ. النحاس، معاني القرآن: ٤/ ٤٤٦.

منه»[1]، وهي هنا خلاصة الطين لأنها سلت من بين الكدر، والقرار المكين كناية عن الرحم إذ «مكن فيه الماء بأن هيئ لاستقرار الماء فيه الى بلوغ أمده الذي جعل له»[2]، لأنها لو كانت متحركة لتعذر العلوق [3] ونشوء الجنين. وكلا اللفظين من مصطلحات القرآن الكريم.

وتأتي لفظة (الإنشاء) رديفة في صفة الخلق دائما في التعبير القرآني كما في الآية السابقة، وهي تدل على أن إنشاء الله تعالى للإنسان من أعظم نعمه عليه وإحداثه من دون سابقة في مادته لأنه من غير المتصور صيرورة الصفات المادية الداخلة في مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة ثم مضغة إنسانا ذا شعور وعقل وإحساس فهذه لا سابقة لها تماثلها[4].

واستمد الإمام عليه السلام من القرآن الكريم معاني خلق الكون فتكلم بإفاضة عن خلق الأرض ودحوها واختلاف الجبال وتفرق البحار،نحو قوله من خطبة له:

«كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا ،...، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ»[5] .

ويبدو من كلام الإمام عليه السلام أن الماء سابق على الأرض، فقوله (كبس) بمعنى أغاص الله تعالى الأرض في الماء بقوة، ويقال لضرب من التمر الكبيس لأنه يكبس حتى يتراص. والأواذي ما عظم من موج البحر .

١- الطوسي، التبيان: ٧ / ٣٥٣ .

٢- الطبرسي، مجمع البيان: ٧ / ١٨٠ .

٣- ظ .ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٨٥.

٤- ظ. الطبري، جامع البيان: ١٨/ ١٦. الرازي ،التفسير الكبير: ٢٣/ ٨٤. الطباطبائي، الميزان: ١٩/ ٣٦٣.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٩٦.

والمدحوة المبسوطة أو المقذوفة المرمية، وهذه من معاني وألفاظ القرآن الكـريم في قوله تعالى:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [1]، أي جعلـها كالبيـضة وهـي «ادق كلمـة في العربية إن لم تكن وحـدها تـشتمل علـى معنـى البـسط والتكـوير في آن واحـد .. وشكل البيضة يتوافق الآن مع أحدث الآراء العلمية عن الأرض التي تكونت عـبر المشاهدة من خارج الغلاف الأرضي ومن على سطح القمر»[2] .

ومن الجدير بالذكر أن الذائقة الفنية في التعـبير لم تفـارق عليـا عليه السلام حتـى في صياغة هذه المعاني المجردة الجديدة، فقد حفلت خطبتـه بالاسـتعارات والتـشبيهات غير المتكلفة، كاستعارة الاستفحال للأمواج بجامع الهيجان و«ما يظهر على رؤوس الموج عند اضـطرابه وغليانـه مـن رغـوة الزبـد كمـا يظهـر مـن فـم الفحـل عنـد هياجه»[3]، وكاستعارة السكون للأرض بجامع الهدوء .

وهو دليل لغوي علمي يضاف الى أن هذا الكلام لايمكن نـسبته الا الى قائلـه وقد تنبه ابن ابي الحديد(ت٦٥٦هـ) الى هذه السمة الأسلوبية مـن قبـل فقـال: «و أنت إذا تأملت نهج البلاغـة وجدتـه كلـه مـاء واحـدا، و نفـسا واحـدا و أسـلوبا واحدا، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضـه، مخالفـا لبـاقي الأبعـاض في الماهية، و كالقرآن العزيز أوله كأوسطه و أوسطه كآخره، و كل سـورة منـه، و كـل آية مماثلة في المأخذ و المذهب و الفن و الطريق، و النظم لباقي الآيات و الـسور، و لو كان بعض نهج البلاغة منحولا و بعضه صحيحا، لم يكن ذلك كذلك»[4].

١- النازعات: ٣٠.

٢- شاكر عبد الجبار، ملامح كونية في القرآن: ١١٥ .

٣- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٧٠ .

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٩ .

ويمضي الإمام عليه السلام في حديثه عن خلق الأرض في الخطبة نفسها فيقول:

«ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الْأَرْضِ، الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا»[1] .

والجرز هي الأرض التي لا نبات فيها لانقطاع الماء عنها وهي من ألفاظ القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ [2].

وكذلك قوله ناشئة السحاب فهي كلها من معاني وألفاظ القرآن الكريم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [3].

وكلام الإمام عليه السلام الأخير أخذه من معنى قوله تعالى:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [4] .

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [5].

وذكر عليه السلام الجبال في خطبته هذه فقال:

«وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا»[6] .

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٩٦.

٢- الكهف: ٨.

٣- الرعد: ١٢.

٤- الحج: ٥.

٥- فصلت: ٣٩ .

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٩٦.

فجعل الجبال سببا لسكون الأرض عن ميدانها واضطراب حركتها، في سابقة علمية رائدة، فقد ذكر ابن أبي الحديد «ان هذا القول يخالف قول الحكماء [يعني الجغرافيين والفلكيين]، لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك بل لأنها تطلب المركز، وهي حاصلة في حيزها الطبيعي، لكنا وإن كان مخالفا لقول الحكماء فإنا نعتقده دينا ومذهبا ونعدل عن قول الحكماء، لأن اتباع قوله عليه السلام أولى من اتباع أقوالهم»[1].

وهذا المعنى استفاده من أكثر من موضع في الكتاب العزيز نحو قوله تعالى:
﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [2]، وقوله تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [3] .

والرواسي جمع راسية من رسا إذا ثبت وقر لأن الأرض ترسو بها[4]، والراسي الداخل في الأرض[5] .

والتعبير القرآني ما فتيء يسمي الجبال رواسي صفة لموصوف محذوف، في دلالة واضحة على وظيفتها في مسك الأرض وخلق توازن يتيح الاستقرار فيها «ولو أراد أن يمسكها من غير جبال لفعل، إلا أنه امسكها بالرواسي لأن ذلك أقرب الى أفهام الناس وأدعى الى الاستدلال والنظر»[6] .

قال الرازي معلقا على هذه الآية الكريمة «واعلم أن الأرض ثباتها بسبب

١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٤٧.

٢- لقمان: ١٠.

٣- الأنبياء: ٣١.

٤- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٤. القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٨٠ .

٥- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٢/ ١٦٤.

٦- الطبرسي، مجمع البيان: ٦/ ٩ .

ثقلها وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح»[1] .

وفي كل ذلك «دلالة على أن للجبال ارتباطا خاصا بالزلازل ولولاها لاضطربت الأرض بقشرتها»[2] .

ويؤكد العلم الحديث ذلك فالجبال الرواسي وضعت «لتحفظ التوازن اللازم للكرة الأرضية التي تتكون من منخفضات عميقة في البحار والمحيطات ومرتفعات شامخة من الجبال والهضاب، وأنه لابد في هذه الحالة من استقرار للأرض واتزان لانتظام حركتها مع ثباتها وقد أثبتت الأبحاث العلمية نظرية التوازن في الكرة الأرضية بالبراهين الدامغة»[3] .

وأكد الإمام عليه السلام هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله:

«وَ جَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا»[4] .

والعماد هو العمود، والأوتاد أخذه من قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[5] .

أي ثبتنا الأرض بالجبال كما ثبت البيت بالأوتاد، فالوتد ما رز في الحائط أو الأرض من الخشب[6] .

وقد تكرر هذا المعنى في موضع آخر في كلام الإمام عليه السلام فمن دعاء له قال:

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢٥/ ١٤٣.

٢- الطباطبائي، الميزان: ١٤/ ٢٧٩، ١٦/ ٢١١.

٣- محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي: ١٤٥. ظ.شاكر عبد الجبار، ملامح كونية: ٥٧ ـ ٥٨.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤.

٥- النبأ: ٧.

٦- ظ. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٨/ ٤٠١. ابن منظور،لسان العرب: وتد .

«وَ رَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادا ..»[1] .

وقوله: (أرزها) بمعنى أثبتها فيها من قولهم: رزت الجرادة تـرز رزا، «وهـو أن تدخل ذنبها في الأرض فتلقي بيضها»[2] .

وأشار الإمام عليه السلام الى ثلاث حالات يمكن أن تتحرك بها الأرض لولا وجود الجبال، الأولى: أن تميد بأهلها أي تضطرب وتتحرك يسارا ويمينا .

والثانية: أن تسيخ أي تغوص وتهوي للثقل الذي عليها لذلك قـال (بحملـها) كما تسيخ قوائم الفرس في الأرض .

والثالثة: أن تزول عن مواضعها أي تتحرك عن مركزها.

ويفسر ابن أبي الحديد هذه الحالات بقوله: «فإن قلت ما الفرق بـين الثلاثـة: تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها ؟ قلت لأنها لـو تحركـت إمـا أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها، والأول هو المراد بقولـه: تميـد بأهلـها. والثاني تنقسم أن تنزل الى تحت أو لا تنزل الى تحت، والنزول الى تحـت هـو المـراد بقولــه: أو تــسيخ بحملــها. والقــسم الثــاني هــو المــراد بقولــه: أو تــزول عــن مواضعها»[3].

وتفيد (على) في قوله: (فسكنت علـى حركتهـا) معنـى (مـع)، كمـا في قولـه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [4].

وفضلا عن ذلك فقد أخذ أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه عن خلـق الأرض كـل الصفات التي أطلقها عليها القرآن الكريم، كقول الله تعالى:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠٦.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١/ ٥٨.

٣-المصدر نفسه: ١١/ ٥٩.

٤- الإنسان: ٨.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ [1]، وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾ [2]، أي وطاء مهيئا للتصرف فيه من غير أذية كالمهد للصبي ينوم عليه [3].

وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً﴾ [4].

فهذه المعاني اقتبسها الإمام عليه السلام بألفاظها فقال:

«فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشا» [5].

وأخذ الإمام عليه السلام قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾ [6]، فقال من دعاء له: «وَ رَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنام ... » [7].

ومن معاني خلق السماء أخذ قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [8].

فقال عليه السلام: «وَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَد..» [9]، و(شواهد خلقه) يعني بها شواهد ظهوره سبحانه لعقول خلقه، والموطدات المثبتات [10].

١- البقرة: ٢٢.

٢- النبأ: ٦.

٣- ظ.الطبرسي، مجمع البيان : ١٠/ ٢٣٩. الزمخشري،الكشاف: ٤/ ٢٠٨.

٤- نوح: ١٩.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤.

٦- غافر: ٦٤.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٠٦.

٨- لقمان: ١٠.

٩- الأنبياء: ٣١.

١٠- ظ. تستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٥٤.

ونظر عليه السلام الى معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [1]، فقال من خطبة في التوحيد:

«وَ كَانَ مِنِ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ، الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ»[2].

والرتق والفتق معنيان متقابلان، الأول يعني الضم والالتحام، والثاني يعني الفصل بين المتصلين[3].

ويبدو من معنى الآية الكريمة وتأكيد الإمام عليه السلام لها أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ثم فصل الله تعالى بينهما[4]، وقديما قالوا أصل الأجسام الماء والمقصود بالماء هنا الجوهر السائل الذي هو أصل كل الأجسام[5]، وخلقت الأرض من زبده والسماء من بخاره [6].

وتؤكد أحدث النظريات العلمية في نشأة الأرض والسماء هذا المعنى «وذلك أنهما كانتا في أول أمرهما ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما، ثم أنهما انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم»[7].

١- الأنبياء: ٣٠.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ١٨٧ ـ ٣٧١.

٤- ظ. الطوسي، التبيان: ٧/ ٢٤٠. الطباطبائي، الميزان: ١٤/ ٢٧٧.

٥- ظ. حامد حفني، نهج الحياة: ١٠٧.

٦- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١/ ٥٣.

٧- محمد إسماعيل إبراهيم،القرآن وإعجازه العلمي: ٦١. ظ.سليمان عمرقوش، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم: ١١٩ ـ ١٢١.

وقول الإمام عليه السلام في صدر كلامه مجاز أفاد التعظيم والأصل فيه (من اقتدار الله تعالى)، وقوله: (السموات السبع) من معاني القرآن الكريم التي تكررت كثيرا في التعبير القرآني كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [1]، وإعادة (رب) أفاد تعظيم العرش .

ومن تجليات التأثير القرآني في معاني خلق الكون والطبيعة استمداد الإمام عليه السلام من التبصر في أحوال الكون للوصول من خلالها إلى وجود الصانع الخالق، وهو أثر لطالما دعا إليه القرآن في آياته الشريفة نحو قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [2].

فقد استثمرها الإمام عليه السلام أدلة في تدرج منطقي الى وجود الصانع نحو قوله عليه السلام : «فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ » [3] .

وتحدث الإمام عليه السلام عن خلق السماء الدنيا و الشمس و القمر مستعينا بما ورد في القرآن الكريم من عمق هذه المعاني فقال: «ثُمَّ زَيَّنَهَا [السموات] بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ

١- المؤمنون: ٨٦. وينظر في تفسيرها: ابو السعود، تفسير أبي السعود: ٦/ ١٤٨.

٢- الحج: ١٨.

٣- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٦٥.

سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ»[1].

فقد تضمن هذا المقطع من خطبة الإمام عليه السلام حقائق علمية دل عليها ما توصل إليه العلم الحديث، فقوله: (النجوم الثواقب) يدل على أن ثمة نجوم مضيئة من ذاتها، فالنجم الثاقب هو المتوهج العالي المضيء كأنه في قوته يثقب الأفلاك فتنشق عنه وتنزوي[2]، وأخرى كواكب غير مشتعلة تستمد نورها من غيرها.

وهذه الحقيقة فهمها الإمام عليه السلام من قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[3]، ومعنى النجم الثاقب فهو من قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[4].

وقوله: (سراجا مستطيرا) يعني به الشمس، قال الخليل: «السراج: الزاهر الذي يزهر بالليل .. والشمس سراج النهار، والهدى سراج المؤمنين»[5] و(مستطيرا) أي يصدر النور بقوة كبيرة، بينما وصف القمر بأنه منير أي يعكس النور الذي يتلقاه من غيره مقتفيا بذلك عن وعي دقيق لآيات الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾[6].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٦٥.

٢- ظ.الزمخشري ،الكشاف: ٤/ ٢٤١. الآلوسي، روح المعاني: ٢٩/ ٣٧١.

٣- الصافات: ٦.

٤- الطارق: ١ ـ ٣.

٥- الفراهيدي، العين : (سرج) ٦/ ٥٣. ظ. ابن فارس، مقاييس اللغة: ٣/ ١٥٦. الزمخشري، أساس البلاغة: سرج ٢٠٦.

٦- الفرقان: ٦١.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾[2]، يعني بها الشمس «وتوهجت النار إذا تلمظت فتوجهت بضوئها وحرها»[3]، واختيار صيغة المبالغة بوزن (فعال) الدالة على كثير الفعل ومزاولته وتجدده[4] إشعار بقوة الإضاءة مع شدة الحرارة.وذكر الدكتور فاضل السامرائي «أن صيغة (فعّال) تدل على الحرفة والصناعة، وتقتضي الاستمرار والتكرار، والإعادة والتجدد، والمعاناة والملازمة»[5].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [6] لأن الضياء أقوى من النور وهذا فرق دلالي بينهما[7].

ووصف الإمام عليه السلام الشمس والقمر بأنهما في حركة فلكية دائرية مستمرة بقوله: (فلك دائر) و (رقيم مائر) أي فلك متحرك .

وكل ذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[8] .

وحرص على إتباع دقة التعبير القرآني في قوله تعالى:

١- نوح: ١٦.

٢- النبأ: ١٣.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٢٠٧. ظ.الطباطبائي، الميزان: ٢٠/ ١٦٣.

٤- ظ. ابن سيدة، المخصص: ١٥/ ٦٩. المبرد، المقتضب: ٣/ ١٦١.

٥- فاضل السامرائي، معاني الأبنية: ١١٠.

٦- يونس: ٥.

٧- ظ. محمد جمال الدين ألقاسمي، محاسن التأويل: ٩/ ٩.

٨- الأنبياء: ٣٣. وينظر في سورة: يس: ٤٠.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [1]، في وصف حركة الشمس التي «تجمع معاني الدوران السريع والعدو السريع» [2] فقال: (أجرى).

وأكد العلم الحديث أن للشمس حركة ذاتية تدور مع مجموعتها بحركة دائرية فقد «قرر علم الفلك بأن الشمس لها مجموعة من الأقمار والكواكب والمذنبات تتبعها دائما وتخضع لقوة جاذبيتها وتجعلها تدور من حولها في مدارات متتابعة بيضاوية الشكل، وجميع أفراد هذه المجموعة تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية، والخلاصة أن المجموعة الشمسية تجري في الفضاء بسرعة محدودة وباتجاه محدود وتبلغ هذه السرعة (٧٠٠) كيلو متر في الثانية وتتم دورتها حول المركز في مدى ٢٠٠ مليون سنة ضوئية في الثانية ولم يتوصل علماء الفلك الى معرفة هذه الحركة واتجاهها إلا في أوائل القرن العشرين» [3].

٤ـ الجهاد في سبيل الله:

عصفت الفتن بحياة المسلمين مذ بدأ الإمام عليه السلام – مع تولي الخلافة ـ إقامة شرعة الله وإتباع سنة رسوله فحيكت عليه المؤامرات والاحترابات الداخلية التي تحدد الوقوف بوجهها مصير الدولة الإسلامية [4]، لذلك كثر في كلام الإمام عليه السلام الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله وما تبع ذلك من شكواه من تباطؤ أصحابه واستثقالهم لاستجابة دعوته تارة وفرارهم وعدم صبرهم على القتال تارة أخرى [5].

١- يس: ٣٨.

٢- شاكر عبد الجبار، ملامح كونية في القرآن: ٦١ .

٣- محمد إسماعيل إبراهيم،القرآن وإعجازه العلمي: ٧٢. ظ.شاكر عبد الجبار، ملامح كونية في القرآن: ٦٠ ـ ٦١. ظ.حامد حفني، نهج الحياة: ١١٠.

٤- ظ. الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): ٢/ ٦٥.

٥- ظ. بثينة ابراهيم، خطب الجهاد في عصرصدر الإسلام (أطروحة دكتوراه): ١١٨ ـ ١٢٠ .

ومن هنا استمد الإمام عليه السلام معانيه في هذا الشأن من القرآن الكريم، إذ ثمة تشابه مابين مرحلة تثبيت دعوة الإسلام الجديد التي مر بها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إبان حياته وما بين مرحلة الفتن والحروب الداخلية في حياة أمير المؤمنين عليه السلام .

فالقرآن الكريم حفلت آياته الشريفة بحديث الجهاد والمجاهدين وكذلك الشأن في نهج البلاغة، فكان امتياح الإمام عليه السلام من معين القرآن طبيعيا غير متكلف لتشابه الحوادث .

تضمن نهج البلاغة الكثير من آيات الجهاد وتعبيراته مثل (الجهاد، سبيل الله، المجاهدون، حق جهاده، القتال)، كقوله عليه السلام :

«وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[1] .

فهو تقسيم أخذه الإمام عليه السلام من القرآن وراعى فيه تسلسله في تقديم الأهم فلم يحد عنه، فقدم الأموال في الذكر لأنها أول مصرف وقت التجهيز[2]، مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [3] .

والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو[4]، والجهاد بالأموال في إنفاقها واجب كالجهاد بالأنفس ،«فالجهاد بالمال تحمل لمشقة إنفاقها في وجوه البر، والجهاد بالنفس هو تعريضها لما يشق عليها اتباعا لأمر الله»[5] .

والجهاد الحق معنى أخذه من القرآن الكريم كقوله موصيا:

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ٢٣١.

٢- ظ. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥٣. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٥/ ٤٧.

٣- التوبة: ٤١.

٤- ظ.الراغب، المفردات: ١٠١ .

٥- الطوسي، التبيان: ٥/ ٢٦٩، ٥/ ٢٢٤. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ١٩١ .

«وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ»[1] .

وهو من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [2] .

لأن القياس أن يقال (حق الجهاد) ولكن لما كان الجهاد مختصا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، لأن الإضافة قد تكون بأدنى اختصاص [3]. والمقصود بحق الجهاد أن لا تأخذهم فيه لومة لائم، واستفراغ الوسع في المحافظة على ما أمر وما نهى[4] .

ومن خطبة أخرى في الجهاد قال الإمام عليه السلام :

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، ...، أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً، وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ، ...، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ، قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ، قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ، كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ، فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ»[5] .

وقوله الأول كرره مرارا مثل قوله في موضع آخر:

«الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ، أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ»[6] .

١- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ٢/ ١٨١.

٢- الحج: ٧٨.

٣- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٢٤. الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٥٧٣.

٤- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٣/ ٧٢.

٥- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٧٨.

٦- المصدر نفسه: ١/ ٤٣٥.

وهو من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [1]، و(خاصة أوليائه) استخلصه من معنى قوله تعالى:

﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [2] .

فجملة (فضل الله المجاهدين) موضحة لما نفى من استواء المجاهدين والقاعدين، والحسنى هي الجنة، «وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم»[3].

وإطلاق (لباس التقوى) عليه أخذه من قوله تعالى:

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [4] .

وفي أحد تفسيرات (لباس التقوى) «ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب»[5].

ولا مانع من أن يكون الإمام عليه السلام قد نقله إلى وظيفة فنية جديدة باعتبار أن لباس التقوى «لباس الباطن الذي يواري السوءات الباطنية التي يسوء الإنسان ظهورها وهي رذائل المعاصي من الشرك وغيره»[6].

والفرار من الحر معنى ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى:

١- آل عمران: ١٤٢.

٢- النساء: ٩٥.

٣- الزمخشري، الكشاف: ١/ ٥٥٥.

٤- الأعراف: ٢٦.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٧٤. الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٢٣٧.

٦- الطباطبائي، الميزان: ٨/ ٧٠.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [1].

لأنهم بسفاهتهم هذه «توقوا بالقعود عن الخروج حر الشمس، فخالفوا بذلك أمر الله وأمر رسوله، واستحقوا حر نار جهنم وكفى بهذا الاختيار جهلا ممن اختاره» [2].

وتكثر في تعبيرات الإمام عليه السلام لأصحابه عبارة (جهاد عدوكم) كقوله عليه السلام: «وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُم» [3].

وقوله: «إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُم» [4].

في إشارة إلى أن المشقة التي تبذلونها هي من أجل أنفسكم ودفع الأذى عنها وليس في ذلك من على أحد .

وهذا المعنى تردد كثيرا في آيات الكتاب العزيز كقوله تعالى:

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [5]، لأن ثواب صبره عائد عليه وواصل إليه دون الله تعالى [6].

وكثيرا ما يتعمد الإمام عليه السلام إيراد كلمة الجهاد مفتخرا لما لها من صدى قرآني، كقوله:

١- التوبة: ٨١.

٢- الطوسي، التبيان: ٥/ ٢٦٩. ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٠٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٥٨ .

٤- المصدر نفسه: ١/ ٩٢.

٥- العنكبوت: ٦.

٦- ظ .الطوسي، التبيان: ٨ / ١٨٨. الطبري، جامع البيان: ٢٠/ ١٥٩ .

«أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ، وَجِهَادِي فِي سَبِيلِ اللهِ، وَهِجْرَتِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللهِ، أَبُوءُ وَأَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ.»[1].

ولاشك في إن الإمام عليه السلام قاصد إلى استعمال هذه المفردة لما لها من مضمون قرآني عظيم امتدح الله تعالى عليه أهله بخاصة أمير المؤمنين عليه السلام [2].

وكقوله عليه السلام متوجعا ومفتقدا لأصحابه:

« أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه »[3]، فجعل من جملة ما وصفهم شدة استجابتهم لنداء الجهاد.

والإمام عليه السلام إنما ذكر ذلك مقدمة لما بعده فقال:

«الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ، أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ» .

ويعني بالرواح إلى الله تعالى: «الخروج إلى الجهاد الذي هو سبيله الموصلة إليه والى ثوابه»[4].

ويرتبط بموضوع الجهاد الصبر وما يعتري النفس من خوف وهلع فيلتقط الإمام عليه السلام تلك المعاني فيسخرها فيما يريد من تصوير أمر أصحابه في تقلبات أمزجتهم وهلعهم الشديد، فيقول:

« إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ،

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٢٢.

٢- ظ. الطبرسي، جوامع الجامع: ٢/ ٥٥.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٣٥.

٤- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٩٥.

وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ »[1].

وهذه الحالة النفسية التي يصفها الإمام عليه السلام لهؤلاء المرتعبين وجد لها شبيها في القرآن من قبل فاقتبس معناها، قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [2].

ومثل هذه الدعوة تتكرر في قوله عليه السلام:

« دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ، ...، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ»[3].

فقد وصف خروجهم إليه بالاضطراب والضعف، وكل ذلك ذم لهم وتوبيخ يستثير به طباعهم عما هي عليه من التثاقل لاستجابة ندائه[4].

والإمام عليه السلام ناظر في كل ذلك إلى ما يتداعى في ذهنه من قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [5]، وقوله الأخير اقتباس من قوله تعالى:

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [6].

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٩٢.

٢- الأحزاب: ١٩. وينظر في تفسيرها: الرازي، التفسير الكبير: ٢٥/ ٢٠١.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٠١.

٤- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٠١.

٥- محمد: ٢٠.

٦- الأنفال: ٦.

ومما يرتبط بموضوعة الجهاد قضية الفرار من المعركة، وقد ذكره القرآن الكريم في مواضع مختلفة ناهيا عن فعله ومحذرا من مغبته ومبطلا لحجته.

وفي نهج البلاغة نجد الإمامعليه السلام في كلامه بهذا الشأن كثيرا ما يستعين بالمضمون القرآني وينطلق منه في التوسع في تعبيراته، نحو قوله عليه السلام من خطبة حث فيها أصحابه على القتال:

«وَأيم الله لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ وَالسَّنَامُ الْأَعْظَم، إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ الله وَالذُّلَّ اللَّازِمَ وَالْعَارَ الْبَاقِيَ، وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِه»[1].

واستعار السيف للعاجلة ويعني بها حب البقاء واستعار السيف للآجلة ويعني به العذاب على سبيل المشاكلة. واللهاميم السادات والأجواد من الناس .

والسنام أعلى أعضاء البعير ويستعار لعلو المنزلة[2].

وإنما وصفهم الإمامعليه السلام بهذا ليكون ذلك رادعا لهم ووازعا .

وذكر لهم معايب الفرار من إنزال غضب الله وإلزام الذل والعار فيمن يفر مبينا عدم جدوى الفرار بأدلة مقنعة، استفادها من فكر القرآن ومضامينه كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[4].

ومن هذه المعاني توسع الإمامعليه السلام فرسم بالصورة هذا المعنى الساخر من

١- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٧٨.

٢- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨/ ٦.

٣- الأحزاب: ١٦، وينظر في تفسيرها: الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٢٥٤.

٤- الجمعة: ٨.

الفارين، فمن حكمة له قال عليه السلام:

«إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى .»[1].

ومما سبق بدا موضوع الجهاد في نهج البلاغة صدى لآيات القرآن الكريم يستمد منه الروح ويعضد به الرأي .

٥ـ الدعوة إلى التقوى:

اخذ موضوع التقوى من نهج البلاغة الحيز الأكبر فكان حديث الإمام عليه السلام فيها حديث من بصر بها ولمسها فوعظ ونصح وحذر.

ولاشك في أن موضوع التقوى مضمون قرآني محض جاء به الإسلام فكرا مجسدا بسلوك عملي لأن التقوى يعني امتزاج النظرية بالتطبيق، وهذا واحد من أسرار عظمة هذا الفكر القرآني الجديد وبقائه حيا .

وقد بدأ الإمام عليه السلام بنفسه في إضافة التقوى إليها ليكون للمسلمين قدوة بذلك، ومن ثم عرج على شرائح الأمة وأطياف المجتمع بالتزام التقوى منهجا قرآنيا، فتحدث أولا عن ذاته عليه السلام فقال: «وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى »[2] .

وبسبب هذا الارتباط الوثيق لمعنى التقوى بين الفكر والسلوك فقد أكثر

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣١١.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٢٢٣.

الإمام علي عليه السلام من ترديد هذه المعاني في كل مناسبة في خطبه ووصاياه ورسائله وحكمه منتهلا من القرآن الكريم ما شاء من غير تكلف وتعسر فكان في هذا المعنى وغيره بحق لسان القرآن الناطق.

إن كثرة استعمال الإمام عليه السلام لهذه المفردة القرآنية ومشتقاتها من أظهر آثار القرآن الكريم في نهج البلاغة فلفظة (التقوى) ومشتقاتها مثل (المتقين، تقاة، اتقوا، اتق، تقية ..) أكثر المفردات تداولا على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه يحكي القرآن أسلوبا ومضمونا وهذه المفردات في القرآن تكثر كثرة ملحوظة.

وللتقوى في القرآن معان مختلفة منها: الإيمان في قوله تعالى:

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [1]، أي التوحيد، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [2]، ومنها: التوبة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [3]، أي تابوا،

ومنها: الطاعة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [4] .

ومنها: ترك المعصية كقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا الله﴾[5]، ومنها: الإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[6]، أي من إخلاص القلوب[7].

١- الفتح: ٢٦.

٢- الحجرات: ٣.

٣- الأعراف: ٩٦.

٤- المؤمنون: ٥٢.

٥- البقرة : ١٨٩.

٦- الحج : ٣٢.

٧- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢/ ٢١.

وجاءت هذه المعاني ظاهرة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن التوبة قوله عليه السلام من رسالة إلى معاوية: «فَاتَّقِ الله فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ»[1].

ومن الإخلاص قوله: «وَ أَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ»[2].

ومن ترك المعصية قوله: «اتَّقُوا مَعَاصِيَ الله فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ»[3].

وجدير بالذكر أن الإمام علياً عليه السلام فهم معنى الإيمان من التقوى في الآية السابقة فقاله دون ذكر التقوى: «إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مؤْمِنٌ، امْتَحَنَ الله قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ»[4].

ومن الآثار البينة للقرآن في نهج البلاغة كثرة إيصاءات الإمام عليه السلام في كلامه بالتزود من التقوى في الدنيا والتهيؤ بها للقاء الله تعالى فهو معنى استقاه من قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[5]. فالتقوى تعني الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه وهي في «عرف الشرع والقرآن عبارة عما يتقى به من النار»[6].

والزاد الطعام الذي يتخذ للمسافر، والمزود الوعاء الذي يجعل فيه الزاد، والتزود من الدنيا هو تزود من الأعمال الصالحة[7].

وتحقيق الكلام أن «الإنسان له سفران: سفر في الدنيا وسفر من الدنيا،

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٨.

٢- المصدر نفسه: ٢/ ٣٩٦.

٣- المصدر نفسه: ٢/ ٣٨١.

٤- المصدر نفسه: ٢/ ٧٩.

٥- البقرة: ١٩٧.

٦- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٢/ ١٠١.

٧- ظ. الراغب، المفردات: ٢١٧. الطوسي، التبيان: ٢/ ١٦٦. الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ٤٥.

فالسفر في الدنيا لابد له من زاد وهو الطعام والشراب والمركب والمال. والسفر من الدنيا لابد فيه أيضا من زاد، وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه. وهذا الزاد خير من الزاد الأول»[1].

وعلى عادة أسلوبه عليه السلام في التوسع على الأصل القرآني فقد تعامل مع هذا المعنى تعامل من أبصره وأحسه، فقد كانت تلك الآية الكريمة حاضرة في ذهنه فبنى على أساسها كثيرا من المعاني والصور الفنية، كقوله عليه السلام موصيا:

«فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى»[2]، وقوله: «لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى»[3]، وقوله: «فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا، مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً»[4]، وقوله: «فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ، قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ»[5] .

ويبدو من الواضح أن الإمام علياعليه السلام يحرص في معانيه القرآنية هذه على الإتيان بلفظة القرآن الأصل وهي (التزود) في دلالة ذكية لإبقاء ذهنية المستمع ضمن الإطار القرآني ليتشارك معه في الفكرة، فهذا المعنى تشترك في اختزانه أذهان المسلمين وهو يستدعيه من ذاكرتهم ليؤثر فيهم غاية التأثير، لذلك جعل يردده ويدور حولها .

ولارتباط لفظة التزود بالـ(التقوى) فقد أصبح الإمامعليه السلام يطلقها على أساس هذا الفهم القرآني كما في أقواله الأخيرة. وأحيانا يضيف إليها ما يرادف

١- الرازي، التفسير الكبير: ٥/ ١٨٤.

٢- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤.

٣- المصدر نفسه: ١/ ٢٥٧.

٤- المصدر نفسه: ١/ ١٢٨.

٥- المصدر نفسه: ١/ ٣٦٧.

لفظ التزود متكلا على ارتباط هـذه اللفظـة بمعنـى التقـوى مثـل قولـه: «تَجَهَّـزُوا رَحِمَكُمُ الله فَقَـدْ نُـودِيَ فِـيكُمْ بِالرَّحِيـلِ... وَانْقَلِبُـوا بِـصَالِحِ مَـا بِحَـضْرَتِكُمْ مِـنَ الزَّادِ»[1]، وقوله في المؤمن: «جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ»[2].

ويبدو أن القران الكـريم هـو الـذي أوحـى إليـه في التوسـع بمعـاني التقـوى وتوليد مزيد منها عن طريق خلع المعاني الحسية عليهـا كمـا جـاء في قولـه تعـالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [3] ،وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّـسَ عَلَـى التَّقْـوَى مِـنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [4].

فحاكى الإمامعليه السلام هذه المعاني الشريفة وتوسع فيها كقوله: «أَلَـا وَإِنَّ التَّقْـوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْـطُوا أَزِمَّتَهَا فَـأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّـةَ»[5]، وقولـه: «أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ ،...، أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَـعُ حُمَـةُ الْخَطَايَا»[6] ،وقوله: «إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَـاتِ، حَجَزَتْـهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ»[7].

وقال من خطبة في التقوى والمتقين: «إِنَّ الْمُـتَّقِينَ ذَهَبُـوا بِعَاجِـلِ الـدُّنْيَا وَآجِـلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَـاهُمْ، وَلَـمْ يُـشَارِكْهُمْ أَهْـلُ الـدُّنْيَا فِـي آخِـرَتِهِمْ، سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَـا أُكِلَـتْ، فَحَظُـوا مِـنَ الـدُّنْيَا بِمَـا

١- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤.

٢- المصدر نفسه: ١/ ١٤٤.

٣- الأعراف: ٢٦.

٤- التوبة: ١٠٨.

٥- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٢.

٦- المصدر نفسه: ١/ ٣٧٦.

٧- المصدر نفسه: ١/ ٥٢.

حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ الله غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ »[1].

فعقد مقارنة بين المتقين والعاصين في مفهوم قرآني محض يربط أيما ربط بين التقوى والعمل ولا يجعل من المفاهيم الروحية أمرا معزولا عن الحياة. فالمتقون هم الرابحون في الدنيا والآخرة. وقوله (بالزاد المبلغ) أشار به إلى التقوى.

وكلام الإمام عليه السلام ـ إضافة إلى ذلك ـ مستل من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

ولعلم الإمام عليه السلام بما يراد من معنى (حق تقاته) التي ربما ترد في آيات الكتاب العزيز نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[3].

وليقينه بأن التقوى شعور باطني فقد تكرر قوله عليه السلام: «فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ»[4]، وقوله: «وَ أَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُم»[5].

وقوله(برز مهله) بمعنى فاق أقرانه في أشواطه. وقوله (أشعر) من الشعار لا الشعور وهو ثوب القلب[6] واستعير للتقوى كونها «تلازم النفس وتتصل

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٦٨.

٢- النحل: ٣٠.

٣- آل عمران: ١٠٢.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٠٦.

٥- المصدر نفسه: ٢/ ٨٤.

٦- ظ. مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٦.

بالقلب»[1] .

والمعنى اجعلوا التقوى«شعارا لقلوبكم وهو ما دون الدثار والصق بالجسد منه، أو يجوز اجعلوها علامة يعرف بها القلب النقي من القلب المذنب كالشعار في الحرب يعرف به قوم من قوم»[2] .

وأكد هذا المعنى في موضع آخر فقال: «فَاتَّقُوا اللهَ، تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ..»[3] .

أي تقية من استجمع أوصاف الإيمان من خوف الله وترقب رجائه. وظمأ الهواجر يقصد بها كثرة الصيام في أشد أوقاته [4] .

وذكر ذي اللب لأن عمله يصدر عن علم وبصيرة [5] .

بل لشدة انصهار معاني التقوى في نفس الإمام عليه السلام كانت كلماته فيها تنفذ إلى القلوب لصدقها وقدرتها على التأثير، جاء في نهج البلاغة إن أحد أصحاب الإمام علي عليه السلام الورعين يقال له همام سأله أن يصف له المتقين كأنه يراهم فنصحه بترك طلبه لكنه أصر، فقرأ الإمام عليه السلام خطبة مرتجلة بين فيها أحوال المتقين وصفاتهم، وما أن انتهى منها حتى صعق لها الرجل صعقة كانت نفسه فيها لشدة تأثره بما سمع ورأى من صور التقوى، فقال الإمام عليه السلام : «**أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا تُصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا**»[6] .

١- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٢٢.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٢١.

٣- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ١٥٨.

٤- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٦. محمد عبده، نهج البلاغة : ١/ ١٥٤.

٥- ظ. مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ١/ ٤٠٢.

٦- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٦ .

وكانت معظم الصفات التي خلعها أمير المؤمنين عليه السلام على المتقين مستلة من وصف القرآن الكريم لهم كقوله عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ، غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ»[1]، فمقدمة كلامه نظر فيها الى قوله تعالى:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[2].

فكأنه عليه السلام أخذ الألفاظ فألغاها وأتى بمعناها كما يقول ابن أبي الحديد[3].

أما الصفات التي وسم بها المتقين فهي مستخلصة من الفهم العميق لآيات القرآن الكريم في هذا المعنى، فقوله: (منطقهم الصواب) مستل من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[5].

أما قوله عليه السلام: (مشيهم التواضع) فهو من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[6]، وقوله:

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٣.

٢- الزخرف: ٣٢.

٣- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٣٥.

٤- المؤمنون: ٣.

٥- الفرقان: ٧٢.

٦- الفرقان: ٦٣.

(غضوا أبصارهم..) فهو من قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [1]، وقوله: (وقفوا أسماعهم..) أخذه من معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [2].

ويمضي عليه السلام في خطبته فيقول: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ» [3].

فهذه المعاني التي يرسمها بما وهب من طاقة لغوية لاشك تداعت إلى ذهنه مما اختزن من وصف القرآن العظيم لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه الأصفياء في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [4]، وقوله: (يستثيرون به دواء دائهم) من معنى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [5].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه فيقول: «وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، ...، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا

١- النور: ٣٠.

٢- الزمر: ١١٨.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٣.

٤- الفتح: ٢٩.

٥- الإسراء: ٨٢.

زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي»[1].

وخوف المؤمنين وخشيتهم من الله تعالى من الصفات التي امتدحها القرآن لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[3].

وقوله: (هم لأنفسهم متهمون) استخلصه من معنى قوله تعالى:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[4].

وإشفاقهم من أعمالهم واتهامهم لأنفسهم لعلمهم بأنه:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[5].

بدا مما سبق من البحث أن معاني القرآن الكريم تنصب انصباباً على لسان أمير المؤمنين عليه السلام فهو يدور حيث تدور، وهو يرصدها رصداً إيجابياً لتوظيفها عبادياً في محاور تحدثنا عنها كان أبرزها: الباري عز وجل، والكون بعوالمه الكبرى، والإنسان في ميادينه كافة.

* * *

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٣.

٢- الأنفال: ٢.

٣- الأنبياء: ٢٨.

٤- يوسف: ٥٣.

٥- المائدة: ٢٧.

الفصل الثاني
الشاهد القرآني في نهج البلاغة

توطئة:

بان مما سبق أن انسياب التأثير القرآني إلى نهج البلاغة أخذ أبعادا مختلفة، فتباينت أشكاله فيه بتنوع امتياح الإمام عليه السلام من معينه غير المحدود، فتارة يستقي الفكرة ويتسع في الكلام على أساسها، وتارة أخرى يقتبس اللفظ فيوظفه في موقف فني آخر وتارة ثالثة يستعمل الشاهد القرآني بمعناه ومبناه وكل ذلك يدل على انصهار الإمام بآيات القرآن الكريم والتصاق وذوبان روحه في روحه .

وحتى استعمال الشاهد القرآني له مداخل مختلفة إلى كلام الإمام علي عليه السلام، فقد تفرد الإمام عليه السلام في أساليب استعماله له والاستشهاد به.

أولاً: أسلوب الإمام عليه السلام في استعمال الشاهد القرآني:

لعل واحدا من أسرار لذة القراءة في نهج البلاغة وانفعال المتلقي معه هو التماس مشارب الأخذ المختلفة من القرآن الكريم لأن ذلك أدعى إلى تجدد روح الإصغاء وتنشيط لذة الاستماع.

وما من شك في أن تعدد استقاءات الإمام عليه السلام من القرآن الكريم أمر فرضه عليه الموقف الفني وحتمه في كلامه العلاقات الجديدة التي يبنيها ما بين مفردات عباراته، ولكن لحضور النص القرآني في ذهنه والقدرة على استجلابه ساعة يشاء شأن آخر يدل على تذوق الإمام عليه السلام للقرآن وشدة حفظه الواعي لمضامينه بحيث

لا تنفلت أفكاره من الإطار القرآني ولا يجد هو بعد عنتا في استدعاء ما يشاء من ألفاظه ومعانيه وفي أي موضوع يعرضه .

ومن هنا نجد الاستشهاد بآيات القرآن الكريم يأخذ سمة أسلوبية في كلامه تميزه عن غيره .

ومن استقراء كلامه عليه السلام في نهج البلاغة يمكن تلمس ثلاثة أساليب لاستشهاد الإمام عليه السلام بالقرآن هي:

١ـ التصريح بنسبة الشاهد:

اي التصريح باسم الخالق في عرض الشاهد القرآني، ففي كثير من كلامه عليه السلام يصرح قبل قراءة النص القرآني بنسبته الى الله تعالى بلفظ القول، مثل قوله يذكر مبايعته:

«فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ الله حَيْثُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَلا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، بَلَى وَالله لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا»[٢].

وقيل المراد بالعلو التكبر بغير الحق لأن أصل التكبر الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا الله يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٣]، والمراد بالفساد أخذ الأموال بغير الحق[٤]، وقوله: (تلك) تعظيم للدار وتفخيم لها أي تلك الدار التي

١- القصص: ٨٣.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٤.

٣- الصافات: ٣٥.

٤- ظ. النحاس، معاني القرآن: ٥/ ٢٠٥. الثعلبي، تفسير الثعلبي: ٧/ ٢٦٦.

بلغك وصفها[1] .

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة هو «أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الأرض أي ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم ولا فسادا فيهم »[2].

والإمام عليه السلام يعرض شكواه من كيد المتآمرين عليه وجاء تعمده في التصريح بنسبة الآية إلى الله تعالى نكاية بهم وتوبيخا لهم خاصة بعد أن مهد لها بتشبيههم بحال من لم يسمع الآية التي قرأها وهي تنطوي على ضمانة من الله تعالى بحسن عاقبة المتقين .

فاستشهاده بهذه الآية الكريمة تأكيد لزهده بالدنيا من جهة وتذكير «بأن العاقبة الجميلة من الثواب للذين يتقون معاصي الله ويفعلون طاعاته »[3] من جهة ثانية.

وجاء قبح طلب العلو في الأرض لأنه يعد ركونا إليها، وتركا لطلب العلو في الدار الآخرة فضلا عن مخالفة تعاملها بما أراد الله باعتبارها دار ارتحال لا دار مقام .

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وحده، وهو وال يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ الآية الكريمة السابقة ويقول نزلت هذه الآية في أهل العدل، والتواضع من الولاة وأهل القدر من الناس، وجاء عنه قوله: «من أعجبه شسع نعله على شسع أخيه فهو ممن يريد العلو في الأرض»[4].

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٧٥٦.

٢- ابن كثير، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤١٢.

٣- الطوسي، التبيان: ٨/ ١٨٢.

٤- السمعاني، تفسير السمعاني: ٤/ ١٦١.

وقال عليه السلام في عهده لمالك الأشتر لما ولاه مصرا:

«وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [1]»[2] .

فقد حذره من ثلاث رذائل: المن على الرعية بإحسانه إليهم، والتزيد فيما فعله بحقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل والثالثة: أن يخلف موعوده لهم. ثم بين سبب التحذير، فالمن يبطل الإحسان إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [3].

والتزيد يذهب بنور الحق ويعني بالحق الإحسان إليهم والصدق في ذكره في موضع الحاجة إليه [4]، و«لما كان التزيد نوعا من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق»[5] .

ونفر عن الخلف بالوعد كونه سببا للمقت عند الله والناس، أما عند الناس فذلك ظاهر، وأما عند الله تعالى فقد استشهد له بالآية السابقة محل كلامنا. والآية نزلت في المنافقين، «ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح الكلام

١- الصف: ٣.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٣.

٣- البقرة: ٢٦٤.

٤- مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ٤/ ١١٩.

٥- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٨٤.

وابلغه في معناه»[1]، وزيادة في تعظيم أمر المقت في نفوس السامعين أورده بصيغة التعجب (كبر) [2] لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله واسند إلى (أن تقولوا) ونصب (مقتا) على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه.

واختير لفظ (المقت) لأنه من أشد البغض وأبلغه، ومنه قيل نكاح المقت إذا تزوج الرجل امرأة أبيه[3] ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعل أشده وأفحشه (عند الله) أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته[4] .

وقال عليه السلام ينصح الناس:

« أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْـمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ، وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْـمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [5] وَقُلْتُمْ رَبُّنَا اللهُ فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا»[6] .

وكلام الإمام عليه السلام هذا من أوائل خطبه التي خطب أيام بويع بعد مقتل

١- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٩٧.

٢- ظ. الزركشي، البرهان: ٢/ ٣١٨. السيوطي، الإتقان: ٢/ ٢٠٦.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ٤٧٠.

٤- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٩٧. أبو السعود،تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٤٢.

٥- فصلت: ٣٠.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤١٨.

عثمان، وقوله: (القدر السابق) يشير به إلى خلافته فقد أثر أن رسول الله ﷺ أخبره أن الأمر سيفضي إليه منتهى عمره وعند انقضاء أجله[1].

والاستقامة تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو، وبه شبه طريق الحق[2]، وهي هنا كلمة جامعة تعني«لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه»[3].

والغرض من استشهاده بالآية الكريمة حضهم على العمل في ربط القول بالفعل فلا يكفي الإقرار بالربوبية على اللسان بل ينبغي أن يتبع ذلك الإقرار الاستقامة في السلوك والعمل وعندها يكون الباعث على العمل نابعا من الإقرار في القلب. وبهذا الإقرار يذكرهم الإمام عليه السلام فيوصيهم باتباع السلوك القويم .

ولكن لماذا يصرح الإمام عليه السلام تارة بنسبة الآية الكريمة التي يستشهد بها في كلامه ويعدل عن ذلك تارة أخرى ؟

يبدو من استقراء الآيات الكريمة في نهج البلاغة التي صرح بنسبتها إلى الله تعالى أن الإمام عليا عليه السلام يصرح بنسبة الآية إذا كان كلامه في معرض المواعظ والنصائح بغية التأثير في نفس السامع لما لذلك من وقع في نفس السامع، ولأن ذلك أدعى إلى إصاخة أسماعه إليه وتقبله لأنه حجة أخرى يضيفها الإمام عليه السلام إلى كلامه ودعم رأيه، فهناك أكثر من اثني عشر موضعا في نهج البلاغة استشهد فيها الإمام عليه السلام بآيات صرح بنسبتها إلى الله تعالى وأغلبها جاء في الوعظ والنصح .

١- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٢٦. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٥٨.

٢- ظ. الراغب، المفردات: ٤١٨.

٣- الطباطبائي، الميزان: ١٧/ ٣٨٩.

أ- عدم التصريح بنسبة الشاهد:

أي عدم التصريح بلفظ الجلالة في عرض الشاهد القرآني، وهو الأكثر ورودا في كلام الإمام عليه السلام، إذ اقتبس من الكتاب العزيز آيات كثيرة ناسبت الغرض الذي أوردها الإمام عليه السلام من أجله في دلالة واضحة على قوة حضور النص القرآني في ذهن الإمام عليه السلام.

وفي هذا النوع من الاستشهاد بالقرآن نتلمس قدرا عاليا من الإبداع في بناء الجمل يتناسب مع عدم التصريح بنسبة الآية إلى الله تعالى لأن على الإمام عليه السلام إيجاد مناخ تركيبي للعبارة مناسب لما اقتبس من عظمة الآية وفنية صياغتها وعمق معناها. وهذه القدرة العالية على البناء التركيبي الجملي ستجعل كثيرا من الآيات المستشهد بها تبدو وكأنها من عبارات الإمام عليه السلام لقوة ارتباطها بالعلاقات الجملية في كلامه، ولا مغالاة في القول: لو لا أنها من آيات الكتاب العزيز لما ميزناها من كلام الإمام عليه السلام.

وعلى أية حال فقد شمل هذا النوع من الاستشهاد بآيات الكتاب العزيز كل المضامين التي تحدث عنها الإمام عليه السلام من خلق الإنسان والكون وتوحيد الله تعالى وحديثه عن حقه المضيع في الخلافة وشكواه من استبطاء أصحابه لاستجابة أمره.

ويمكن القول أن كل ما مر في البحث من آيات كريمة في فصول سابقة شواهد لما نقول، ومنها قوله عليه السلام لأصحابه يحثهم على الصمود في الحرب:

« فَصَمْداً صَمْداً حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَق ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [1]»[2]، وقوله عليه السلام:

1- محمد: ٣٥.

2- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٣٢.

«وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ... حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [1]»[2] .

فهذه الآيات التي يقتبسها الإمام عليه السلام يحاول إيجاد علاقات لها من خلال التمهيد لها بالمعنى وشدها الى صياغاته لتبدو واضحة الدلالة من أنها من كلام الله تعالى، وفيها إشارة في الوقت ذاته أن لنسيج كلامه دلالة أخرى على ذوبانه في النص القرآني.

٣ـ التذييل:

وأعني به اختتام الكلام بآية من الكتاب العزيز، وتلك من سمات أسلوب الإمام عليه السلام في الاستشهاد بالقرآن الكريم فكثيرا ما يذيل كلامه بآية مناسبة لما عرض من أفكار بحيث يجعلها مختزلة في الآية التي ختم بها كلامه .

وهذا الأسلوب يكثر في كلامه كثرة بينة خاصة في خطبه إمعانا في التأثير. ولاشك في أن لسحر القرآن وقعه في النفس خاصة وأن الإمام عليه السلام يتعمد اختتام كلامه بآية مناسبة لغرضه وكأنها توقيع منه لخطبته.

ولو أننا نملك الآليات التي تبين طريقته في إلقاء خطبه لأمكن الجزم بأن الآية التي يختتم بها الإمام عليه السلام كلامه لاشك يميزها بعلو نبره أو مد صوته فيها التماسا للتأثير القرآني في نفوس السامعين ورغبة منه لتمييز الآية الكريمة عن كلامه لأنه

١- فاطر: ٨ .

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٨٢.

في الغالب يوردها الإمامعليه السلام بطريقة عدم التصريح بنسبتها إلى الله تعالى.

وأسلوب الإمامعليه السلام في تذييل كلامه بالآيات الكريمة يكثر في خطبه التي تنطوي موضوعاتها على الوعظ والنصح والدعوة إلى القتال والتنفير من الدنيا والتذكير بالآخرة والدعاء والترغيب والترهيب ويقل في خطب التوحيد والموضوعات التي تخف فيها حدة العاطفة كموضوعات خلق الإنسان والسموات والأرض وخلق الحيوان [1].

قال الإمام علي عليه السلام من خطبة وعظ فيها الناس:

«... مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ، لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ، الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي، فـ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2]» [3].

ويؤكد الإمامعليه السلام في كلامه حقيقة قد يتغافل الإنسان عنها وهي أن رجعة العمر غير مرجوة ورجعة الرزق مرجوة لأن «الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه أي يكتسب عوضه في الغد دينارا، وأما أمس نفسه فمستحيل أن يعود ولا مثله لأن الغد وبعد الغد محسوب من عمره وليس عوضا من الأمس»[4]. وهذا الكلام أكده بقوله الثاني الذي أجراه مجرى المثل وجعل الجائي مرجوا لأنه لا يعلم غيبه. وجعل آخر كلامه آية اختتم فيها وعظه ولخص أفكاره.

ويبدو أن لفظ النهي في الظاهر واقع على الموت والمعنى واقع على الإسلام

١- ظ. صبحي الصالح، نهج البلاغة (فهرس الموضوعات): ٧٣٣. فارس تبريزيان، نهج البلاغة: ٧٠٧ ـ ٨٠٨. أويس كريم، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة: ٢٢٢.

٢- آل عمران: ١٠٢.

٣- الإمام عليعليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٧٦.

٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٦٠.

«أي دوموا على الإسلام فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على هذه الحالة وإنما جاز هذا لأنه لا لبس في الكلام إذ كان معلوما أنهم لا ينهون عما ليس من فعلهم وإنما يتوجه النهي إلى المعنى الذي هو في مقدورهم»[1].

ووجه استشهاد الإمام عليه السلام بالآية هو التمسك بالتقوى والثبات على الإسلام لأن فيهما كل الرجاء .

ويتعمد الإمام عليه السلام في الدعاء تذييل كلامه بآية كريمة من الكتاب العزيز لإلقاء مزيد من الإيحاء القرآني على دعائه، فقد ورد أنه عليه السلام كان يقول إذا لقي العدو محاربا:

«اللهمَّ أَفْضَتِ إِلَيْكَ الْقُلُوبُ وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ، اللهمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآن، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَان، اللهمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[2]»[3]، قال الإمام عليه السلام كلامه هذا وهو رافع يديه وأصحابه يؤمنون[4] .

والمراد من معنى الآية الكريمة أي احكم بيننا أو أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف بأن تنزل عليهم عذابا يتبينوا معهم أنهم على الباطل[5]، «وهذا استعجال منه للنصر»[6]، والآية مأخوذة من دعاء شعيب عليه السلام

١- الشريف الرضي، حقائق التأويل: ٢٠٠. ظ. ابن الجوزي، زاد المسير: ٢/ ١١.

٢- الأعراف: ٨٩.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٤٩.

٤- ظ. سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس: ٤٢١.

٥- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٩٦ .

٦- الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٣٠٥.

يسأل ربه أن يفتح بينه والمؤمنين به وبين المشركين من قومه، والفتح هو الحكم الفصل لأن الفتح الفصل في الأمر وإزالة الإغلاق عنه والفصل إبانة أحد الشيئين حتى يكون بينهما فرجة [1].

وشعيب عليه السلام «دعا بالفتح وكنى به عن الحكم الفصل وهو الهلاك أو هو بمنزلته وأبهم الخاسر من الرابح والهالك من الناجي وهو يعلم أن الله سينصره وأن الخزي اليوم والسوء على الكافرين لكنه عليه السلام أخذ بالنصفة للحق وتأدب بإرجاع الأمر في ذلك إلى الله تعالى» [2].

كما أتى بنظير ذلك في قوله السابق: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [3]، وخير الحاكمين وخير الفاتحين اسمان من أسماء الله الحسنى. إذن في الآية استعجال للنصر [4]، ومن هنا وقع استشهاد الإمام عليه السلام بها مختتما بها دعاءه.

وذيل الإمام عليه السلام خطبة له في المنافقين بآية اعتصرت كل المعاني التي أوردها فيهم، منها قوله في آخرها:

«وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ وَحُمَةُ النِّيرَانِ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [5]» [6].

١- ظ. الراغب، المفردات: ٣٧٠ـ ٣٨١. ظ.ابن منظور، لسان العرب: فتح، فصل.

٢- الطباطبائي، الميزان: ٨/ ١٩٢.

٣- الأعراف: ٨٧.

٤- ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٣٠٧.

٥- المجادلة: ١٩.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٩.

والتمويه التزيين للخداع وأصله تطلية الحديدة بذهب يحسنها .وتهيئة الطريق يعني به طريق الباطل لتسلك بتمويهاتهم وإضلاع المضيق إمالته أي جعلوا المسلك الضيق معوجا بتلبيسهم وتمويههم فإذا أسلكوه إنسانا اعوج لاعوجاجه .

وأراد باللمة الجماعة والحمة السم وكنى عن إحراق النار بالحمة للمشابهة في المضرة[1] .

وجاء استشهاد الإمامعليه السلام بالآية الكريمة مطابقا تمام المطابقة لما هو فيه لأن الآية ضمن سورة نزلت في المنافقين وهي سورة المجادلة، ويبدو أن كثيرا مما وصف الإمامعليه السلام المنافقين مستل من صفات القرآن لهم في السورة التي ذكرناها. لأن تعبير القرآن في (أولئك) سبقه صفات كثيرة في المنافقين قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ* اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2] .

والأمثلة كثيرة في هذا المجال ولا يسع المقام لمزيد وأكثرها في الوعظ والتحذير.

أما في الرسائل فقد جاء استشهاد الإمام عليه السلام بآيات القرآن العظيم في آخر كلامه في موضوعاتها التي حملت عاطفة حادة من الغضب أو التهديد وهي قليلة

١- ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٦٩.

٢- المجادلة: ٤ـ١٩. ظ.في تفسيرها: الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ٤٢٠. الطباطبائي، الميزان: ١٩/ ١٩٣.

مثل رسالته إلى أحد عماله وقد خانه في الأمانة:

«وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ، الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾»[١]، فقوله الأخير من قوله تعالى:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٢]، والتنادي نداء استغاثة من نزل به العذاب[٣]، وهو معنى أعاده الإمام عليه السلام بقوله: (يتمنى المضيع فيه الرجعة) .

وقال الإمام عليه السلام مهددا في رسالة إلى معاوية ذيل آخرها بقوله:

«فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِالْإِحْسَانِ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سِرْبَالَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا، فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[٤]»[٥].

والآية من سورة قصت عقاب الله تعالى لقوم لوط بالحجارة المسومة وقيل المراد بـ(الظالمين) ظالمو أهل مكة والمعنى «وليست هذه الحجارة من ظالمي أهل

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٦.

٢- ص: ٣. ظ. في تفسيرها: الطوسي، التبيان: ٨/ ٥٤٢.

٣- الرازي، التفسير الكبير: ٢٦/ ١٧٥.

٤- هود: ٨٣.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٦.

مكة ببعيد أو المعنى: ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة والشام»[1].

واختيرت الآية في هذا المقام لأن فيها وعيدا لأهل مكة [2] .

وما بين معاوية بن أبي سفيان والمشركين من أهل مكة من الشبه في المواقف ما يستدعي التذكير بهذه الآية الكريمة .

ثانياً: توظيف الشاهد القرآني:

إذن للشاهد القرآني وظيفة يأتي به الإمام عليه السلام تقوية للمعنى وتعضيدا للحجة. ويمكن حصر وظائفه على النحو الآتي:

١ـ إصلاح الذات وتهذيب النفس:

لا ريب في أن هذا معنى عام يشمل كل معاني الدعوة إلى مكارم الأخلاق والسمو بالنفس عن الصغائر وكل ما يشد النفس إلى الدنايا، وتقف على رأسها الركون إلى الدنيا والاستخذاء لها. وقد حفل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة بمواعظ نفر فيها عن الدنيا متوسلا لأجل التأثير والإقناع وإيصال المعاني بوسائل عدة مما امتلك من موهبة حسن استثمار طاقات اللغة ومن حضور قوي للنص القرآني، كقوله محذرا:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، ....، لَا تَعْدُو ـ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ

١- الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٣٤٤.

٢- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٨٤.

الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِها ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[1] لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ، إِلَّا أَعْقَبَتْهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً ...»[2] .

والإمام عليه السلام في معرض التزهيد بالدنيا وملذاتها ولم يجد مثلا لذلك مثل الآية التي تمثل بها فقد «شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن»[3] .

فقد صور هذا المشهد السريع قصر الحياة الدنيا بلقطات سريعة خاطفة اختصرت الحياة كلها فهو ماء ينزل من السماء فيختلط به النبات فيصبح هشيما أي نباتا يابسا متكسرا تذروه الرياح «فهذا التعقيب الذي تمثله هذه الفاء في تتابع المراحل يتفق مع طريقة العرض السريعة»[4].

ويرى الإمام عليه السلام أن تهذيب النفس وإصلاحها يبدأ من التخلي عن ملذات الدنيا لذلك كثر في كلامه الإيصاء بذلك والتنفير من الركون إلى الدنيا كقوله مذكرا ومخوفا:

«وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ، فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى الله مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا

١- الكهف: ٤٥. ظ. في تفسيرها: الطباطبائي، الميزان: ١٣/ ٣١٨.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٧.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٤٨٦.

٤- سيد قطب، التصوير الفني: ١٠٨. ظ. عباس الفحام: التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام: ٨١ ـ ٨٣ (رسالة ماجستير) جامعة الكوفة ١٩٩٩م .

يَفْتَرُونَ﴾[1]»[2].

وهنالك اسم يشار به للبعيد والمعنى: في ذلك الموقف تختبر كل نفس حالها لمعرفتها بتحصيل أعمالها «إن كان حسنا فهي سعيدة وإن كان سيئا فهي شقية»[3].

أما الفقرات الثلاث من الآية «أعني بها (تبلوا كل نفس) الخ، وقوله (وردوا الى الله) الخ، وقوله (وضل عنهم) الخ، كل منها تعين الأخريين على إفادة حقيقة معناها، ومحصل مفاد المجموع ظهور حقيقة الولاية الإلهية يومئذ ظهور عيان وأن ليس لغيره تعالى إلا الفقر والمملوكية المحصنة فيبطل عند ذلك كل دعوى باطلة وينهدم بنيان الأوهام»[4].

ولاشك في أن هذا الاستشهاد القرآني يضيف إيحاء مؤثرا في نفوس السامعين ويجعل حجة الإمام عليه السلام عليهم أقوى .

وفي مورد آخر من موارد إصلاح النفس حذر الإمام عليه السلام من الوقوع في العصبيات الضيقة كقوله:

«... أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقِهِ، فَقَالَ أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ، وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فـ﴿قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[5] فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ

١- يونس: ٣٠.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٥١.

٣- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٣٥. ظ.الطبرسي، مجمع البيان: ٥/ ١٨٢. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي: ٢/ ٤٠١.

٤- الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٤٧.

٥- سبأ: ٣٥.

وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ»[1].

يذكر أن مناسبة خطبة الإمام عليه السلام هذه «أن أهل الكوفة قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنخع ! مثلا، أو يا لكندة ! نداء عاليا يقصد به الفتنة وإثارة الشر، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون: يا لتميم ! ويا لربيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسل السيوف وتثور الفتن، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم لبعض»[2].

ووجه تمثل الإمام عليه السلام بالآية الكريمة حب النفس والتعصب للأنانية لأن الآية جاءت تحكي قول المترفين من الأغنياء والجبابرة ضيقي الأفق فهم يقولون إنا: «فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك»[3].

وذكر إبليس كونه أصل العصبية ومبدأها والمترفون وهم الذين أطغتهم النعم تلاميذ إبليس وكل منهما ينطلق من مفهوم واحد من العصبية للنفس[4].

ومثل هذا تحذير الإمام عليه السلام من الوقوع في حبائل الشيطان فقال:

«فَاحْذَرُوا عِبَادَ الله أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، وَ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٠٤.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٦٨.

٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٠٥.

٤- ظ. ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٩٢.

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [1] قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ وَرَجْماً بِظَنٍّ مُصِيبٍ»[2]، والإغواء الإضلال .

وقال عليه السلام يعظ بسلوك الطريق الواضح:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ﴾ [3] فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ، خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ»[4]، والمراد بكلام الإمام عليه السلام «إنما يجمع الناس في عذاب الله رضاهم بالمنكرات ومعاصي الله وإن لم يباشرها أكثرهم وسخطه لمحابه من الأعمال»[5] .

ووجه الاستشهاد بالآية كون قصة ثمود مصداقا حقيقيا لما قال الإمام عليه السلام لأن عاقر الناقة واحد ولكن العذاب شمل الجميع لرضاهم بذلك الفعل المنكر.

وقوله الأخير تفسير للعذاب الذي لحق قوم ثمود«فشبه صوت أرضهم في خسوفها وذهابها في الأرض بصوت السكة المحماة عند الحرث بها وإنما زادها صفة المحماة تنبيها على قوة تصويتها وسرعة غوصها لأن المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على ما يقتضيه حركتها ويعينها الحمى على النفوذ»[6] .

وأراد الإمام عليه السلام بتعريف (العذاب) التخصيص أي: عذاب يوم عظيم سبق

١- الحجر: ٣٩. ظ. في تفسيرها: الرازي، التفسير الكبير: ١٤/ ٣٩.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩١.

٣- الشعراء: ١٥٧ .

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٦٩ .

٥- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٩٢.

٦- المصدر نفسه: ٣/ ٤٧٤.

أن حذروا منه .

والإمام عليه السلام في ذلك متبع للقرآن في قوله تعالى:

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [1].

وقال داعيا الى سمو النفس:

«لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ، أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [2]» [3]، ويعني بالكافر هنا ناكر الجميل والمعروف وبالشاكر المستحسن للإحسان لذاته ولو صدر من عدوه، والمعنى «اصنع المعروف لأنه معروف أو طلبا لمرضاة الله، وإن أبيت إلا أن تتقاضى عليه مدحا وثناء فإنك واجد لسانا من الطيبين يشكرك ويذكرك حتى ولو كفر بنعمتك وفضلك من أنعمت عليه وتفضلت» [4]، وحب الله تعالى للمحسنين بمعنى إثابتهم وتنعيمهم [5] و«محبة الله للعبد أعم درجات الثواب» [6].

وقال عليه السلام معرفا بالزهد:

«الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ [7] وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي،

١- الشعراء: ١٥٨. ظ. في تفسيرها: الزمخشري، الكشاف: ٣/ ١٢٤ .

٢- آل عمران: ١٣٤.

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٥٣.

٤- مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

٥- ظ. الطوسي، التبيان: ٢/ ٥٩٤.

٦- الرازي، التفسير الكبير: ٩/ ٨.

٧- الحديد: ٢٣ .

فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ»[1]، ووقع اختلاف الإسناد في الآية الكريمة في قوليه: (ما فاتكم) و(ما آتاكم) إذ أسند الفوت إلى الأشياء بينما أسند الإيتاء إلى الله تعالى «لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق، بخلاف حصولهما وبقائهما فإنه لابد من استنادهما إلى الله سبحانه»[2] .

ويبدو أن الإمام عليه السلام يفسر الزهد تفسيرا عمليا وهو الرضا بالميسور فلا حزن لمفقود ولا فرح بموجود[3]، وليس هو بعد المغالاة في التقشف والانزواء عن الحياة.

آ- الترغيب والترهيب:

حفل كلام الإمام علي عليه السلام بكثير من معاني الترغيب فيما وعد الله تعالى المؤمنين من جنات وعيون، وبكثير من معاني الترهيب من عواقب التمرد على قوانين الله سبحانه على أرضه، والإمام عليه السلام في كل ذلك يقتفي سبيل القرآن العظيم في إتباع أسلوب الرغبة والرهبة فكان طبيعيا أن ينتهل من آياته ويستعين بها في تعزيز موضوعه في أذهان السامعين .

فمما جاء من الترغيب قوله عليه السلام :

«﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾[4] قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً تَخَشُّعاً وَاسْتِغْفَارًا، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا تَوَحُّشاً وَانْقِطَاعاً، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٤٥٦.

٢- الطباطبائي، الميزان: ١٩/ ١٦٨ .

٣- ظ. مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ٤/ ٤٧٠ .

٤- الزمر: ٧٣.

وَالْجَزَاءَ ثَوَاباً ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها﴾ [1] فِي مُلْكٍ دَائِمٍ وَنَعِيمٍ قَائِمٍ » [2].

يرغب الإمام عليه السلام في السعي إلى الفوز بالجنة فيتمثل بالآية الكريمة التي تصور الخلائق في مرحلة من مراحل الحشر يزف فيها المتقون إلى الجنة زمرا زمرا أي جماعات جماعات «مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل» [3].

ويراد بالسوق «سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك» [4] .

وإذا كان الشاهد القرآني واضحا في كلام الإمام عليه السلام فإن اقتباساته لألفاظ القرآن في التشويق إلى الجنة قد ملأت كلامه مثل اقتباسه لقوله تعالى:

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [5]، ومثل ألفاظ (المثوى، القرار، المآب، الجزاء) .

ويلاحظ قوة ارتباط الآية الثانية التي استشهد بها بعلاقات تركيبية في عبارات الإمام عليه السلام بحيث تبدو وكأنها من نسيج كلامه، وتلك سمة أسلوبية أشرنا إليها في طريقة الإمام عليه السلام باستشهاده بآيات القرآن الكريم .

والإمام عليه السلام نقل الآية بتوظيف آخر وبنى لها علاقة جديدة في مهارة لا يقدر عليها إلا من انصهر وذاب في كلمات القرآن، قال تعالى:

﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا

١- الفتح: ٢٦.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٨٢.

٣- الآلوسي، روح المعاني: ٢٤/ ٣١.

٤- الرازي، التفسير الكبير: ٢٧/ ٢٢. ظ.القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٨٥.

٥- آل عمران: ١٨٥.

أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [1].

وقال الإمام عليه السلام من خطبة في الاستسقاء:

«وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[2] فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ، اللهمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ اللهمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ وَلَا تُؤَاخِذْنَا ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾[3] يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[4].

والآية جاءت في القرآن تحكي دعاء نوح عليه السلام بوعد قومه بالنعم المتوافرة وانفتاح أبواب السماء بالرحمة إن استغفروا ربهم، وفي الأمر بالاستغفار تعليل بقوله: (إنه كان غفارا) «دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة وهي مضافا إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى»[5].

ووجه الاستشهاد بالآية الكريمة كون الاستغفار فيها سببا للرزق واستدرار غيث السماء بصريح الآية لأن جواب الأمر (استغفروا) هو قوله: (يرسل عليكم السماء مدرارا) ويراد بالسماء السحاب على عادة الموروث الأدبي العربي، والمدرار صيغة مبالغة تعني كثرة الدرور بالأمطار.

١- الفتح: ٢٦.

٢- نوح: ١٠ ـ ١٢.

٣- الأعراف: ١٥٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٢٥.

٥- الطباطبائي، الميزان: ٢٠/ ٣٠.

وقوله الأخير تركيب من آيتين، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾[2].

وكل ذلك يأتي في ظل تحشيد عناصر الترغيب من طلب الاستغفار واستدرار السماء وابتغاء التوبة.

ورغب في الصبر فقال عليه السلام:

«فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهِ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا فـ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]»[4]، فجاء اختتام كلام الإمام عليه السلام بآية رغبت بطلب الصبر، بل هي في القرآن الكريم وردت متعلقة بالصبر قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وفي الاية «تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام وقومه»[6].

وحبب إلى أهله طلب العفو في قوله يوصيهم ليلة مقتله عليه السلام:

«.. وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ﴿فَاعْفُوا﴾[7]، ﴿أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[8] وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ

١- البقرة: ٢٨٦.

٢- الأعراف: ١٥٥.

٣- هود: ٤٩.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٢٠.

٥- هود: ٤٩.

٦- الرازي، التفسير الكبير: ١٨/ ٨.

٧- البقرة: ١٠٩. ظ.السيد المرتضى، رسائل المرتضى: ٢/ ٢٤٥.

٨- النور: ٢٢.

كَرِهْتُهُ وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ وَطَالِبٍ وَجَدَ ﴿وَ ما عِنْدَ الله خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ﴾ [1]»[2]. وفي الآية تحضيض على العفو .

وناسب تمثل الإمام عليه السلام بقوله: (فاعفوا) خطاب الجماعة لأهله لأن ما سبق الآية قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [3] .

وكل ذلك يؤكد قوة تلاحم الجمل في الشاهد القرآني مع عبارات الإمام عليه السلام من خلال قدرته على تهيئة المناخ المتوافق مع عمق المعاني القرآنية فضلا عن توخي صياغة فنية تليق بإعجاز النص المقتبس .

لذلك نعيد القول بأن الآيات التي ليس فيها فاصل بينها وبين عبارات الإمام عليه السلام منسجمة كل الانسجام مع النص الذي استضافها وليس ثمة غرابة يمكن تلمسها فيما بينهما، وهذا ما ينطبق على الاستشهاد الآخر في آخر كلام الإمام عليه السلام بالآية الكريمة .

إذن التمثيل بالقرآن على لسان أمير المؤمنين عليه السلام يأخذ أشكالا عدة ويؤكد حقيقة ذوبان الإمام عليه السلام في القرآن الكريم .

أما الترهيب فقد جاء في كلام الإمام عليه السلام في موضوعات التهديد والاتعاظ بالموت ومراحل القيامة مستقيا من معاني القرآن ومتمثلا بشواهده إضفاء على الكلام مزيدا من التقديس والروحانية والتأثير. كقوله عليه السلام واعظا ومحذرا:

«فَاتَّعِظُوا عِبَادَ الله بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْآيِ السَّوَاطِعِ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ، وَانْقَطَعَتْ

١- آل عمران: ١٩٨.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٥٩.

٣- النور: ٢٢.

مِنْكُمْ عَلَائِقُ الْأُمْنِيَّةِ، وَدَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ و﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [1] سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا) [2].

فهو يحذر من الغفلة عن الموت من دون الاستعداد له بالأعمال الصالحة ليوم القيامة الذي تساق فيه النفوس سوقا ويشهد منها عليها، والسياقة حث الماشية على المسير من الخلف بعكس القيادة فهي جلبها من الأمام[3]، وجيء بـ(أورد) بلفظ الماضي ولم يقل: (يقدم قومه فيوردهم) لأن «الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة»[4].

والورد المورود أخذه من قوله تعالى في فرعون:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [5]، والوارد «الذي يتقدم القوم فيسقي لهم ويقال لكل من يرد الماء وارد»[6]، والورد هو المورد والمورود الذي شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وقوله: (بئس الورد) لأن «الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضده»[7].

ويعرض الإمام عليه السلام في خطبة من خطب التوحيد مشهدا من مشاهد القيامة

١- ق: ٢١ .ظ.في تفسيرها: الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٧. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٨٣.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٦٧.

٣- ظ. ابن منظور، لسان العرب: سوق، قود. الطباطبائي،الميزان: ١٨/ ٣٤٩.

٤- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٩٢.

٥- هود: ٩٨.

٦- الراغب، المفردات: ٥١٩.

٧- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٩٢. الرازي، التفسير الكبير: ١٨/ ٥٤.

يردع به الذين يدعون التجسيم لله سبحانه فيقول:

«فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [1] كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِم ..» [2] .

فالكافرون يوم الحساب يتبرأ بعضهم من بعض وهم في النار في حالة شنيعة من التخاصم [3]، ويوحي الشاهد القرآني الذي تمثل به الإمام عليه السلام بأن هؤلاء المجسمة كافرون لأن الآية تحكي قول الكافرين يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [4]، لأنهم في النار يخاصم بعضهم بعضا، وما بين(تباين) و (تلاحم) صنعة بديعية سليمة فرضها الذوق الفني الذي لا يفارق الإمام عليه السلام في تعبيراته .

وقال محذرا من عاقبة الاستكبار في الدنيا:

«... فَاعْلَمُوا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [5] حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً ..» [6] .

١- الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ١٨٩.

٣- ظ. الطبري، جامع البيان: ١٩/ ١١٠.

٤- الشعراء: ٩٤ ـ ٩٨.

٥- فصلت: ١٥.

٦- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٩.

يخوف الإمام عليه السلام من الطغيان في الدنيا فيختار شاهدا من القرآن منسجما لما هو فيه لأنه من آيات نزلت في قوم عاد الذين اغتروا بأجسامهم لما تهددهم العذاب إذ ظنوا أنهم سيدفعونه بقوتهم وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده، وكان ذلك سببا داعيا إلى الاستكبار[1] .

إذن وجه الشاهد فيها كونها «تتضمن الإنذار بالعذاب الدنيوي»[2] .

ويخوف الإمام عليه السلام الناس من مغبة استدراجهم فيقول:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْـمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنْ بَأْسِ الله وَصَوْلَاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ... فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْـمَالِ وَالْوَلَدِ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالِاقْتِدَارِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [3] فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْـمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِأَوْلِيَائِهِ الْـمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِم»[4] .

وفي الآية تهديد باستدراجهم من خلال تمكينهم وفيها تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونهي عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره والمعنى: «أن هذا الإمداد ليس إلا استدراج لهم إلى المعاصي واستجرار إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعاجلة بالثواب قبل وقته»[5].

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٤٤٨. الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ١٢. الرازي، التفسير الكبير: ١١/ ١٨. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٨٤.

٢- الطباطبائي، الميزان: ١٧/ ٣٧٥.

٣- المؤمنون: ٥٥.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٩٦.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٣٥.

وفي لفظ (نمدهم) ما يوحي بذلك قال الراغب: «وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه»[1]، فمن استعماله في المحبوب قوله تعالى:

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3].

وفي المكروه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5].

وقال مخوفا من انقلاب الأمور الدينية إلى أضدادها:

« أَيُّهَا النَّاسُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[6] »[7].

ومراد الآية أن الله تعالى لا يلجئ الناس إلى الصلاح إذا فسدوا، بل يتركهم واختيارهم امتحانا لهم، فمن أحسن أثيب ومن أساء عوقب. ويحتمل أن يكون المراد بالابتلاء في قوله تعالى: (وإن كنا لمبتلين) الابتلاء فيما بعد على وجه الاستقبال[8] وهو ما يتناسب والمعنى الذي يريده الإمام عليه السلام.

١- الراغب، المفردات: ٤٦٥.

٢- الطور: ٢٢.

٣- آل عمران: ١٢٥.

٤- مريم: ٧٩.

٥- البقرة: ١٥.

٦- المؤمنون: ٣٠.

٧- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٣٠.

٨- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٢٣/ ٩٦.

٣ـ الوظيفة العبادية:

وأعني بها ما جاء على لسان أمير المؤمنين عليه السلام من ذكر أو أمر أو تبيان أو إيصاء بالعبادات التي أمر الله تعالى بها عباده أن يؤدوها كالحج والصلاة والجهاد وأداء الأمانة وطلب الاستغفار ، وكان فيها الإمام عليه السلام يستند في تأكيدها في كل ذلك إلى آيات الكتاب العزيز يعزز بها كلامه ويتوخى من ذكرها التأثير .

فقد أوصى الإمام عليه السلام بالصلاة كثيرا كقوله:

«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ وَحَافِظُوا عَلَيْهَا وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا وَتَقَرَّبُوا بِهَا فَإِنَّهَا ﴿كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾[١] أَ لَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٢] وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ وَشَبَّهَهَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ﴾[٣] وَكَانَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وآله)نَصِباً بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ لِقَوْلِ الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها﴾[٤] فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ»[٥] .

١- النساء: ١٠٣.

٢- المدثر: ٧٤ ـ ٧٥.

٣- النور: ٣٧.

٤- طه: ١٣٢.

٥- الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة: ١/ ٤٦٦.

وقوله: (تعاهدوا) يريد به القيام عليها لأجل المحافظة عليها وأصله من تجديد العهد. ويراد في الآية بـ(كتابا) فرضا واجبا كقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١] .

والكتابة كناية عن الفرض، ويقصد بـ(موقوتا) جعل الصلاة لها فرضا واجبا يؤدى في أوقاتها ونجومها[٢] .

وذكر الراغب أصل معنى الصلاة بقوله: «والصلاة التي هي العبادة المخصوصة أصلها الدعاء وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه... وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصلاء ،.. صلى الرجل أي أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلاء الذي هو النار الموقدة ... ويسمى موضع العبادة الصلاة ومنه تسمية الكنائس بالصلوات نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ [٣]»[٤].

ولأهمية الصلاة في الفكر الإسلامي فقد أكد الإمام عليه السلام وجوب أدائها بأكثر من استشهاد قرآني فضلا عن ذكره للحديث النبوي تقوية للمعنى وإلزاما للحجة على السامعين. وفي القرآن الكريم أوامر كثيرة في الصلاة كقوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [٥] .

١- البقرة: ١٨٣.

٢- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٥٦١. الرازي، التفسير الكبير: ١١/ ٢٨. الطباطبائي، الميزان: ٥/ ٦٣.

٣- الحج: ٤٠.

٤- الراغب، المفردات: ٢٨٥.

٥- البقرة: ٤٣ .

وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾[1] .

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[2] .

ومن الأثر النبوي قوله ﷺ: «الصلاة عمود الدين»[3].

وكثيرا ما يردف التعبير القرآني في ذكر الصلاة لفظ (الإقامة) لأن «إقام الصلاة إذا قام بحقوقها ولا يقال لمن لم يوف بشرائطها أنه اقامها»[4].

لذلك فكل المواضع التي مدحها الله تعالى في القرآن جاءت بلفظ (إقامة الصلاة) ومشتقاتها نحو (أقيموا، أقم، مقيمون، إقامة، أقاموا) إيحاء بأدائها الكامل.بينما إذا خوطب المنافقون وأهل النار تأتي بلفظ (المصلين) من دون الإقامة كقوله تعالى يحكي قول أهل النار في الآية التي استشهد بها الإمام عليه السلام:

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[5]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾[7].

وأكد الإمام عليه السلام أهمية الصلاة بشاهد آخر من الكتاب العزيز خص الله تعالى فيه (الصلاة) من بين الذكر مع أنها داخلة فيه فقال سبحانه:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكَاةِ

١- البقرة: ٢٣٨.

٢- المؤمنون: ١ ـ ٢ .

٣- السيوطي، الجامع الصغير: ٢/ ١٢٠: .

٤- الرازي، التفسير الكبير: ١٢/ ٤٦ .

٥- المدثر: ٤٣.

٦- الماعون: ٤ ـ ٥.

٧- التوبة: ٥٤.

يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [1]، و(إقام) أصله (إقوام) وهو مصدر معتل الفعل والتاء فيه (إقامة) عوض من العين الساقطة للإعلال ولما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت التاء[2]، والمراد من معنى الآية «أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم وذكرهم المؤقت بأعمالهم من الصلاة والزكاة»[3].

ويمضي الإمام عليه السلام بالأمر بأداء الصلاة وإقامتها فيأتي بشاهد رابع من القرآن العظيم فيه ارتباط بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله لذكر الإمام له قبل الاستشهاد بالآية الكريمة، ذكر الطبرسي بشأن الآية الكريمة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه: «أمره الله تعالى أن يخص أهله دون الناس، ليعلم الناس أن لأهله عند الله منزلة ليست للناس، فأمرهم مع الناس عامة، ثم أمرهم خاصة»[4].

أما استشهاد الإمام عليه السلام بالحديث النبوي فقد جاء مكملا للصورة العبادية التي يعرضها الإمام عليه السلام لأهمية الصلاة .

ولا جرم أن الصلاة أحب الأشياء إلى النبي صلى الله عليه وآله وقد كان بها نصبا «فلقد صلى حتى تورمت قدماه من الصلاة»[5] .

وقوله الأخير مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [6]، أي احبسها على الصبر.

١- النور: ٣٧.

٢- ظ. الراغب، المفردات: ٢٨٥. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٦ .

٣- الطباطبائي، الميزان: ١٥/ ١٢٨.

٤- الطبرسي، مجمع البيان: ٧ / ٦٦.

٥- الرازي، التفسير الكبير: ٣٢/ ١٣١.

٦- الكهف: ٢٨.

والحج من الطقوس العبادية الأخرى التي ذكرها الإمام عليه السلام وكان للشاهد القرآني في كلامه حضور واضح كقوله عليه السلام:

«وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ ... جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَماً وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1]»[2].

وأصل الحج هو القصد للزيارة[3]، وقيل فيه إذا جاء اللفظ مكسورا فهو اسم للعمل وإذا جاء مفتوحا فهو مصدر[4].

وقوله: (يألهون) بمعنى يشتد وجدهم وشوقهم إلى البيت الحرام وفيه إشارة إلى تعلق المؤمنين بحب الله ورسوله[5]، وشبه ورود الوافدين على بيت الله الحرام بورود الأنعام لتزاحمهم وللانتفاع بالري بعد الظمأ.

وجاء استشهاد الإمام عليه السلام بالآية ـ إضافة إلى قدسيتها وتأثيرها في السامعين ـ كونها مشتملة على تأكيدات كثيرة لفرض الحج فقوله تعالى: (لله) يشعر بان ذلك له تعالى مشفوعا بـ(على) الدالة على الاستعلاء، وعبارة (لله على الناس) لفظة «يعبر بها عن وجوب الواجبات وفرض المفترضات»[6].

١- آل عمران: ٩٧ .

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٤.

٣- ظ. الراغب، المفردات: ١٠٧.

٤- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٨/ ١٦٢.

٥- ظ. مغنية، في ظلال نهج البلاغة: ١/ ٧٠.

٦- الشريف الرضي، حقائق التأويل: ١٩٦. ظ. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط : ٣/ ١٢ .

وفي النهي عن الشرك بالله تعالى قال الإمام علي عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِالله، قَالَ الله: ﴿إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [1]، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً»[2]. ووقوع الظلم على الشرك معنى استدل عليه من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [3].

وقال عليه السلام من وصية لأحد عماله في وجوب العمل بطاعة الله ورسوله والرجوع إلى أمرهما في حال الاختلاف:

«وَارْدُدْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ﴾ [4] فَالرَّدُّ إِلَى الله الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ»[5].

وفي كلام الإمام عليه السلام دعوة إلى التدبر في معارف الدين وإعمال الذهن في حقائقه من خلال تقليب ما يعن من شبهات على الكتاب العزيز فإن استغلق الحل فيعرض على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أو من ينوب منابه وأكد الإمام عليه السلام وصيته

١- النساء: ٤٨، ١١٦.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٢١.

٣- لقمان: ١٣.

٤- النساء: ٥٩. ظ. في تفسيرها: الطباطبائي، الميزان: ٤/ ١٣١.

٥-الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٠.

محتجا بالآية الكريمة .

وكلامه في آخر وصيته تفسير معنى الرد إلى الله تعالى ورسوله .

وفي أداء الأمانة قال عليه السلام :

«ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَامْتَنَعْنَ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ وَهُوَ الْإِنْسَانُ ﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا﴾ [1]»[2] .

ويبدو أن الإمام عليه السلام يعني بأداء الأمانة المعنى الأعم الذي لأجله خلقه الله تعالى لأن الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض وأبين حملها وحملها الإنسان «هي الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح وسلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره وهو الولاية الإلهية»[3] .

وفي معنى آخر قال عليه السلام من رسالة إلى عامله على مكة:

«وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ [4] فَالْعَاكِفُ الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَفَّقَنَا الله وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ وَالسَّلَام .»[5] .

١- الأحزاب: ٧٢.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٦٦.

٣- الطباطبائي، الميزان : ١٦/ ٣٤٨.

٤- الحج: ٢٥.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٨٩.

وفي كلام الإمام عليه السلام نهي لأهل مكة عن أخذ الأجرة ممن يسكن بيوتهم محتجا لذلك بالآية[1]، والآية تعني أن«المقيم فيه والخارج منه متساويان في أن لهما حق العبادة فيه لله»[2].

٤ـ الاحتجاج:

وكثر في كلام الإمام عليه السلام في الاحتجاج الشاهد القرآني وله حضور يدل على سرعة بديهة الإمام عليه السلام في استجلابه وعمق وعيه في القرآن، إذ بان كثير من الشواهد التي استعرضت أن الإمام عليه السلام محيط بكامل مناخ الآية التي يستشهد بها، يعرف صلتها بما قبلها وبما بعدها وذلك الأمر هو الذي أتاح له إمكانية عقد النسيج المناسب للشواهد القرآنية في كلامه، ومن هنا سنجد للشاهد القرآني المستعمل في كلام الإمام عليه السلام قوة في إسكات الخصم وقدرة على بيان الشبهة بما لا يدع مجالا لمريب .

ورد في نهج البلاغة أنه قال لَه بعض اليهود:

« مَا دَفَنْتُمْ نَبِيَّكُمْ حَتَّى اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ !، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ وَلَكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [3]»[4].

فقد كنى الإمام عليه السلام بقوله: (ما جفت أرجلكم) عن إنقاذ الله تعالى لهم من الغرق بمعجزة فلق البحر ومع هذا فهم سرعان ما رجعوا سيرتهم الأولى فبمجرد

١- ظ.ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢١٧. ظ. ابن الجوزي، زاد المسير: ٥/ ٢٨٨.

٢- الطباطبائي، الميزان: ١٤/ ٣٦٧ .

٣- الأعراف: ١٣٨.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٢٨١.

أن مروا بعد إنقاذ الله تعالى لهم على قوم اتخذوا من تماثيل البقر أصناما لهم عكفوا على عبادتها سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها مثلهم ولهذا حقق ما في نفوسهم السامري حين أخرج لهم عجلا[1] .

لذلك اختار الإمام عليه السلام شاهدا يبين جهلهم وضلالهم، فقوله تعالى: (إنكم تجهلون) «تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع»[2]. ووصفهم بالجهل لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام[3] .

وقال الإمام علي عليه السلام للخوارج لما أنكروا التحكيم:

« إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ، هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ، وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[4] فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله) فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ..»[5] .

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٧٣.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ١١٠. ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٣٧٤.

٣- الرازي، التفسير الكبير: ١٤/ ٢٢٣.

٤- النساء: ٥٩.

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٩١.

فقد فند الإمام عليه السلام دعوى الخوارج التي أرادوا بها الباطل حين رفعوا شعار «لا حكم الا لله، الحكم لله يا علي لا لك»[1] بأدلة علمية وشرعية مستندا فيها إلى الكتاب العزيز ومبينا تفسير الرجوع فيما يختلف فيه المسلمون إلى القرآن والسنة النبوية الشريفة.وبين أحقيته بالقرآن وبالسنة لقربه منهما في الشكل والمضمون، وسد كل أبواب الذرائع أمام الخوارج .

ودل الإمامعليه السلام بكلامه بأنه أولى بالكتاب والسنة من جميع الناس على أنه أولى بالخلافة من جميع الناس ولكنه رفع نفسه أن يصرح بذكر الخلافة «فدل على ما كنى عنه بالأمر المستلزم له»[2] .

وقال عليه السلام من كتاب جوابا إلى معاوية:

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ الله مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) لِدِينِهِ وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ الله تَعَالَى عِنْدَنَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ ... فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا فِعْلَ الْأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ وَمِنَّا أَسَدُ الله وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ وَكِتَابُ الله يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ الله﴾[3] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ

١- ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين: ٥١٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/٢٣٨.

٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨/ ١٠٥.

٣- الأنفال: ٧٥ .

آمَنُوا وَالله وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ الله (صلىاللهعليهوآله) فَلَجُوا عَلَيْهِمْ فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ ..»[2].

وفي رد الإمامعليه السلام مجموعة من الأدلة الدامغة التي تبين أحقيته في ميراث النبوة فضلا عن تذكيره بتاريخ مزدهر من التضحيات من أجل الإسلام عمر به بيت بني عبد المطلب وخاصة بيت شيخ الأباطح أبي طالب رضوان الله عليه. ولا يكتفي بذلك بل راح الإمام عليه السلام يقلب وجوه الآية الكريمة لتبيان الأولوية والتقدمة على غيره.

فذوو الأرحام والقرابة بعضهم أحق بميراث بعضهم من غيرهم، والآية التي استشهد بها الإمامعليه السلام «تنسخ ولاية الإرث بالمؤاخاة التي أجراها النبي بين المسلمين في أول الهجرة وتثبت الإرث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبة أو لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر»[3].

ووجه التمثيل بالآية الأولى إثبات حقه من طريق القرابة والرحم، أما في الآية الثانية فمن طريق درجة طاعته وتفانيه في الله ورسوله والإمامعليه السلام في ذات الوقت الذي يثبت فيه طاعته وقربه من النبيصلى الله عليه وآله يعرض تعريضا شديدا بخصمه معاوية إذ أخرجه من ربقة الطاعة باستشهاده الأخير بالآية الكريمة.

ويمضي الإمام عليه السلام في تبيان رده في هذا الكتاب فيقول:

«وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ

١- آل عمران: ٦٨.

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٤.

٣- الطباطبائي، الميزان: ٩/ ١٤٢.

إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ ... وَمَا أَرَدْتُ ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [1]، وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ وَبِالسُّيُوفِ مُخَوَّفِينَ» [2].

والآية التي استشهد بها الإمام عليه السلام جاءت تحكي قول شعيب عليه السلام إلى قومه، والمعنى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي ولشهرة شعيب بالصلاح بين قومه فكأنه «قال لهم إنكم تعرفون من حالي إني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة... وليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة» [3] وشعيب عليه السلام أثبت استطاعة وقدرة في ضوء قوله (ما استطعت) [4].

ويؤكد شعيب عليه السلام بأسلوب الحصر تمام توكله على الله تعالى وعلى معرفته بالمعاد وأن لا مرجع للخلق إلا إلى الله سبحانه في دلالة على معرفته بالله تعالى وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا عليه السلام قال: «ذاك خطيب الأنبياء» [5] إشارة «لحسن مراجعته في كلامه بين قومه» [6].

ويبدو واضحا وجه تخير الإمام عليه السلام للآية الكريمة في الاستشهاد والحجاج بها، فموقف الإمام عليه السلام كموقف شعيب عليه السلام الذي استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم

١- هود: ٨٨ .

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ١٧٦.

٣- الرازي، التفسير الكبير: ١٨ / ٤٤ .

٤- ظ. الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٣٦٩.

٥- الرازي، التفسير الكبير: ١٨/ ٤٧ .

٦- المصدر نفسه والصحيفة. وينظر الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٢٨٨ .

لأطماعهم فيه[1]. ونؤكد معرفة الإمام عليه السلام العميقة بمحيط الآية التي يتخذ منها شاهدا في كلامه إذ كان قوله: (وما أردت إلا الإصلاح ..) جعله موافقا لما جاء في أصل الآية المباركة: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[2]، تلك المعرفة التي جعلت من شواهده منسجمة كل الانسجام مع صياغاته فضلا عما تضيفه من قوة في الحجة وقدسية في المضمون.

وخطب الإمام علي عليه السلام خطبة أخبر بها عن الملاحم بالبصرة فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام وقال للرجل ـ وكان كلبيا ـ:

«يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[3] فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً، فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي»[4].

والشاهد في التمثيل بالآية الكريمة هو إزالة اللبس بين علم الغيب المختص بالله تعالى وبين ما يعلم به الأنبياء والأوصياء من قبل الله تعالى. فالآية عدت ثلاثة

١- ظ. الزمخشري، الكشاف: ١/ ٢٢٥؟؟.

٢- هود: ٨٨ .

٣- لقمان: ٣٤ .

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٩٩ .

أمور غيبية تعلق بها علم الله تعالى وهي العلم بالساعة فقد استأثر الله علمه لنفسه فلا يعلمه إلا هو وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلا أن يعلم غيره .

وعد أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان هما: عدم معرفته بما يجري عليه من الحوادث، وجهله بمكان وفاته [1].

وقوله الأخير أشار به إلى ضبط قلبه لما علم من إخبار بالمغيبات واشتمال جوانحه عليه، ذكر الرازي أثرا عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[2] قال ﷺ: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قال علي: فما نسيت شيئا بعد ذلك، وما كان لي أن أنسى»[3].

و من كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفتيا:

« تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ، أَ فَأَمَرَهُمُ الله تَعَالَى بِالِاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ، أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ أَمْ أَنْزَلَ الله دِيناً نَاقِصاً، فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى، أَمْ أَنْزَلَ الله سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً، فَقَصَّرَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَالله سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[4]، وَقَالَ وَفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، فَقَالَ

١- ظ.الطباطبائي، الميزان: ١٦/ ٢٣٨.

٢- الحاقة: ١٢.

٣- الرازي، التفسير الكبير: ٣٠/ ١٠٧.

٤- الأنعام: ٣٨ .

سُبْحَانَهُ: ﴿وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [1]، وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ» [2].

لخص الإمام عليه السلام خمسة أوجه من الاحتجاج، جعل الرابع منها استدلالا بالشاهد القرآني في قوله تعالى: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [3]، وقوله سبحانه: ﴿ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [4] على اشتمال القرآن على جميع الأحكام وكل ما ليس في الكتاب وجب ألا يكون في الشرع .

واستدل بالوجه الخامس من الاحتجاج في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [5]، «فجعل الاختلاف دليلا على أنه ليس من عند الله» [6].

٥ـ الوظيفة العقلية:

لا ريب في أن القرآن الكريم أعلى من شأن العقل لأن به يتوصل إلى معرفة الخالق وعبادته سبحانه من خلال الدعوات المتكررة في الكتاب العزيز إلى التفكر في أحوال الخلائق للوصول من طريقه إلى الدليل العلمي إلى وجود الله تعالى ليحصل انطباق العمل مع المضمون بسبب حضور القناعة في النفس .

ومن هنا فلا انفصال بين كل التوظيفات التي ذكرت للشاهد القرآني في كلام

١- النساء: ٨٢ .

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٥٨.

٣- الأنعام: ٣٨.

٤- النحل: ٨٩.

٥- النساء: ٨٢.

٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٩٠.

الإمام عليه السلام وبين الوظيفة العقلية لأن من نافلة القول أن تلك الشواهد ابتنيت على أساس الفهم العقلي الواضح ولكن لأن مضامينها تنحو مناحي مباشرة لما جاءت من أجله فقد سوغ جعلها في وظائف عبادية أو احتجاجية او في إصلاح الذات وغيرها.

وفي كلام الإمام علي عليه السلام الكثير من الشواهد القرآنية التي استدل فيها من طريق العقل على وجود الخالق مثل خطبه في خلق الإنسان والحيوان والطبيعة، لذا يمكن أن تكون الموضوعات التي مرت أمثلة تطبيقية أخرى تبين طبيعة توظيف الإمام عليه السلام للشاهد القرآني في المجال العقلي .

ومن مثال آخر على استدلاله المنطقي قوله ناصحا:

«فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ، وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا، أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2]، فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4]، أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5]، فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي

١- محمد: ٧ .

٢- الحديد: ١١ .

٣- إبراهيم: ٤ .

٤- لقمان: ٢٦ .

٥- هود: ٧.

دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً، ﴿ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1]، أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ﴿وَالله الْمُسْتَعانُ﴾[2] عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبِي ﴿وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[3]»[4].

والقرض كناية عن قهر النفس على طاعة الله في العمل والإنفاق في سبيله[5]، ووصف القرض بالحسن لأجل الترغيب في العمل للآخرة وتعظيم استحقاقها[6].

والقرض الحسن هو«الإنفاق في سبيله، شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه»[7].

وفائدة إجراء الكلام على طريقة الاستفهام لأن الترغيب في الدعاء إلى الفعل يكون أقرب من ظاهر الأمر في الإقبال عليه[8].

وأكد الإمام عليه السلام قواعد منطقية تمكن الإنسان من تجاوز اختبار الدنيا والوصول إلى الفوز بالنجاة من خلال الاستدلال العقلي في الآيتين الكريمتين فوضع نصرة الله تعالى بالإخلاص في الدعوة إليه والاستجابة إلى أوامر الجهاد في سبيله شرطا لنصرة الله تعالى بالمقابل لهم وتثبيت أقدامهم يوم زل الأقدام وهي

١- الحديد: ٢١.

٢- يوسف: ١٨.

٣- آل عمران: ١٧٣.

٤- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٠.

٥- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٦/ ١٧٩ .

٦- ظ. الشريف الرضي، حقائق التأويل: ٢٦٤ .

٧- الزمخشري، الكشاف: ٤/ ٦٣ .

٨- ظ. الرازي، التفسير الكبير: ٦/ ١٧٩ .

كناية عن الدخول في النار .

وقرر قاعدة قرآنية أخرى يعيشها الناس في يومياتهم، القرض مقابل الاسترداد على أساس مضاعفة غير متناهية، لأن الكثير من الله تعالى لا يحصى وليس له منتهى[1]، فمن يخسر مثل هذه الصفقة ولا يبادر في العمل بطاعة الله والإنفاق في سبيله ؟.

وفي كلام الإمام عليه السلام ارتباط ظاهر بين فرض القتال والترغيب في القرض الحسن لما يستلزم القتال من تهيئة عدته من إنفاق وسلاح ومن هنا وقع استشهاده عليه السلام بالآية.

ثم نبه الإمام عليه السلام إلى حقيقة أخرى، هي استغناء الله تعالى عن النصرة والقرض، وتأكيده على أنها فرصة من الله تعالى إلى عباده للفوز في الاختبارات، فتعليقه على الآيات تفسير وتوضيح لطبيعة الاستنصار والاستقراض.

وذكر الإمام عليه السلام الغاية من الاختبار والابتلاء في طبيعة تأتي النفوس إلى الإتيان بالفضائل ثم يكون الاستحقاق الإلهي بقدر العمل على أساس قاعدة عقلية إثابة الإحسان بالإحسان والإساءة بالإساءة.

والإمام عليه السلام إنما ذكر الجانب المحسن لأنه المناسب في مقام تشجيعه على الجهاد والإنفاق مع الاستبطان في كلامه على التخويف في قوله: «وَ أَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً»[2].

ولا شك أن في كل ذلك تحريكا للأذهان وإعمالا للعقل لفهم الكيفية في التعامل مع فرص الحياة الدنيا للفوز برضا الخالق.

ويلحظ تناسب إيراد (العزيز الحكيم) مع الاستنصار، و(الغني الحميد) مع

١- ظ. الطبرسي، مجمع البيان: ٢/ ١٣٧ .

٢- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٤٤٠.

الاستقراض متابعا في ذلك فهم هذه العبارات القرآنية في محيط معناها القرآني نحو قوله تعالى:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]، ومعنى جنود السموات أخذه من قوله تعالى: ﴿وَلله جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً﴾[3]، والخزائن من قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ الله لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4]، وقوله الأخير مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[5].

وهذه الحقيقة العقلية أعني المجازاة على قدر الاستحقاقات كررها الإمام عليه السلام في كلامه كثيرا فهي رغم أنها حقيقة منطقية ثابتة ولكن الإنسان قد يتغافل عنها أو يتناساها .

مثل قوله عليه السلام :

«بَعَثَ الله رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ أَلَا إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ، وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[6]، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً

١- آل عمران: ١٢٦ .

٢- فاطر: ١٥ .

٣- الفتح: ٧ .

٤- الحج: ٦٤ .

٥- آل عمران: ١٧٣ .

٦- الكهف: ٧ .

وَالْعِقَابُ بَوَاءً»[1].

وفي استدلال عقلي آخر قول أميرالمؤمنين عليه السلام حكاه عنه أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليهما السلام أنّه قال:

«كَانَ فِي الْأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ الله، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا فَدُونَكُمُ الْآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، أَمَّا الْأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَأَمَّا الْأَمَانُ الْبَاقِي فَالِاسْتِغْفَارُ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]»[3].

وقد علق الشريف الرضي على براعة الإمام عليه السلام في استدلاله فقال: «وهذا من محاسن الاستخراج و لطائف الاستنباط»[4].

وذكر الطبرسي في بيان الآية الكريمة سبب إمهال الله تعالى لأهل مكة فقال معناه: «وما كان الله يعذب أهل مكة بعذاب الاستئصال وأنت مقيم بين أظهرهم لفضلك وحرمتك يا محمد، فإن الله بعثك رحمة للعالمين، فلا يعذبهم إلا بعد أن يفعلوا ما يستحقون به سلب النعمة بإخراجك عنهم»[5].

أما الأمان الثاني فقد قيل في معناه: «وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله من المستضعفين»[6].

وقد وفر الشاهد القرآني للإمام عليه السلام إمكانية الإستدلال العقلي على كثير

١- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٣٢٨.

٢- الأنفال: ٣٣ .

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٢٥.

٤- المصدر نفسه والصفحة.

٥- الطبرسي، مجمع البيان: ٤/ ٤٦٠. ظ. الطباطبائي، الميزان: ٩/ ٦٨.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ١٥٦. ظ. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي: ٢/ ٣٠٠.

من المفاهيم الإسلامية الجديدة من طريق تفسير القرآن بالقرآن مثل تفريقه بين الأمن من العذاب والياس من رحمة الله تعالى .

نحو قوله عليه السلام :

«لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله، لقوله تعالى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]، ولا تيأسن لشر هذه الأمة من روح الله، لقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2]»[3].

وقال عليه السلام من خطبة في أهل القبور:

«اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِين﴾[4]»[5].

فوجه التمثل بالشاهد القرآني بيان قدرة الله تعالى على إعادة الخلق في المعاد لأن مجيئهم إلى الدنيا أشبه مفارقتهم لها فلا غرابة في إعادته من جديد بمعنى آخر إن إرجاعهم بنفس سهولة بدئهم[6]، والمعنى «نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها

١- الأعراف: ٩٩.

٢- يوسف: ٨٧ .

٣- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ٢/ ٣٩٣.

٤- الأنبياء: ١٠٤ .

٥- الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة: ١/ ٢٥٩.

٦- ظ. الطوسي، التبيان: ٤/ ٣٨٤. الطباطبائي، الميزان: ١٤/ ٣٢٩.

للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء»[1].

وأول الخلـق يعـني بـه أول إيجـاده عـن العـدم. وجـاء تـنكير (خلـق) لإرادة التفصيل وهو يقوم مقام الجمع[2].

ثالثاً: فهرس الشواهد القرآنية:

وإتماما للفائدة فيما يأتي فهرس تفصيلي بالآيات القرآنيـة الـتي استـشهد بهـا الإمام علي عليه السلام في كلامه في خطبه ورسائله وحكمـه مرتبـة بحـسب أسـبقيتها في نهج البلاغة:

١- الخطب: قال تعالى:

١ـ ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (البقرة: من الآية٣٤).

٢ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَـى يَـوْمِ الْوَقْـتِ الْمَعْلُـومِ﴾ (الحجـر: ٣٧-٣٨).

٣ـ ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَـنْ كَفَـرَ فَـإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

٤ـ ﴿تِلْكَ الـدَّارُ الْـآخِرَةُ نَجْعَلُهَـا لِلَّـذِينَ لا يُرِيـدُونَ عُلُـوّاً فِـي الْـأَرْضِ وَلا فَسَـاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣) .

٥ـ ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية٣٨).

٦ـ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْـرِ الله لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلافـاً كَـثِيراً﴾ (النـساء: مـن

١- الزمخشري، الكشاف: ٢/ ٥٨٥ .

٢- ظ. المصدر نفسه والصفحة. الآلوسي، روح المعاني: ١٧/ ١٠٢ .

الآية٨٢).

٧ـ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (لأنفال: من الآية٦).

٨ـ ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: من الآية٣٥).

٩ـ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (صّ: ٨٨) .

١٠ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (قّ: من الآية٢١).

١١ـ ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٩٧_٩٨) .

١٢ـ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الانبياء: ٢٦_٢٧).

١٣ـ ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: من الآية٢٦)، التحريم ٨.

١٤ـ ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: من الآية٤٩).

١٥ـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيات وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٠) .

١٦ـ ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ (الكهف: من الآية٤٥).

١٧ـ ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أ﴾ (فصلت: من الآية١٥).

١٨ـ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الانبياء: من الآية١٠٤).

١٩ـ ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: من الآية١٠٢).

٢٠ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: من الآية٥٩).

٢١ـ ﴿إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان: من الآية٣٤).

٢٢ـ ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: من الآية١٥٦) .

٢٣ـ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ (الروم: من الآية٤١).

٢٤ـ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ (نوح: ١٠_ ١١) .

٢٥ـ ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: من الآية١٤).

٢٦ـ ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ١ ـ ٢) .

٢٧ـ ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: من الآية٨).

٢٨ـ ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (المرسلات من الاية: ٢١ ـ ٢٢).

٢٩ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠) .

٣٠ـ ﴿وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: من الآية١٨٢).

٣١ـ ﴿مَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (الطلاق: من الآية٢).

٣٢ـ ﴿إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: من الآية٧) .

٣٣ـ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١١) .

٣٤ـ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: من الآية٧).

٣٥ـ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: ٤).

٣٦ـ ﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ (الرعد: من

الآية ١٥).

٣٧ـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: من الآية١١٧).

٣٨ـ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ (الزمر: من الآية٧٣).

٣٩ـ ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: من الآية١٣).

٤٠ـ ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (صّ: من الآية٣).

٤١ـ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).

٤٢ـ ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (صّ: ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ من الآية ٧٤) .

٤٣ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٣٩).

٤٤ـ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥، ٥٦) .

٤٥ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٥) .

٤٦ـ ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨) .

٤٧ـ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: من الآية١٩) .

٤٨ـ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (المدثر: ٤٢ـ٤٣).

٤٩ـ ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: من الآية٣٧) .

٥٠ـ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طـه: من الآية١٣٢).

٥١ـ ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: من الآية٧٢).

٥٢ـ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٧) .

٥٣ـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النازعات: ٢٦) .

٥٤ـ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١ ـ ٢) .

٥٥ـ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٣٠) .

٢- الرسائل والوصايا:

١ـ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: من الآية٧٨).

٢ـ ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(لأعراف: من الآية٨٩).

٣ـ ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ (النور: من الآية٢٢).

٤ـ ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: من الآية١٩٨).

٥ـ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ (لأنفال: من الآية٧٥).

٦ـ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨).

٧ـ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (هود: من الآية٨٨).

٨ـ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: من الآية٨٣).

٩ـ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: من الآية٢٢).

١٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: من الآية٥٩).

١١- ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٣).

١٢- ﴿حَتَّى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (لأعراف: من الآية٨٧).

١٣- ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ (الحج: من الآية٢٥).

٣- المواعظ والحكم:

١- ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (صّ: من الآية٢٧).

٢- ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (لأنفال: ٣٣) .

٣- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (لأنفال: من الآية٢٨).

٤- ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالله وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨).

٥-﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: من الآية١٩٧).

٦- ﴿وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: من الآية١٣٤).

٧- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

٨- ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: من الآية٩٠).

٩- ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (لأعراف: من الآية١٣٨).

١٠- ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: من الآية١١).

١١- ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (لأعراف: من الآية٩٩).

١٢ـ ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: من الآية٨٧).

١٣ـ ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: من الآية٢٣).

ومن هذا الفهرس يمكن استخلاص الحقائق الآتية:

أولاً: يلحظ الغنى المتنوع للآيات الكريمة في كلام الإمام علي عليه السلام بسبب تعدد مشاربه من سور مختلفة من القرآن العظيم .

ثانياً: القدرة الفائقة على استحضار النص القرآني الأمر الذي يدل على شدة انصهاره عليه السلام بكلمات الكتاب العزيز وذوبانه في آياته الشريفة ومعانيه العظيمة .

ثالثاً: تلحظ كثرة استشهادات الإمام عليه السلام في خطبه على رسائله ووصاياه لما للشاهد القرآني من أثر كبير في استجلاب الأذهان وشد الإنتباه في مجال الخطابة خاصة إذا تذكرنا أن فن الخطبة فن شفاهي يعتمد الإلقاء ورهافة الأسماع.

وخلاصة ما سبق توضح أن للإمام علي عليه السلام أسلوبه في استحضار الشاهد القرآني واستجلابه حتمه عليه موقفه الفني، فإذا ما جاء بالشاهد من غير نسبة إلى الله تعالى ينسج له علاقات جملية تجعل كلامه منصهرا في الشاهد القرآني، وإذا ما جاء به في آخر كلامه فإنه يختم به موجزا ما يعرض من أفكار، وهو في كل ذلك يحسن توظيفه في مجالات شتى من إصلاح النفس والترغيب والترهيب والوظائف الدينية والاحتجاجية والعقلية.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

قدم البحث محاولة في قضية الأثر القرآني المبكر والحقيقي بالكلام العربي والمتمثل في نهج البلاغة المجموع فيه كلام امير المؤمنين عليه السلام، فبدا بالدليل العلمي والعملي أن نهج البلاغة هو الصدى الحقيقي للقرآن الكريم على صعيد الشكل والمضمون .

وها قد أفضت فصول رحلة البحث الى خاتمة يمكن جعلها في شطرين يتضمن الأول خلاصة ما توصل اليه البحث من نتائج ويشتمل الثاني على ما خرج اليه البحث من اقتراحات وتوصيات.

أولاً: النتائج: ويمكن تلخيصها بما يأتي:

١ـ عالج التمهيد قضية الأثر والتأثر وبان أثر الإبداع القرآني في كلام الإمام عليه السلام بسبب انصهار روح الإمام بروح القرآن فكان تفهم الإمام عليه السلام تفهما واعيا للعلاقات التركيبية التي بنيت عليها الجملة القرآنية .

٢ـ انقسم البحث على بابين انفتحا على الشكل والمضمون لمحاولة الإحاطة بأثر القرآن بنهج البلاغة واشتمل كل باب على مجموعة من الفصول انتهت الى النتائج الآتية: في باب الشكل: اشتمل على ثلاثة فصول هي:

ـ **بحث الفصل الأول** في دراسة الألفاظ والبناء الجملي وخلص الى أن الإمام علي عليه السلام اعتمد الطريقة القرآنية في استعمال المفردات وانتقائها أو الاختصاص

بها بعد نقل دلالاتها القديمة الى دلالات إسلامية جديدة، فكان ذلك سببا في منح زخم كبير من الحياة للألفاظ العربية وبث الأنفاس فيها .

فقد ثبت في البحث أن ثمة ثلاثة استعمالات للألفاظ العربية في نهج البلاغة تأثر فيها بالقرآن الكريم هي:

الأول: ألفاظ اختص بها القرآن الكريم بعد أن نقل دلالاتها من الجاهلية الى الإسلام فهي بذلك قرآنية محضة، واقتبسها الإمام عليه السلام بنفس الإستعمال الدلالي.

الثاني: ألفاظ آثر الاستعمال القرآني انتقاءها من مفردات العربية في تعبيراته فهي قرآنية الإستعمال، واستعملها الإمام عليه السلام بنفس الدقة في الإنتقاء .

الثالث: ألفاظ استعملها القرآن ولكن الإمام عليه السلام نقل دلالالتها الى توظيف آخر ولكنه يواكب موردها في القرآن الكريم .

أما بشأن التركيب الجملي فقد اتخذ الإمام علي عليه السلام أساليب التعبير القرآني دليلا في بناء الجمل التي حصرناها بشكلين الجمل القصيرة والطويلة، وقد كانت لكل منهما ركائز اعتمدت في إقامتها، وكان الإمام عليه السلام في كل ذلك متابع دقيق للبناء الجملي القرآني في إخراج المعاني وأدائها .

وقد سوغت لنا مقدرة الإمام عليه السلام على الإنصهار في الجملة القرآنية وإعادة صياغتها وفق مواقفه الفنية على الدخول في بناء جمله بأساليب بناء الجمل القرآنية فكان تحديد شكلي الجمل القصيرة والطويلة بسبب اعتمادها في البناء اللغوي القرآني وكثرته في نهج البلاغة. وكانت ركائز الجمل القصيرة هي:

الأولى: التقديم والتأخير .

الثانية: الحذف.

الثالثة: الأمر .

الرابعة: الاستفهام .

وركائز الجملة الطويلة هي:

الأولى: الشرط.

الثانية: جملة (إن).

الثالثة: جملة القسم.

الرابعة: النداء.

وقد حاولنا في شواهدنا انتخاب الجمل ذات الأثر القرآني المباشر في نهج البلاغة سبيلا لتقديم الدليل العملي المقنع للأثر القرآني، لأن أكثر بناء الجمل كانت من استعمالات الكلام العربي القديم غير أن الأمامعليه السلام أظهر فرقَ بين البناءين، قوته وديمومته في القرآن الكريم بشهادة الزمن، وضعفه وانحسار كثير من صوره في الفن القولي الجاهلي.

ـ **ودرس الفصل الثاني** الأداء البياني القرآني وأثره في نهج البلاغة في المجال المجازي اللغوي والعقلي، وقد بان من الشواهد قدرة الإمام عليه السلام على التمثل بأساليب القرآن المجازية مقتبسا مرة وموظفا هذا الاستعمال في مواقف فنية جديدة مرة ثانية. لذلك وقفنا على الأمثلة المشتركة بين نص القرآن الكريم ونهج البلاغة فكان البحث بأنواع صور المجاز المرسل والعقلي طريقا عمليا لتقديم الدليل البين على الأثر القرآني المجازي بنهج البلاغة. فضلا عن الوقوف مليا عند التشبيه والاستعارة والكناية، وكان ما انتهى اليه البحث في التشبيه القرآني ثلاثة آثار بينة هي:

الأول: صيغ المثل القرآني وتأثر نهج البلاغة بصورها

الثاني: اللوحات التشبيهية بين القرآن ونهج البلاغة .

الثالث: التشبيهات المفردة في ضوء القرآن ونهج البلاغة.

وخلصنا من كل ذلك الى التأثر الواضح لنهج البلاغة بالتشبيه القرآني.

وفي مبحث التركيب الإستعاري التمس البحث ايجاد الظواهر الفنية الواضحة الأثر فاستخلصنا ثلاثة ظواهر فنية استمدها الإمام عليه السلام من أسلوب التعبير القرآني، وقد حصرت بـ:

الأول: التوليد وقد قدمنا لأمثلته استعارات الليل والنهار واستعارات الحق والباطل لكثرتها وتنوعها في القرآن الكريم واقتفاء أثرها في نهج البلاغة.

الثاني: ظاهرة التشخيص أثرا فنيا استنطق الجمادات وبث الحياة الآدمية في المعقولات. وقد حفل به التعبير القرآني فهو وليد الاستعارة التي تتداخل فيها العلاقات وينصهر بعضها ببعض، فتبدو فنية الكلام في أعلى مراحله وأبدع صوره، الأمر الذي تأثره الإمام عليه السلام وكثر في تعبيراته .

الثالث: الاستعارة التمثيلية وقد التمس البحث ايجاد الشاهد الفعلي الذي يدل على أثر الأسلوب الاستعاري القرآني بكلام الإمام عليه السلام .

وفي بحث الكناية توصل البحث الى التماس تتبع الإمام عليه السلام لهذا الفن البياني في القرآن الكريم من خلال ما يأتي:

الأول: استثمار جدة الكناية القرآنية وتوظيفها في مواقف فنية جديدة في نهج البلاغة.

الثاني: استثمار الكناية في تصوير الحالات الإنسانية من خوف ورضا وفزع وأمن بالإضافة إلى التعبير المهذب والصدى الأخلاقي الرفيع.

وخلص البحث من كل ذلك على قدرة الإمام عليه السلام على استحضار النص القرآني واقتباسه والتوليد على أصله .

ـ **أما الفصل الثالث** فقد درس البناء النغمي المتولد من جرس الألفاظ في التراكيب الجملية من خلال السجع والتكرار والجناس بأنواعه والموازنة، وهو بناء ناتج من المعنى وشدة ملازمة اللفظ له، وخلصنا الى أن هذا البناء الدقيق الذي

انتظم التعبير القرآني قائم على موازنة دقيقة بين المضمون والأداء، وتبين أن الإمام(عليه السلام) بسبب فهمه وانصهاره في المعاني القرآنية متابع للتنغيم القرآني مؤثر لإدخالها كلامه من غير إخلال بالمعنى بل بدا أن الموسيقى ناتج ثانوي للمضمون على الرغم من توخيها وطلبها في الكلام .

ـ **ودرس الباب الثاني** المضمون القرآني وأثره بنهج البلاغة بفصلين انطوى الأول على المجالات الموضوعية الأكثر تداولا في كلام الإمام(عليه السلام) وهي:

ـ التوحيد .

ـ عالم الموت والحياة .

ـ خلق الإنسان والكون .

ـ الجهاد في سبيل الله .

ـ الدعوة الى التقوى .

وانتهينا الى ان الإمام(عليه السلام) كان في كل تلك المعاني الجديدة يستعين بالمعين القرآني فيستقي منه مقتبسا ومولدا، فلم تشغله جدة المعاني عن التماس صور المجاز المختلفة وطلب البديع الذي فطر عليه.

أما الفصل الثاني فقد درس الشاهد القرآني أثرا آخر للمضمون القرآني في نهج البلاغة وقد اشتمل على ثلاثة مباحث هي:

الأول: أسلوب توظيف الإمام(عليه السلام) للشاهد القرآني، وخلصنا الى أن في كلام الإمام (عليه السلام) ثلاثة أساليب في استعمال الشاهد القرآني هي:

١- التصريح بنسبة الشاهد الى الله تعالى .

٢- عدم التصريح بنسبته الى الله تعالى .

٣- التذييل بختم الكلام بالشاهد القرآني.

ودرس المبحث الثاني توظيف الشاهد القرآني فتم حصره على أساس كثرته

في موضوعات الإمام عليه السلام فكانت في:

الأول: إصلاح الذات وتهذيب النفس .

الثاني: الترغيب والترهيب .

الثالث: الوظيفة العبادية والعقائدية .

الرابع: الاحتجاج .

الخامس: الوظيفة العقلية .

أما المبحث الثالث فقد قدم فهرسا بالشواهد القرآنية بحسب أسبقيتها في نهج البلاغة إتماما للفائدة وحصرا لها وقد خلص البحث منها بكثرتها في الخطب وشدة إحاطة الإمام عليه السلام بالنص القرآني وقوة حضوره فضلا عن تنوعه من سور كثيرة من القرآن الكريم.

وقد انتهينا من هذا الفصل الى تقديم مظهر آخر من مظاهر الأثر القرآني في نهج البلاغة من خلال مقدرة الإمام عليه السلام على استثمار النص القرآني وقوة حضوره في ذهن الإمام عليه السلام .

وكانت النتيجة المستخلصة من البحث كله هي أن نهج البلاغة من أظهر تجليات القرآن الكريم في الأدب العربي، وأن كلام الإمام علي عليه السلام فيه من أرقى نماذج النصوص البلاغية في التعبير الفني .

ثانياً: اقتراحات موضوعية .

١ـ إعادة قراءة نهج البلاغة كأثر مبكر للقرآن الكريم في الكلام العربي عامة وفي الأدب العربي خاصة، واستيحاء كلام الإمام عليه السلام في نهج البلاغة بهذه الروح الموضوعية، واستخلاص النتائج العلمية لتبيان صحة انتسابه إلى الإمام علي عليه السلام، لا الحكم عليه مسبقا بالوضع والانتحال .

فقد أثبتت نتائج البحث دحض الحجج التي طعنت بصحة نسبة نهـج البلاغـة الى الإمام علي مثل توافره على الموسيقى والصنعة البديعية ونحو اشتماله على كثير من المصطلحات المبكرة كالناسخ والمنسوخ والأول والظـاهر وغيرهـا مـن الحجـج التي لا تصمد أمام النتائج التي توصلنا اليها، فقد صح أن كـل مـا في نهـج البلاغـة من شكل ومضمون من صياغات مختلفة ومعان جديدة مأخوذة من التعبير القرآني، ومن الظلم الحكم على نهج البلاغة بنظرة قديمة مكـرورة مـن دون الـتمعن في مـا انطوى عليه من أداء رفيع ومعنى عميق متناسبين وعظمة التأثير القرآني .

٢ـ لقد برهن البحث مـن خـلال الأدلـة العلميـة أن الفهـم الـواعي للإمـام علي عليه السلام لآيات الكتاب العزيز وعلمه بما يخفى وراء الكلمات الشريفة في القـرآن من معان ظاهرية وقدرته على استكشاف المعاني الغامـضة وتفـسيرها مـن خـلال القرآن بالقرآن وقوة حضور النص في ذهنه وتثقيف نفسه عليه السلام بثقافة القرآن قـولا وعملا ـ أقول كل ذلك ـ أتاح للإمام علي عليه السلام إمكانية تقفي الصياغات القرآنيـة وتلوين كلامه بنغم القرآن لأن كلماته في التعبير لم تعد غريبـة علـى أداء المـضامين القرآنية الجديدة، فلا يشغله طلب الفن القرآني الرفيع مـن بيـان وبـديع معـا عـن التعبير عنها لأنها ستغدو صورة لفكرته التي امتزج بها وطبع عليها.

٣ـ ينبغي النظر الى الإطار الجـامع للأسـاليب التعبيريـة بـين القـرآن العظـيم ونهج البلاغة، فلاكتشاف أسرار التعبير في هذا الأثر اللغوي (أعني نهـج البلاغـة) ينبغي البحث فيه عن الطريقة التي اتبعها الإمام في اقتفـاء الأسـلوب القرآنـي مـن استغلال الطاقة القصوى للغة الموسقية منها والتركيبية وعقد الموازنات الدقيقة بين الأداء والمضمون .

٤ـ دراسة أثر نهج البلاغة في الأدب العربي بوصفه أول نتـاج بـشري متـأثر تأثرا مباشرا ومبكرا بأساليب التعـبير القرآنـي والممهـد للتـاثير القرآنـي في الأدب والميسر للفهم الواعي لأساليب التعبير القرآني. فمن خلال رحلتنا في نهج البلاغة

بدا لنا أن كثيرا من الشعراء والخطباء قد نهلوا من صور وصياغات ومعاني نهج البلاغة، فضلا عن كونه سبيلا مهد للمبدعين محاولة التوفيق بين الصنعة والطبع على الطريقة القرآنية بمعنى إقامة الصياغة الفنية البديعية بدون إخلال بالمعنى وقهره على اللفظ .

ودراسة نهج البلاغة على هذا الأساس ستفتح السبيل أمام الدارسين للكشف عن كثير من الإبداع الخطابي عند كثير من الأدباء المبدعين كخطب ابن نباتة وعبد الحميد الكاتب وكثير من الشعراء في العصر العباسي وما تلاه من العصور.

٥ـ الإفادة مما حفل به نهج البلاغة من نظريات اقتصادية واجتماعية وعسكرية وسياسية وإقامة الدراسات الأكاديمية في خطب ورسائل الإمام علي عليه السلام لتبيان أثرها في إصلاح المجتمع ومدى تطبيقها في الواقع الراهن.

٦ـ إدخال كتاب (نهج البلاغة) مادة أساسية في الدراسات الأكاديمية الأولية والعليا وبمراتب متفاوتة لما له من أثر بالغ في صقل اللسان وصونه عن اللحن ناهيك عما حفل من معان سامية تزيد في النفس همتها وتبعث فيها الحماسة والشهامة والفضيلة.

٧ـ تسليط الضوء على المأثور الإنساني المشترك الذي انطوت عليه كلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغة، ففيه إعلاء لقيمة الإنسان وهو معنى ظلت تبحث عنه الإنسانية عبر تاريخها المرير حتى وقتنا الحاضر، فنهج البلاغة فيه من الثراء الإنساني ما يتيح له أن يجمع بني الإنسان من كل مشاربهم وطوائفهم تحت ظله ينهلون من معينه ويقتبسون من نوره. وهو ـ لاشك ـ أمر عجزت عن تحقيقه كل فلسفات الأرض.

* * *

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- **القرآن الكريم** .
- **الأبشيهي**، أبوالفتح، محمد بن أحمد (ت٨٥٠هـ) .
المستطرف في كل فن مستظرف، مطبعة وأوفسيت منير، بغداد، ١٩٨٦م .
- **الآلوسي**: أبو الفضل شهاب الدين محمود البغدادي (ت ١٢٧٠هـ).
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ .
- **الآمدي**، أبو القاسم، الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ).
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م .
- **الأنباري**، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد (ت ٥٧٧هـ).
أسرار العربية ، تحقيق: محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.
- **ابن الأثير**، ضياء الدين نصر الله بن محمد الجزري (ت ٦٣٧هـ).
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د.احمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، الرياض ـ دار الرفاعي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- **ابن الأثير الحلبي**، أحمد بن اسماعيل (ت٧٣٧هـ) .
جوهر الكنز ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، شركة الإسكندرية للطباعة والنشر، منشأة المعارف، الإسكندرية .
- **أرسطو طاليس** .
الخطابة ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٥٩م.
- **ابن أبي الإصبع**، زكي الدين، عبد العظيم بن عبد الواحد (ت٦٥٤هـ).
تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٩٦٣م .
- **الأصبهاني**، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ) .

الأغاني ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
ـ **الأصمعي،** أبو سعيد، عبد الملك بن قريب (ت٢١٦هـ) .
فحولة الشعراء ، شرح وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي و طه محمد الزيني. المطبعة المنيرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٣م .
ـ **امرؤ القيس،** حندج بن حجر .
ديوان امرئ القيس، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: الدكتور عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم للطباعة، بيروت.
ـ **الباقلاني**، أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).
إعجاز القرآن ، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
ـ **البروسي**، اسماعيل حقي البروسي (١١٣٧هـ) .
تفسير روح البيان ، المطبعة العثمانية، استانبول ١٣٣٠هـ .
ـ **البغدادي**، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ).
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، الناشر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٩م.
ـ **البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان، شرحه ووضع ملاحقه وفهارسه: الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ـ ١٩٥٧م.
ـ **البيضاوي**، أبو سعيد،عبد الله ابن عمر بن محمد (ت ٦٨٥هـ) .
أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
ـ **البيهقي**، أبو بكر، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) .
السنن الكبرى ، دار الفكر ـ بيروت .
ـ **الثعالبي**، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن المالكي (ت ٨٧٥هـ) .
الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، حقق أصوله وخرج أحاديثه الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل عبد الموجود، وشارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.
ـ **ثعلب**، لأبي العباس احمد بن يحيي المعروف بثعلب (ت٢٩١ هـ).
قواعد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨م.
ـ **الجاحظ**، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٥م.

ـ **الجاحظ**، الحيوان ، تحقيق، عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٦٩م.

ـ الجاحظ، رسائل الجاحظ ، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، ١٣٨٤هـ .

ـ **الجرجاني**، أبو بكر، ، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)

أسرار البلاغة ، تحقيق: هلموت ريتر، مطبعة وزارة المعارف، الطبعة الثانية، استانبول،١٩٥٤م.

ـ **الجرجاني** .

دلائل الإعجاز ، تعليق وشرح محمد عبد المنعم الخفاجي، الطبعة الأولى، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩م.

ـ **ابن جني**، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) .

الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الهدى للطباعة، بيروت ـ لبنان.

ـ **ابن جني**.

سر صناعة الإعراب ، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف، وإبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م.

ـ **ابن الجوزي**، عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ).

زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: محمد عبدالرحمن والسعيد بن بسيوني، دار الفكر، ١٩٨٧م .

المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

ـ **الجوهري**، اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ ـ ٣٩٨هـ).

تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، ١٩٦٥م.

ـ **ابن حجة الحموي**، أبو بكر بن علي (٨٣٧هـ) .

خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: كوكب ذياب، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .

ـ **ابن حجر**، العسقلاني شهاب الدين(ت٨٥٢هـ).

فتح الباري في شرح البخاري ، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

ـ **ابن آبي الحديد**، أبو حامد ، عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ).

شرح نهج البلاغة .
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٩م .
ـ **حسان بن ثابت** الأنصاري(ت٦٠هـ) .
ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق: الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ١٩٧١م .
ـ **أبو حيان الأندلسي**، محمد بن يوسف الغرناطي(ت ٧٤٥ هـ).
البحر المحيط ، دار الفكر الطبعة الثانية (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م).
ـ **ابن الخشاب**، أبو محمد، عبد الله بن احمد (ت٥٦٧هـ).
المرتجل ، تحقيق ودراسة: علي حيدر ، دمشق، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م بدون تاريخ •
ـ **الخفاجي**، الأمير عبد الله بن سنان (ت ٤٦٦هـ).
سر الفصاحة ، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي، مطبعة محمدعلي صبيح، مصر، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م .
ـ **الدارمي**، أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥هـ) .
سنن الدارمي ، طبع بعناية: محمد أحمد دهمان، دمشق، بدون تاريخ.
ـ **الرازي**، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ).
التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، الطبعة الثانية، طهران.
ـ **الرازي** .
نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف، مطبعة الآداب ـ القاهرة، ١٣١٧هـ.
ـ **الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ).
المفردات في غريب القرآن ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.
ـ **ابن رشيق**، أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ).
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ **الرماني** ،أبو الحسن، علي بن عيسى (ت٣٨٦هـ) .
النكت في إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
ـ **الزجاج**، أبو إسحاق، ابراهيم بن السري (ت٣١١هـ).
تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية ـ دمشق، ١٩٧٤م.

- **الزركشي**، بدر الدين، محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) .
البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٧م .
- **الزمخشري**، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي(ت ٥٣٨هـ). **الكشاف عن حقائق** التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م .
- **الزمخشري** ، أساس البلاغة ، دار صادر، بيروت ،١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- **الزمخشري** ، الفائق في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- **السبكي**، بهاء الدين، أحمد بن علي (ت٧٦٢هـ) .
عروس الأفراح في شروح تلخيص المفتاح ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٣٧٠هـ.
- **أبو السعود**، محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي (ت ٩٥١هـ).
إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **ابن السكيت**، يعقوب بن إسحاق (ت٢٤٤هـ).
إصلاح المنطق ، شرح وتحقيق: احمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م.
- **السكاكي**، أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي (ت٦٢٦هـ). **مفتاح العلوم** .
ضبطه وكتب هوامشه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- **السكري**، أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت ٢٧٥هـ) .
شرح أشعار الهذليين ، حققه: عبد الستار أحمد فراج وراجعه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بدون تاريخ .
- **ابن سلام**، محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) .
طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - مصر، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- **سليم بن قيس الهلالي** (ت٧٦هـ) .

كتاب سليم بن قيس ، تحقيق: محمد باقر الأنصاري، بدون تاريخ .
- **السمعاني**، أبو المظفر، منصور بن محمد(ت٤٨٩هـ) .
تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم .
دار الوطن، السعودية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨ - ١٩٩٧م .
- **سيبويه**، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ).
الكتاب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.
- **ابن سيلة**، علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي (ت٤٥٨هـ) .
المخصص ، دار إحياء التراث العربي ، - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- **ابن سينا**، أبو علي، الحسين بن عبد الله (ت٤٢٨هـ) .
الشفاء، الخطابة ، تحقيق: الدكتور محمد سليم مراد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤م.
- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر (ت٩١١هـ) .
الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٦٧م.
- **السيوطي** .
الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت. ١٩٨١ م .
- **السيوطي** .
معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي للطباعة.
- **السيوطي** .
الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار المعرفة، بيروت - لبنان .
- **الشريف الجرجاني**، علي بن محمد (ت ٨١٦هـ) .
التعريفات ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ .
- **الشريف الرضي**، أبو الحسن، محمد بن الحسين الموسوي (ت٤٠٦هـ) .
تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق: محمد عبدالغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- **الشريف الرضي** .
المجازات النبوية، تحقيق: محمود مصطفى، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.
- **الشريف الرضي** .
حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، شرحه الأستاذ محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار

المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع .
ـ **الصفدي**، صلاح الدين، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ).
جنان الجناس في علم البديع ، الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب، قسطنطينية ١٢٩٩هـ .
ـ **ابن طباطبا**، أبو الحسن، محمد بن احمد العلوي (٣٢٢هـ) .
عيار الشعر، تحقيق: الدكتور طه الجابري والدكتور، محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٥٦م.
ـ **الطبرسي**، أبو علي، الفضل بن الحسين (ت ٥٤٨هـ) .
جوامع الجامع ، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .
ـ **الطبرسي** .
مجمع البيان في تفسير القرآن ، حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
ـ **الطبري**، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) .
جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبعة الثانية، الحلبي ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٤م.
ـ **الطبري** .
تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر ـ القاهرة ١٩٨٧م .
ـ **الطوسي**، أبو جعفر ،محمد بن الحسن(ت٤٦٠هـ).
التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف، ١٩٥٧م.
ـ **ابن عبد السلام** ،عز الدين، عبد العزيز بن عبد السلمي (ت٦٦٠هـ) .
تفسير العز بن عبد السلام ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، بيروت ـ دار ابن حزم ،الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
ـ **ابن عبد ربه**، أحمد بن محمد الأندلسي(ت٣٢٧هـ) .
العقد الفريد ، تحقيق: أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
ـ **أبو عبيدة**، معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٠هـ).
مجاز القرآن ، عارضه بأصوله وعلق عليه د. محمد فؤاد سزكين، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .
ـ **أبو العتاهية**، اسماعيل بن القاسم (ت٢١٠هـ) .
ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت للطباعة والنشر ـ لبنان ١٩٨٦م .

ـ **العسكري**، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت٣٩٥هـ).
جمهرة الأمثال ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الجيد قطامش ،المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

ـ **العسكري** .
كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢ .

ـ **العسكري**، الفروق اللغوية، ضبطه وحققه: حسام‌الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ **ابن عطية**، أبو محمد عبد الحق الغرناطي (ت ٥٤١هـ) .
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق: احمد صادق الملاح، القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

ـ **العكبري**، أبو البقاء، عبد الله بن أبي عبد الله الحسين (ت٦١٦هـ).
التبيان في إعراب القرآن ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ـ **علي بن أبي طالب**عليه السلام (ت٣٦هـ)، بجمع الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ).
نهج البلاغة ، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت ـ لبنان، دار الجيل، الطبعة الثانية ١٤١٦ق.

ـ **العلوي**، يحي بن حمزة (ت ٧٤٩هـ).
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم دقائق الإعجاز ، تصحيح: سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.

ـ **الفارابي**، أبو نصر، محمد بن طرخان (ت٣٣٩هـ) .
الموسيقى الكبير، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير: محمود الحفني، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ **ابن فارس**، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) .
مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٦٦هـ .

ـ **ابن فارس** ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ **الفراء**، أبو زكريا، يحيى بن زياد (ت٢٠٧هـ) .
معاني القرآن ، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ،ومحمد علي النجار ،مطبعة دار الكتب المصرية،

الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥م.
- **الفراهيدي**، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ).
العين ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- **الفيروز آبادي**، مجد الدين، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) .
القاموس المحيط ، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٩٣٥م .
- **الفيض**، محمد بن المرتضى المولى محسن الكاشاني (ت١٠٩١هـ).
التفسير الأصفي، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية .الطبعة الأولى، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٣٥٤هـ .
- **القاضي الجرجاني**، علي بن عبد العزيز(ت٢٩٠هـ - ٣٦٦هـ) .
الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، الطبعة الثالثة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- **ابن قتيبة** ،أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) .
تأويل مشكل القرآن ، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة،مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٣م.
- **ابن قتيبة** .
الشعر والشعراء ، تحقيق: الدكتور أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر ١٩٦٦ م .
- **قدامة بن جعفر**، الكاتب البغدادي(٣٣٧هـ) .
نقد الشعر ، تحقيق: كمال الدين مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ،١٩٦٣ م .
- **القرطاجني** ، ابو الحسن، حازم القرطاجني (٦٨٤ هـ) .
منهاج البلغاء وسراج الادباء ، تحقيق: محمد الحبيب بن خوخة، الطبعة الرسمية، تونس، ١٩٦٦ م.
- **القرطبي**، أبو عبد الله، محمد بن احمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ) .
الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- **القزويني**، أبو المعالي، جلال الدين ،محمد بن عبدالرحمن (ت٧٣٩هـ). **الإيضاح في علوم البلاغة**.
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- **القزويني** .
التلخيص في علوم البلاغة ، ضبطه وشرحه: الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٢م.

- **ابن قيم الجوزية**، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر الزرعي (ت٧٥١هـ).
بدائع الفوائد ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- **ابن كثير**، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ). **تفسير القرآن العظيم**.
دار الأندلس - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- **الكرماني** ، تاج القراء، محمود بن حمزة بن نصر(ت٥٠٥هـ).
أسرار التكرار في القرآن ، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- **كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني (ت٢٦هـ)** .
ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧م .
- **كعب بن مالك الأنصاري**(ت٥٠هـ) .
ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق: الدكتور سامي مكي العاني، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- **مالك بن أنس**(ت١٧٩هـ) .
الموطأ ، صححه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- **المبرد**، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) .
الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة عيسى البابي، مصر ١٣٥٥هـ .
- **المبرد** .
المقتضب ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.
- **المتقي الهندي**، علاء الدين بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ) .
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان ١٩٨٩م .
- **المرتضى**، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت٤٣٦ هـ).
أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
- **المرزباني**، أبو عبيد الله، محمد بن عمران (ت٢٩٦هـ - ٣٨٤هـ).

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، عنيت بنشره: جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٣هـ.

- **ابن مزاحم،** نصر المنقري(ت٢١٢هـ) .

وقعة صفين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٣٨٢هـ.

- **ابن المعتز،** عبد الله بن المعتز (ت١٩٦هـ).

البديع ، تحقيق: كراتشوفسكي، مطبوعات جب التذكارية، لندن، ١٩٣٥م .

- **ابن معصوم المدني،** علي بن احمد (ت ١١١٩ هـ).

أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان ـ النجف الأشراف، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- **المفضل الضبي،** أبو العباس المفضل بن محمد الضبي(ت١٦٨هـ) .

المفضليات، بقلم ضابطها وشارحها حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية ـ مصر ١٩٢٦م.

- **المفيد،** الشيخ أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤٣١هـ).

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ، تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

- **المناوي،** محمد عبد الرؤوف (ت١٠٣١هـ) .

التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت _ دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- **ابن منظور،** أبو الفضل، جمالالدين محمد بن مكرم المصري(ت ٧١١هـ). **لسان العرب**.

دار صادر ودار بيروت، لبنان ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٥م.

- **ابن ميثم البحراني،** كمال الدين، ميثم بن علي بن ميثم، (ت ٦٧٩هـ).

شرح نهج البلاغة (المصباح شرح الكبير)، مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران ١٤٠٤ق.

- **الميداني،** أبو الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري (ت٥١٨هـ).

مجمع الأمثال ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩م .

- **ابن ناقيا،** أبو القاسم، عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي (ت٤٨٥هـ). **الجمان في تشبيهات القرآن** .

تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، دار الجمهورية، بغداد ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.

- **النحاس،** ابو جعفر، أحمد بن محمد(ت٣٣٨هـ) .

معاني القرآن ، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة،الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ .

- **النسائي**، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٢١٥هـ - ٣٠٣هـ).

خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، حققه وصحح أسانيده ووضع فهارسه: محمد هادي الأميني،مكتبة نينوى الحديثة .

- **النسفي**، أبو البركات، عبد الله بن احمد بن محمود (ت ٧١٠هـ).

مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المطبعة الأميرية، القاهرة ،١٩٣٩م .

- **أبو نواس،** الحسن بن هانئ (ت١٩٩هـ) .

شرح ديوان أبي نواس ، ضبط معانيه وشروحه: إيليا الحاوي، الشركة العالمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- **ابن هشام،** عبد الملك بن هشام المعافري (٢١٣هـ) .

السيرة النبوية، قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت ١٩٧٥م.

- **ابن هشام،** جمال الدين الأنصاري (ت٧٦١هـ).

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤٠٥هـ .

- **ياقوت الحموي**، ابو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ) .

معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م .

ثانياً: المراجع الحديثة

- **ابتسام مرهون الصفار(الدكتورة)** .

اثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري ، دار الرسالة ،الطبعة الأولى، بغداد - ١٩٧٤ م .

- **إبراهيم أنيس** (الدكتور) .

الأصوات اللغوية ، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ، - مصر، الطبعة الثالثة ١٩٦١م.

- **إبراهيم أنيس** .

دلالة الألفاظ ، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة البيان العربي - مصر، ١٩٦٣م.

- **إبراهيم أنيس** .

موسيقى الشعر ، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، الطبعة الثالثة ١٩٦٥م.

- **ابراهيم السامرائي** (الدكتور) .
مع نهج البلاغة، دراسة ومعجم ، دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .
- **ابراهيم سلامة(الدكتور)** .
بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، الطبعة الثانية، مطبعة مخمير، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
- **احسان النص** .
الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٣ م .
- **أحمد أحمد بدوي**(الدكتور) .
من بلاغة القرآن ، الطبعة الثالثة مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٠م.
- **احمد الشايب** .
الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) ، مطبعة السعادة، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٥٦م .
- **احمد محمد الحوفي(الدكتور)** .
بلاغة الإمام علي ، نهضة مصر للطباعة - القاهرة، ٢٠٠٠م .
- **أحمد مختار**(الدكتور) .
علم الدلالة ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م.
- **أحمد مطلوب (الدكتور)** .
البلاغة العربية، مطبعة وزارة التعليم العالي، المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٠م.
- **إسماعيل الصدر** .
حياة أمير المؤمنين في عهد النبي ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٤م .
- **أمين الخولي** .
فن القول ، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٤٧ .
- **أنيس المقدسي** (الدكتور) .
تطور الاساليب النثرية في الادب العربي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت - ١٩٦٠م.
- **أويس كريم محمد** .
المعجم الموضوعي لنهج البلاغة ، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد - ايران، ١٤٠٨ق .
- **ايليا الحاوي** .
فن الخطابة وتطوره عند العرب ، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت - لبنان (بدون تاريخ) .
- **بدوي طبانة (الدكتور)** .
بلاغة القرآن ، دار الشؤون الثقافية، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ - ١٩٩١م .

- **بدوي طبانة** .
البيان العربي (دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى)، دار العودة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٢م .
- **البرقوقي، عبد الرحمن** .
شرح ديوان المتنبي ، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ .
- **بكري شيخ أمين**(الدكتور) .
التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م

- **التستري**، محمد تقي .
بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، دار أمير كبير للنشر، طهران، الطبعة الأولى١٣٧٦ق.
- **تمام حسان(الدكتور)** .
مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة ـ المغرب ١٩٧٩ م .
- **جابر عصفور**(الدكتور) .
مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي ، المركز العربي للثقافة والعلوم، ١٩٨٢ م .
- **جابر عصفور** .
الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان ١٩٨٣م.
- **جبور عبد النور** .
المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩ م.
- **جواد المصطفوي** الخراساني .
الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه ، بازار سلطاني ـ طهران، (بدون تاريخ).
- **جميل سعيد**(الدكتور) .
دروس في البلاغة ، مطبوعات دار المعلمين العالية مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥١م .
- **جورج جرداق** .
روائع نهج البلاغة ، مطبعة باقري، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
- **حامد حفني**(الدكتور) وآخرون.
نهج الحياة ، الطبعة الأولى، طهران، بدون تاريخ .
- **حبيب الله الخوئي**، العلامة ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي .
منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ، طهران، المكتبة الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ق.

- **حسين جمعة**(الدكتور) .
في جمالية الكلمة، دراسة جمالية بلاغية نقدية ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م .
- **داود سلوم** (الدكتور) .
سوسيولوجيا النقد العربي القديم (دراسة العلاقة بين الناقد والمجتمع) ، مؤسسة المختار - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م .
- **درويش الجندي**(الدكتور) .
النظم القراني في كشاف الزمخشري ، مطبعة مصر، ١٩٦٩م .
- **رضا الموسوي الهندي،** السيد (ت ١٣٦٢هـ) .
ديوان السيد رضا الهندي، راجعه وعلق عليه: الدكتور عبد الصاحب الموسوي، دار الأضواء، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨م .
- **رمضان عبد التواب**(الدكتور) .
المداخل إلى علم اللغة، الطبعة الأولى، مطبعة المدني - القاهرة، ١٩٨٢م .
- **زكي مبارك(الدكتور)** .
عبقرية الشريف الرضي ، مطبعة حجازي، الطبعة الثانية، ١٩٥٢.
- **الزركلي**، خير الدين .
الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م .
- **زكي نجيب محمود** (الدكتور) .
في فلسفة النقد ، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٨م .
- **زكي نجيب محمود** .
المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ، دار الشروق، القاهرة - بيروت ن بدون تاريخ .
- **الزيات**، أحمد حسن .
دفاع عن البلاغة ، الطبعة الثانية، مصر - القاهرة ١٩٦٧م، لم يذكر مكان الطبع.
- **سعيد علوش** .
معجم المصطلحات الادبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت، سوشبريس - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م
- **سليمان عمرقوش**(الدكتور) .
الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم ، دار الحرمين - الدوحة، الطبعة

الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
- **سيد قطب** .
التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار المعارف ـ مصر، ١٩٥٩ م .
- **سيد قطب** .
النقد الأدبي، أصوله ومناهجه ، دار الفكر العربي، طبعة الشروق .
- **شاكر عبد الجبار** .
ملامح كونية في القرآن ، مطبعة منير ـ بغداد ١٩٨٥م .
- **شكري عياد**(الدكتور) .
موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٨ م.
- **الشنقيطي**، أحمد الأمين .
أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م .
- **الصاوي الجميلي**، مصطفى .
منهج الزمخشري في تفسير القران وبيان إعجازه ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٩م.
- **صبحي الصالح**(الدكتور) .
نهج البلاغة ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٧م .
- **صلاح فضل** (الدكتور) .
نظرية البنائية ، مكتبة الانجلو ـ القاهرة، ١٩٧٨م.
- **طه أحمد ابراهيم** .
تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري ، دار الحكمة، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ .
- **طه حسين**(الدكتور) وآخرون .
التوجيه الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.
- **عائشة عبد الرحمن**، بنت الشاطئ (الدكتورة) .
الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل أبن الأزرق، دار المعارف، مصر، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
- **ابن عاشور**، محمد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ) .
التحرير والتنوير ، طبع الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ .
- **عاطف جودت** نصر(الدكتور) .
الخيال مفهوماته ووظائفه ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

- **عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز** .
مع الطب في القرآن الكريم ، مؤسسة العلوم للقرآن، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠، الطبعة الثانية ١٩٨٢م .
- **عبد السلام المسدي**(الدكتور) .
الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م .
- **عبد العليم السيد فودة** .
أسلوب الاستفهام في القرآن، المجلس الأعلى لرعاية الفنون، القاهرة .مؤسسة دار الشعب، بدون تاريخ.
- **عبد الله الطيب** المجذوب(الدكتور) .
المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى ـ مصر ١٩٥٥م .
- **عبد الواحد حسن الشيخ** (الدكتور) .
البديع والتوازي ، مطبعة الإشعاع، الطبعة الأولى ،مصر ـ ١٩٩٩م .
- **عز الدين اسماعيل**(الدكتور) .
التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ـ بيروت. ١٩٦٣م .
- **عز الدين اسماعيل**(الدكتور) .
الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة ، دار الشؤون الثقافية ـ بغداد، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.
- **العقاد**، عباس محمود .
عبقرية الإمام علي ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت .
- **العقاد**، وعبد القادر المازني .
الديوان في النقد والأدب ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢١م.
- **العقاد** .
ابن الرومي، حياته من شعره ، الطبعة الرابعة، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٧م .
- **علي الجندي**(الدكتور) .
فن الجناس ، مطبعة الاعتماد ـ مصر، ١٩٥٤ م .
- **علي جواد الطاهر**(الدكتور) .
مقالات ، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ـ بغداد ١٩٦٢م .
- **فارس تبريزيان** .

نهج البلاغة، تعليق وفهرسة الدكتور صبحي الصالح .
تحقيق الشيخ فارس تبريزيان، دار الهجرة للطباعة، قم، الطبعة الثانية .
- **فاضل السامرائي**(الدكتور) .
التعبير القرآني ، بيت الحكمة - جامعة بغداد ١٩٨٧ م .
- **فاضل السامرائي** .
معاني الأبنية في العربية، ساعدت جامعة بغداد على نشره الطبعة الأولى (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- **فاضل السامرائي** .
لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م .
- **فؤاد زكريا**(الدكتور) .
مع الموسيقى ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧١م.
- **فوزي عطوي** .
المعلقات العشر، دراسة ونصوص ، الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت ١٩٦٩م .
- **قاسم حبيب جابر** (الدكتور) .
الفلسفة والإعتزال في نهج البلاغة، المؤسسة العالمية للدراسات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- **القاسمي، محمد جمال الدين** .
محاسن التأويل ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٨م .
- **قيس الأوسي**(الدكتور) .
أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٨ م.
- **كريم الوائلي**(الدكتور) .
الخطاب النقدي عند المعتزلة ، دار الكتب والوثائق، بغداد ٢٠٠٦م .
- **كمال أبو ديب**(الدكتور) .
في البنية الايقاعية للشعر العربي ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١م .
- **ماهر مهدي هلال**(الدكتور) .
جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الحرية للطباعة - بغداد، ١٩٨٠م.
- **مجيد عبد الحميد ناجي(الدكتور)** .

الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

ـ **مرتضى المطهري** .

في رحاب نهج البلاغة ، ترجمة هادي اليوسفي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان ١٩٧٨م .

ـ **محمد إبراهيم إسماعيل** .

القرآن وإعجازه العلمي ، دار الفكر العربي ودار الثقافة العربية للطباعة .

ـ **محمد جواد مغنية** .

في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد ، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٢م.

ـ **محمد حسن آل ياسين** .

عبد الله بن رواحة ، مطبعة الديواني، بغداد، ١٩٨٧م.

ـ **محمد حسنين أبو موسى(الدكتور)** .

البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـ **محمد حسين الحسيني الشيرازي** .

توضيح نهج البلاغة ، دار تراث الشيعة، طهران، بدون تاريخ .

ـ **محمد حسين الجلالي** .

دراسة حول نهج البلاغة ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

ـ **محمد حسين الأعرجي** (الدكتور) .

الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي ، مطبعة الإشعاع ـ الاسكندرية.

ـ **محمد حسين علي الصغير**(الدكتور) .

رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ، مؤسسة البلاغ، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

ـ **محمد حسين علي الصغير**.

الصورة الفنية في المثل القرآني، دراسة نقدية وبلاغية ، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١ م .

ـ **محمد حسين علي الصغير** .

أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م .

ـ **محمد حسين علي الصغير** .

الصوت اللغوي في القرآن ، دار المؤرخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

- **محمد حسين علي الصغير** .

نظرات معاصرة في القرآن الكريم (ملامح الإعجاز في القرآن العظيم) ، دار المؤرخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

- **محمد حسين علي الصغير** .

مجاز القران ، دار المؤرخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

- **محمد حسين الطباطبائي** .

الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان ١٩٧٢م.

- **محمد عبد المطلب** (الدكتور) .

البلاغة والأسلوبية ، مطابع الهيئة المصرية القاهرة، ١٩٨٤م .

- **محمد عبدة** .

نهج البلاغة ، مطبعة بابل ـ بغداد ١٩٨٤م.

- **محمد علي البار**(الدكتور) .

خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، جدة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

- **محمد غنيمي هلال**(الدكتور) .

النقد الأدبي الحديث ، مطبعة الاستقلال ـ مصر، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م .

- **محمد فؤاد عبد الباقي** .

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

- **محمد مهدي البصير**(الدكتور).

عصر القرآن ، مطبعة النعماني، الطبعة الثانية ـ بغداد، بدون تاريخ.

- **محمد مصطفى هدارة**(الدكتور) .

مشكلة السرقات في النقد الأدبي ، مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى ١٩٥٨م.

- **محمد مندور(الدكتور)** .

في الميزان الجديد ، مطبعة النهضة، الطبعة الثالثة ـ مصر، بدون تاريخ .

- **محمد النويهي(الدكتور)** .

الشعر الجاهلي، منهج في دراسته ، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة، بدون تاريخ .

- **محمد ياس الدوري**(الدكتور) .

دقائق الفروق اللغوية ، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م .

ـ **محمد طاهر درويش**(الدكتور) .

الخطابة في صدر الإسلام، العصر الديني ـ عصر البعثة النبوية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

ـ **محمد متولي الشعراوي** .

معجزة القرآن ، مطبعة الدار العربية، بغداد، بدون تاريخ .

ـ **مصطفى جمال الدين**(الدكتور) .

الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٧٠م.

ـ **مصطفى صادق الرافعي** .

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الطبعة الثانية، دار الكتاب ـ بيروت، ١٩٩٠م.

ـ **مصطفى ناصف**(الدكتور) .

الصورة الأدبية ، مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٨م .

ـ **مناف مهدي الموسوي(الدكتور)** .

علم الأصوات اللغوية ، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

ـ **مهدي المخزومي (الدكتور)** .

في النحو العربي، نقد وتوجيه ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤م.

ـ **منير سلطان**(الدكتور) .

البديع تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف، الاسكندرية ـ ١٩٨٦م .

ـ **نعمة رحيم العزاوي**(الدكتور) .

النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، دار الحرية للطباعة بغداد ـ ١٩٧٨م.

ـ **نور الدين السد** .

الأسلوبية وتحليل الخطاب(الأسلوبية والأسلوب) ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الجزائر الطبعة الأولى ١٩٧١م .

ـ **وليد قصاب** (الدكتور) .

عبد الله بن رواحة. دراسة في سيرته وشعره (ت٨هـ) ، دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

ـ **آرشيبالد مكليش** .

الشعر والتجربة ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مراجعة توفيق صايغ، دار اليقظة

العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ نيويورك، ١٩٦٣.
ـ **تشارلتن**.
فنون الأدب، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة ١٩٤٥م.
ـ **جورج فندريس**.
اللغة، ترجمة: عبدالحميد الدواخلي ود. محمد القصاص، مكتبة الانجلو ـ القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م.
ـ **رينيه ويليك و أوستن وارين**.
نظرية الأدب، ترجمة: محيي الدين صبحي، مراجعة الدكتور حسام الخطيب، الطبعة الثالثة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٢م.
ـ **ستيفن أولمان**.
دور الكلمة في اللغة، ترجمة الدكتور كمال بشر، الناشر مكتبة الشباب ـ المنيرة، بدون تاريخ.
ـ **سي ـ دي لويس**.
الصورة الشعرية، ترجمة الدكتور احمد نصيف الجنابي ومالك ميري وسلمان حسن إبراهيم، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر ـ الصفاة، الكويت، بدون تاريخ.
ـ **لاسل آبر كرومبي**.
قواعد النقد الأدبي، ترجمة الدكتور محمد عوض محمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٤٤م.
ـ **لويس هارتيك**.
الفن والأدب، تعريب: الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي، مراجعة الدكتور عمر شخاشيرو، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٦٥م.
- Modern trends in islam.H.A.R.Gibb the uni.chicago.١٩٧٥.P.٤
ـ **نورثرب فراي**.
تشريح النقد، محاولات أربع، ترجمة: الدكتور محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
ـ **ويلبريس. سكوت**.
خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، مقالات معاصرة في النقد، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور عناد غزوان إسماعيل وجعفر صادق الخليلي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ١٩٨١.

رابعاً: الأطاريح والرسائل الجامعية:

ـ ابتسام عبد الكريم المدني .

الجنة في القرآن الكريم، دراسة جمالية، (رسالة ماجستير)، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٦م.

ـ ابتسام عبد الكريم المدني .

بنية النص القرآني، دراسة موازنة بين البُنى العقائدية واللغوية والفنية ، اطروحة دكتوراه، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠١م .

ـ أحمد صالح النجماوي .

السماء والأرض في القرآن، دراسة دلالية ، (رسالة ماجستير)، الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م .

ـ أصيل محمد كاظم .

أساليب التوكيد في نهج البلاغة، دراسة تحليلية ، (رسالة ماجستير)، جامعة القادسية .

ـ بثينة إبراهيم دهش .

خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٧م .

ـ حسن حميد محسن فياض .

الرؤية الإسلامية في شعر المخضرمين ، (أطروحة دكتوراه)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، ٢٠٠١م.

ـ فراس عبد الكاظم حسن .

المبني للمجهول في نهج البلاغة، دراسة لغوية ، (رسالة ماجستير) ،كلية التربية ـ جامعة بابل، ٢٠٠٣م.

ـ عباس علي الفحام .

التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام ، (رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة ١٩٩٩م .

ـ هدى عطية عبد الغفار .

السجع القرآني، دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير،كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، ٢٠٠١م.

خامساً: البحوث والدوريات:

ـ إيمان الشنيفي .

التناص النشأة والمفهوم ، مجلة أفق الثقافية، العدد الأول ، أكتوبر ٢٠٠٣م .
ـ **حاكم حبيب الكريطي**(الدكتور) .
القسم في الشعر الجاهلي، دراسة أدبية ، مجلة كلية الدراسات الاسلامية ،جامعة الكوفة ،العدد الثاني، السنة الأولى،٢٠٠٦.
ـ **علي ناصر**(الدكتور) .
الجملة الطويلة في القرآن الكريم ، كلية التربية، جامعة بابل .
ـ **محمد حريز** .
البنية الإيقاعية وجمالياتها في القرآن ، مجلة التراث العربي، العدد٩٩و١٠٠، ٢٠٠٥م، دمشق.
من الانترنت موقع (اتحاد الكتاب العرب) .

سادساً: الانترنت والمكتبات الألكترونية:

ـ **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني ٢٠٠١م، إصدار شركة سيما فور للتقنية، المملكة العربية السعودية، الرياض، يمكن تحميله مجانا من الشبكة العالمية من الموقع: (www.noor.com) أو(www.deen.com) .

ـ **المعجم الفقهي**، الإصدار الثالث ٢٠٠١م، إصدار مركز المعجم الفقهي، الحوزة العلمية بقم المشرفة (www.almarkaz.net).

ـ **مكتبة الأدب العربي**، الإصدار الأول ١٩٩٩م، إعداد: مركز الخطيب، عمان ـ الأردن (www.turath.com) .

ـ **مكتبة التفسير وعلوم القرآن**، الإصدار ١٩٩٩م، إعداد: مركز الخطيب، الأردن ـ عمان (www.turath.com) .

ـ **الموسوعة الشعرية**، الإصدار الثالث، تصدر عن المجمع الثقافي، دولة الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٣ (www.cultural.org.ae).

ـــ موسوعة نهج البلاغة، مركز البحوث الكمبيوترية للعلوم الإسلامية (www.noorsoft.org) .

* * *

فهرس الكتاب

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة



www.imamali-a.com



htpp://ar.icro.ir

رقم الاصدار (١٣)